رحلت والدتي بقيت أمي

إلهام منصور

رحلت والدتي بقيت أمي

رواية

MY MOTHER IS GONE, MY MOM IS LEFT

ilham mansour

(Novel)

First Published in January 2012
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-524-2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٢

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

لوحة الغلاف: نهى الراضي (العراق)
تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

1

أتتني صديقتي الحميمة هبى في أحد الأيام، دخلتْ عيادتي، توجهتْ مباشرة إلى الكنبة المخصّصة لاسترخاء المرضى، تمدّدت فوقها، أخذت نفساً عميقاً وقالت: «سأتعامل معك اليوم كمعالجة لا كصديقة، سأفرغ ما في قلبي وأنت لست غريبة عنه، لقد أُنهكتُ وما عاد باستطاعتي التحمل».

ـ هات ما عندك، أنا مستعدة للإصغاء حتى ولو أنني أعرف مشكلتك جيداً. أجبتها. فتابعت:

ـ البارحة مساءً خرجتُ من بيت والدتي مندفعةً كالإعصار لأتلافى انفجاري أمامها وأمام السيدة التي تزورها كل يوم لمؤانستها في فترة قبل الظهر وخلال السهرة. نهضتُ من مقعدي قبالتها، نتشتُ محفظتي وأسرعتُ نحو الباب الذي صفعته ورائي. ما إن أصبحتُ في الخارج حتى سمعتني أقول بصوت خفيض

كي لا أتّهم بالجنون: «يا ألله لم يعد هناك من حلّ وعليك أن تختار بيني وبينها، خذها أو خذني لأرتاح من هذا الجحيم الذي رميتني فيه من دون ذنب ارتكبته سوى أنني ابنة هذه الإنسى التي لا ترتوي». لكن سرعان ما تغيّرت نبرتي وكرجتْ على لساني كل أنواع الشتائم والسباب التي وجّهتها أولاً نحو الله، هذا الكائن، الذي إن وجد، فهو حتماً أكثر الكائنات سادية وظلماً. لعنتُ كل هذا الكون وكل ما فيه وصولاً إلى باريه، لعنتُ إخوتي ولم أتورّع عن لعن أبي الذي هو في دار الآخرة منذ عشرين سنة، وانتهيت إلى شتم الساعة التي وُلدت فيها.

صمتت هبى قليلاً ثم أكملت:

ـ ركبتُ سيارتي وتوجّهتُ آلياً نحو بيتي. لكن ما إن أصبحتُ وحدي داخل السيارة حتى علا صوتي وهو يردّد اللعنات السابقة. وصلتُ إلى بيتي الذي يشعرني بالأمان لأنه خالٍ من أي وجود يعكّر وحدتي التي تعوّدتها وسكنتُ إليها وأصبحتْ ملجئي وترسي الذي يحميني من كل المخالب المسنونة المتحفّزة دائماً لأن تُغرز حيثما تمكّنت كما تعلمين جيداً. رميتُ أغراضي وجلستُ في مقعدي الذي أخذ شكل جسدي. حاولتُ أن أسترخي لكنني فشلتُ وشعرتُ بالحاجة إلى تفريغ انفعالي بشكل من الأشكال. لم يكن أمامي سوى الهاتف الذي رفعتُ سماعته وطلبتُ رقم شقيقتي كي أرمي عليها ومن خلالها على إخوتي قسطاً من ثورتي وغضبي. تركتني شقيقتي أقذف كل حممي وحين انتهيتُ أجابتني بكل برود: «الحق عليك أنت مطمّعتيها. عملي متلنا».

ـ ماذا تقصدين؟ صرختُ بها، هل أصبحتُ أنا المذنبة بالرغم من كل ما أتحمّله؟

ـ اسمعي نصيحتي وطنّشي وإلا تَقضي عليك. أجابتني شقيقتي.

ـ ستقضي عليّ لأنكم كلّكم أهملتموها ولم يعد لها ملجأ سواي وهي لا تتّصل بكم ولا أنتم ترون ما أرى ولا تعيشون ما أعيش من تمزّق وغضب سيوصلانني إلى الانهيار. صرختُ بها، لكنها تابعتْ:

ـ على كل حال، علاقتها بك هي علاقة مرَضية منذ طفولتنا، فهي لم تهتمّ بي كما اهتمّتْ بك، ولهذا السبب لا أشعر بعقدة ذنب إن لم أهتم بها الآن. بكل صراحة لا تعني لي الكثير. أعاملها كما يفرض عليّ الواجب فقط ولست مستعدّة لأكثر من ذلك. وإن أردت أن ترتاحي فاحذي حذوي وعليها أن تشكر ربّها لأننا نؤمّن لها كل ما تحتاج إليه، لكنها لا ترتوي وأنا لست مستعدة لأن أسمّم حياتي كرمى لعينيها. لقد عاشت حياتها وعليها أن تتركنا نعيش حياتنا كما يحلو لنا لا كما تريد هي.

بعدما روت هبى ما قالته شقيقتها تابعت:

ـ استقويت بما سمعته من شقيقتي وقرّرت أن أتبع نصيحتها. شعرت بقوة أذابت كل غضبي السابق وردّدت لنفسي: «لن أتركها تستبدّ بي».

استرخيتُ في مقعدي وفتحتُ الرواية التي كنت قد بدأت قراءتها في فترة قبل الظهر وباشرت بالاستمتاع بلغة الكاتب وإن كانت على حساب المضمون الذي كان عادياً لا يتعدّى السطوح الخارجية للأمور. وتساءلت هل تتحوّل اللغة أحياناً إلى منقذٍ في غياب إمكانية الغوص في لبّ الموضوعات؟ لن أسترسل في تساؤلاتي سأترك نفسي تستمتع بجمال اللغة وهي متعة كما غيرها

من متع القراءة. غصت في النص محاولة حفظ بعض المفردات التي سأستعين بها في كتاباتي اللاحقة. لكن متعتي لم تطل إذ رنّ جرس الهاتف وأتاني صوت السيّدة التي ترافق والدتي. قفز قلبي من مكانه: «هل ماتت والدتي؟ هل أصابها مكروه؟».

ـ والدتك تريد أن تكلمك. أجابتني السيدة.

«ارتحت حين سمعت كلامها وسألتها: «ماذا تريد والدتي في مثل هذه الساعة؟».

ـ لا أعرف، طلبت مني أن أتصل بك. أجابتني.

ـ هاتها. قلتُ لها.

ـ سامحيني. سمعتُ والدتي تقول، لا تلومي تصرفاتي فأنا روحي معلّقة فيكِ، لا تتركيني.

ـ أنا لن أتركك، أجبتها، لكن دعيني أعيش حياتي، ألا ترين أنني أزورك كل يوم وأمضي معك أكثر من ثلاث ساعات. عليك أن تعلمي أن لديّ مشاغل كثيرة ولا أستطيع أن أكرّس كل حياتي لك كما تودّين.

ـ اعملي شو ما بدّك بس ما تتركيني. صمتت والدتي قليلاً ثم تابعت: هل تأتين غداً؟

لم أصمد أمام انكسارها وأجبتها: «أراك غداً».

ـ أنت أيضاً تحبينها كما تحبّك، وأكاد أقول إنك متعلقة بها كما هي متعلقة بك لكنك تودين أن تكون العلاقة بينكما على

مزاجك وليس على مزاجها هي. قلت لصديقتي هبى محاولة أن أستدرجها إلى التعبير عن مكنونات لاوعيها، فأجابتني:

ـ أقفلت خط الهاتف مع والدتي، وغرقت في ذاتي وفي هذا التأرجح الذي يتقاذفني بين الغضب والحنان. صحيح أنني لا أتحمّل تسلّطها واستبدادها لكنّني لا أتحمّل أيضاً انكسارها وضعفها: يا ألله إن كنتَ موجوداً فأنقذني من هذه الدوّامة.

ـ لن ينقذك أحد من هذه الدوامة لأنك أنت من أدخل نفسه فيها وعوّدت والدتك على نمط معيّن من العلاقة. قلت لها محاولة التدخل لجر الكلام إلى توجه آخر.

لم تجبني هبى مباشرة لأنها تعي جيداً ما أقصد بكلامي، وتابعت كأنها لم تسمعني:

ـ ما إن تلفّظت بهذه العبارة حول الدوّامة، حتى تحوّلت إلى أبي لأصبّ عليه كل معاناتي.

أدركتُ هنا أنها تود البوح بما كانت عليه علاقتها بوالدها، فصمتُّ وتابعتْ هبى:

ـ لن أغفر لك رحيلك المبكر، قلت لوالدي، لن أسامحك على هذا الإرث الذي أورثتني إياه من دون سواي، لن أسامحك على هذا الحمل الثقيل الذي أنهكتَ منكبيّ به. لماذا رحلت قبل أوانك؟ أكنت تكرهني إلى درجة أنك تركتني أقوم بالدور الذي لم تستطع القيام به وحدك إلا بجهد كبير أنهكك، فاستعجلتَ نهايتك غير آبه بما سيحصل بعدك؟ أنا عاتبة عليك لكنني أتفهّمك، لقد عانيتَ الكثير، عانيت بصمت حتى تلفت أعصابك

وأصبت بذلك المرض الذي لا يأتي إلا للقلّة النادرة من الناس الذين تحمّلوا أكثر مما يقدرون. لكن ما ذنبي أنا؟ كنتَ أنتَ زوجها، وأنت من اختارها شريكة لحياته وأنجبتماني بغير رضاي. هل أنجبتني لأشاركك معاناتك؟ عشرون عاماً على رحيلك وأنا أكتوي بنار هذا التمزّق بين التمرّد والخنوع وبين العقوق والانصياع، بين أن أعيش حياتي أو أن أدفنها تحت أقدام تسلّطها واستبدادها وسطوتها وأنا حائرة بين اقتناعي بوعيها لحالها أو عدم وعيها بما تفعله بي. لقد عايشتَها لخمسين عاماً ولم تتمكّن من تغييرها، ولحسن حظنا، نحن أبناءكما، أنها لم تغيرك؛ كنتَ أنت العطاء والمحبة والتسامح والتفهّم والطيبة مع حدّة الذكاء لكنك كنت ضعيفاً معها كما كان ظاهراً وظاهراً فقط لأنك كنت تسقط من حقوقك تلافياً للفضيحة وإنقاذاً للعائلة. أنا متأكدة أنك فكّرت مرّات عديدة بالطلاق لكنك جَبُنت أو تعاليت واستوعبت، ولهذا السبب شجّعتني عليه حين عرضتُ عليك وضعي المقيت مع زوجي. يومها سارعتَ إلى القول: «طلّقيه وأعيدي بناء حياتك من جديد، لا تظلمي نفسك ولا تستمرّي مع شخص ليس لك». فهمتُ، في حينه، المستور من كلامك لكنني فهمته أكثر بعد رحيلك، ولهذا السبب أردّد دائماً أنك صعدت إلى السماء مباشرة بعدما تركتَ الدنيا لأنك عشت مطهرك على الأرض. لكنني لستُ مؤمنة بالآخرة وأودّ أن أعيش الجنّة هنا ولتأتِ الآخرة كما تشاء أو كما تريده لها الديانات السماوية».

هنا تدخّلتُ مجدداً وقلت لهبى: «هيا نفّذي ما تريدينه، عيشي الجنة هنا على الأرض ولديك كل الإمكانات والمقومات لتحقيق ذلك، لا تُغرقي نفسك في مشاكل جانبية وكأنك تهربين من ذاتك فيها». لكنها هربت من جديد وعادت إلى الدوامة التي

تحتجز نفسها فيها وتابعت مخاطبة والدها:

ـ لن أنسى ما ردّدته على مسمعي مرات عديدة حين كنتُ أختلي بك لأوقات قصيرة بعد نوبة من صراخها وتأنيبها لك، كنتَ تردّد بالفرنسية ما معناه: «العائلة السعيدة هي أمّ تنسى نفسها»، وتضيف: «والدتك هي مركز الكون». كنتَ تقول ذلك وأنت تهزّ برأسك كأنك بهذه العبارة تلخّص كل علاقتك بها. لكنك الآن ارتحت من عذابك ونصّبني الدهر وريثة لك. آه لو تدري، وأنا مقتنعة أنك تدري، ما هي فداحة هذا الإرث الذي يقصف أكثر الظهور متانة. هل أعاتبك أم أترحّم عليك؟ لستُ أدري، فحبي لك يدفعني إلى الترحم على روحك الطاهرة وعذابي معها يدفعني إلى العتب عليك وعلى تخلّيك عني. ارقد حيث أنت بسلام لكن ادع لي بأن أنعم بالسلام وأنا قوية وقادرة على التمتّع به وليس بعد فوات الأوان».

ـ لماذا تطلبين من والدك أن يساعدك وأنت لا تقومين بما ينبغي كي تتمتعي بالحياة قبل فوات الأوان؟ سألتُها وهي ما زالت ممدّدة على المقعد الطويل.

ـ أرجوكِ لا تقاطعيني، أجابتني هبى، لأنني أرى والدي يبتسم تلك الابتسامة المرّة التي كانت تلخّص كل معاناته معها، أراه يهزُّ رأسه يمنة ويسرة وهو صامت، أقرأ العجز عن تغيير الواقع في عينيه، أشعر بتعاطفه معي من الدمع المحتبس تحت جفونه وما كنت أراه ينهمر سوى مرة واحدة في حياته، يوم أتانا خبر موت العم جورج الذي كان كواحد من العائلة على الرغم مما فعله به في فترة خطوبته من والدتي التي دامت سبع سنوات، وهي مدّة دراسته الطب في المعهد اليسوعي في بيروت خلال الثلاثينيات

من القرن الماضي. أسمعه يسألني: «هل أخبرتْكِ؟» وأجيبه: «نعم أخبرتني، لكنها فعلت ذلك من باب الفخر والاعتزاز إذ جعلتني أفهم من روايتها أن كل شباب الضيعة كانوا يتمنون الزواج بها لأنها الأجمل ولأنها ابنة الشيخ فوّاز ذلك الرجل الشجاع صاحب المبدأ والذي «لا يغيّر كلمته حتى على قطع رأسه».

ـ جدي فواز أعرفه جيداً، لكن أخبريني كيف ولماذا بعثت تلك الرسالة إلى والدي؟ سألتُ والدتي.

ـ لم أرسل أية رسالة إلى والدك، جورج هو الذي فعل. أجابتني.

ـ لكن الرسالة كانت بخط يدك. قلت لها بكل إصرار.

ـ صحيح، قالت والدتي، وهي تبتسم.

ـ ماذا تقصدين وهل العم جورج كان يريدك له؟ وهل أنت كنت تحبينه؟ سألتها من جديد. وأجابت:

ـ جورج كان أستاذاً يعلّمني اللغة العربية بعدما عدت من البرازيل التي أمضيت فيها أكثر من أربع سنوات برفقة جدتي التي أحبها أكثر من أمي.

ـ نعود إلى البرازيل لاحقاً، سارعتُ إلى القول، لأنني أعرف جيداً أنها ترغب دائماً في تذكر تلك المرحلة من حياتها، أما الآن فأخبريني عن الرسالة.

تنحنحت والدتي وقالت:

ـ حين عدت من البرازيل كنت في الثانية عشرة من عمري

ووالدك في التاسعة عشرة وكان قد أتم المرحلة الثانوية من دراسته وهو ابن الشيخ حنا أحد أهم شخصيات المنطقة. تقدّم والدُك من جدّك فوّاز وطلب يدي منه فوافق والدي شرط أن يدرس أبوك الطبّ ليكون أول طبيب في الضيعة، وقد وعده والدي أنني سأنتظره سبع سنوات...

ـ وهل تم الاتفاق بين جدي ووالدي فقط؟ ألم يسألوك رأيك في الموضوع الذي لا يخصّ أحداً سواك؟ سألتها.

ـ كلّمني والدي في الموضوع ووافقت، فوالدك كان شاباً وسيماً وابن عائلة كريمة وكل فتاة في الضيعة تتمنى أن تحظى به. أجابتني، فعدت وسألتها:

ـ هل أحببته؟ وهل كنتِ قد نضجت جسدياً في تلك المرحلة؟

ـ أتتني العادة الشهرية في بداية السنة الثانية عشرة. نعم كنت ناضجة حين طلب والدك يدي.

«قالت ذلك والدتي، وصمتت متجاهلة سؤالي الأول، فكرّرته عليها:

ـ هل أحببته؟

لم تجبني مباشرة بل قالت: «كان أفضل شبان الضيعة، وكنت أثق بوالدي كثيراً لأنه كان يميّزني عن أخوتي ويهتم بي بشكل لافت إلى درجة أن والدتي كانت دائماً تلومه على سلوكه وتنحاز إلى شقيقتي الصغرى وهذا ما أبعدني عنها لألجأ إلى جدتي التي كنت أحبها أكثر منها.

ـ هل كنت تكرهين أمك؟ سألتها وأنا مدركة تماماً أنها لم تكن تحبها.

ـ لم أكرهها، لكنني لم أحبها لأنها هي لم تحبني كما أحبّت أختي ليندا. أجابتني والدتي، بكل حيادية.

ـ لماذا تتهربين من سؤالي؟ هل أحببت والدي؟ قلت لها لأرغمها على جواب تتهرّب منه.

ـ أحببته؟ ربما، ومع الوقت اعتدت فكرة الزواج منه وانتظرته سبع سنوات حتى تخرّج طبيباً. ألا يكفي ذلك؟ قالت بانفعال.

ـ والرسالة؟ سألتها.

ـ قلت لك إنني لم أرسلها إليه بل جورج هو الذي فعل. أجابتني والدتي وسارعتُ إلى القول:

ـ كيف تم ذلك؟ أخبريني.

«صمتت والدتي للحظات كأنها تستعيد الماضي، وقالت:

ـ جورج كان ضليعاً باللغة العربية وكان ينظم الشعر وهو من زوّارنا الدائمين. وفي أحد الأيام بعد عودتي من البرازيل، طلب منه جدّك أن يعطيني دروساً خصوصية باللغة العربية. وفي أحد الأيام أيضاً أراد جورج أن يمتحنني في مادة الإملاء وبدأ يملي وأنا أكتب ثم أخذ الورقة لكي يصحّح الأخطاء فيها ولم يعدها إلي بل أرسلها إلى والدك.

ـ يعني كتبت الرسالة كامتحان في الإملاء ولم تنتبهي إلى

الموضوع؟ سألتها

ـ بلى انتبهت. أجابتني بكل هدوء. فتابعتُ:

ـ يعني تواطأت مع جورج في فعلته تلك.

ـ لم يخطر ببالي أنه سيبعث بها إلى والدك. قالت والدتي وهي تبتسم.

ـ لكن مجرد قبولك بالموضوع وهو رسالة إلى الخطيب نطلب منه فسخ الخطوبة يعني أنك كنت راضية عن المضمون. هل أحببت جورج؟ سألتها.

ـ لا لم أحبه مع أنه كان شاباً ظريفاً. أجابتني بكل برودة.

ـ وهل هو أحبك؟

ـ كثيرون هم الذين أحبوني. أجابتني والدتي بكل اعتزاز.

ـ وكيف تمّت المعالجة بعدما تسلّم والدي الرسالة؟

ـ أتى على عجلة من بيروت ودخل علينا وهو يحمل الرسالة بيده طالباً مني ومن والدي تفسيراً لما يجري. طبعاً فوجئ جدك بالموضوع ويومها تلقيت أول صفعة في حياتي. لم يرفع جدك يدَه علي إلا في تلك المرّة. وحين انجلت الأمور وعلم والدُك أن الموضوع من تدبير جورج ثارت ثورته، ولسوء حظ المسكين جورج أنه أتى لزيارتنا في تلك اللحظة بالذات فنال نصيبه من السباب والشتم والضرب حيث انهال عليه والدك بكل قوته، رماه أرضاً وأخذ يرفسه برجليه حتى تدخّل والدي وفصلهما طالباً من

جورج الانصراف وهو يقول له: «هل أتيتُ بك لتعلّمها العربية أم لتتآمر علينا يا كلب، لا تُريني صورة وجهك بعد الآن». انصرف جورج وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي.

ـ هل كانت والدتك لا تعلم حقاً بما قام به العم جورج؟ سألتُ هبى.

ـ أظنها كانت تعلم لأنها روت لي ما حدث والفرح يملأ كيانها، وعيناها تشعان بلمعان لا نجده عادة في عيني إنسى في حوالي التسعين من عمرها، وكأن هذه الذكرى أعادت لها كل شبابها، وكأن ما حدث لا يعدو كونه طرفة مسلية. وحين انتهت والدتي من الكلام، صمتت للحظة وهي تهز برأسها ثم قالت بصوت لا يخلو من الأسى: «يا ليت الشباب يعود يوماً...»

ـ ماذا كنت ستغيرين في حياتك لو عاد الشباب من جديد؟سألت والدتي.

ـ لن أغير شيئاً على الإطلاق لكنني كنت تمتّعت أكثر بتلك المرحلة.

ـ هل كنت ستعيدين حياتك مع والدي أم مع غيره؟ سألتها.

فكرتْ قليلاً ثم أجابتني: «والدك رجل طيب ولا أدري إن كنت سأرتاح مع غيره، في أغلب الظن سأختاره هو لو خيّرت من جديد».

ـ لكن أخبريني هل سألت والدك كيف عاش تلك القصة؟ سألت صديقتي هبى التي كانت على علم بها قبل وفاة والدها لأن

والدتها كانت قد روتها لمرات عديدة سابقة.

ـ الحدث نفسه عاشه والدي بقلق كبير، أجابتني هبى، لكنني لم أجرؤ يوماً على سؤاله كيف تلقّى تلك الرسالة وكيف تعامل معها، لكن بعد رحيله علمت.

ـ كيف علمت؟ وممّن؟ سألت هبى التي أجابتني:

ـ علمت منه بالذات، إذ حين يموت الفرد تتحوّل كل مقتنياته إلى مشاع يتقاسمه الورثة.

صمتت هبى لبرهة قبل أن تتابع:

ـ بعد رحيله بأشهر اكتشفت في خزانة ملابسه حقيبة مرمية في أسفل إحدى الدرف. رفعتها من مكانها وفتحتها، لم تكن محكمة الإقفال، وتناثرت أمامي أوراق وصور رحت أبحث فيها عن وجه لوالدي، ربما لم أتعرّف إليه خلال حياته إلى جانبنا. اكتشفتُ صوراً عن بعض رحلاته خارج البلاد وأوراقاً مكتوبة بخط يده وهي عبارة عن مقالات كان قد نشرها في بعض الصحف ومحاضرات ألقاها على أهالي المنطقة يحثّهم فيها على التمرّد والثورة في وجه الإقطاع العائلي والسياسي الذي لم يجلب إلى منطقتنا سوى التأخر والإهمال. عبثتُ في أوراقه ولم أحظ بما يمنحني تصوّراً مختلفاً عن والدي، إلى أن وقعت على دفتر صغير، بحجم كف اليد، ظاهرة عليه، بوضوح، علامات القدم. فتحت الدفتر فإذا بي أعثر فيه على شبه مذكرات مكتوبة بالفرنسية وتعود إلى مرحلة الشباب. هنا حظيت بما كنت أبحث عنه: اكتشفت رجلاً حالماً شاعراً قلقاً يطرح كل الأسئلة الكبرى حول كل الموضوعات الدينية والماورائية وغيرها. ثابرت على القراءة إلى أن

وقعت على حادثة الرسالة واكتشفت أنه عاشها بقلق وتوتّر كبيرين، ولمستُ من عباراته غير الصريحة أنه كان يحب والدتي جداً، فقد أوقف كل حياته على البحث عن معرفة السبب في ما ورد في رسالتها إليه. عاش الضياع الذي يعيشه كل عاشق ملتاع إلى درجة أن أخاه ميشال تدخّل في الأمر وأنّبه على ما وصل إليه من الإحجام عن القيام بواجباته الجامعية وغيرها وقال له، وهنا أورد والدي الجملة بالعربية كما تفوه بها أخوه: «ستيّن سنة عليها، إن كانت لا تريدك فألف فتاة تتمنّى على صرمايتك». ويعلّق والدي على ما سمعه من شقيقه بأن ميشال ليس عاشقاً ولا يعرف معنى الحب.

هنا حاولت أن أحاور هبى حول علاقتها بوالدها لأنني لمست أنها تميل إليه أكثر من ميلها إلى والدتها، سألتها: «هبى، هل كنت تحبين والدك أكثر من والدتك؟».

ـ المسألة ليست مسألة حب فأنا أحببت الاثنين لكنني كنت أشعر بأن والدي عاش وهو يداريها أكثر مما كانت هي تداريه، ثم لا تنسي بأن للميت حيزاً في قلوبنا لا يتسع إلا لحسناته؛ والدتي ما زالت على قيد الحياة فألاحظ سيئاتها بينما والدي الذي تحوّل إلى غياب فلا أستحضره إلا بأبهى صورة. أجابتني من دون تردّد.

ـ لكني أعرفك منذ زمن بعيد ولاحظت أنك لم تنتقديه ولو مرة حتى حين كان حياً. قلت لها لأمتحن دواخلها الحقيقية.

ـ صحيح، وربما تفكرين بما يسمى في علم النفس بعقدة ألكترا، فكري كما تشائين لكنني وبكل وضوح كنت أفضّل والدي على والدتي، وتحديداً في آخر مراحل حياته، فقد بتنا صديقين، يفضي

لي بكل متاعبه وأبوح له بكل مكنوناتي. أجابتني هبى بكل هدوء الواثق من نفسه.

ـ فلنعد إلى والدتك، هل أخبرتها بما قرأت في دفتر والدك؟ سألتها.

تردّدت هبى في الإجابة كأنها تستعيد أمراً ما في ذاكرتها، ثم قالت:

ـ حين سمعت مؤخراً رواية والدتي ولمست منها استخفافها بالأمر تساءلت: هل أخبرها بما عرفته عن حالة والدي في تلك المرحلة؟ لكنني سرعان ما أحجمت: لن أمنحها تفوقاً عليه هي التي لم تعامله يوماً كما ينبغي وكما يستحق. لن أقول لها إنه كان يحبّها أكثر مما أحبّته وهو كلام سيسرّها بالتأكيد لأن لا حدود لنرجسيتها. حسمت الموضوع وعدت إليها أسألها كيف ترتّب الوضع مع جورج حتى أصبح في ما بعد كأنه واحد من أهل البيت. وأجابتني والدتي:

ـ انتهت المشكلة بسرعة إذ زارنا جورج في اليوم التالي واعتذر من والدي وبعد أقل من شهر أعلن خطوبته على إحدى الشابات في الضيعة.

ـ زوجته كانت سيدة جميلة وابنة عائلة كريمة. قلت لوالدتي، كي أبرهن لها أن افتخارها بجمالها وبعائلتها ليس مهماً وأن الجمال ونبل العائلة ليسا حكراً عليها وحدها. لكنها سارعت إلى القول:

ـ لكني أفضل منها وأجمل بكثير.

ضحكتُ لتعليقها الذي أتى موافقاً تماماً لشخصيتها التي لا تنكر أن يكون أحد من مستواها. تلفظتْ بهذا التعليق وسرعان ما انتقلتْ منه إلى جورج مجدداً، قالت:

ـ جورج كان من أقارب والدك كما تعلمين وهو رجل ذكي ومميّز، ووالدك كان طيّب النية وقد أدرك أن الأمر كان لعباً بلعب وقد سامح جورج وتحوّلا إلى صديقين فعلاً. لكن جورج لم يتحرّر من رغبة التقرّب منا وقد حاول المستحيل ساعياً إلى الفوز بك أنت زوجة لأحد أبنائه الشباب، لكننا رفضنا، ومع ذلك كرّر محاولته المستميتة مع أختك وهي قبلت بابنه ونحن لم نمانع.

ـ ولماذا مانعتم حين طلبني أنا؟ سألتها.

ضحكت والدتي ضحكة معبرة وقالت بكل وقاحة: «أنت غير شي».

«كنت أعرف أنها تفضلني على شقيقتي، لكن أن تعبّر عن ذلك بكل وضوح فهو أمر أزعجني على الرغم من أنه دغدغ نرجسيتي التي ورثتها عنها، والحمد لله أنني لم أرث أنانيتها. لكن لوضوحها هذا وظيفة لم تغفل عن بالي: فإن كنت أنا «غير شي» فهذا يعني ويفسر تعلقها القاتل بي الآن وكأنها تود القول إن تعلقها هذا سببه أني المفضّلة عندها وبالتالي يحقّ لها أن تتدلّل علي وأن تحرمني من حياتي وحرّيتي وأن أكرّس كل أوقاتي لها من دون أن تشعر بالذنب. هل تشعر بتأنيب الضمير لما تفعله بي ولذلك تحاول الهروب منه؟ لا أعتقد، فغرقها في ذاتها يعميها ويبعدها عن رؤية الواقع، واقعي الذي حوّلته إلى جحيم من دون أن يرفّ لها جفن ومن دون أن تسأل يوماً عما أعانيه، همّها

الوحيد هو أن أبقى قبالتها حتى لو كان ذلك على حساب حياتي. هي وهي وحدها ما يهمّ في هذه الدنيا.

ـ ألا تبالغين قليلاً في تحليلك؟ سألت صديقتي التي ما إن سمعت سؤالي حتى نهضت عن الكنبة ثم عادت وجلست عليها من دون أن تتمدّد، نظرتْ إليّ كأنها تراجع ذاتها وصمتت لبرهة قبل أن تتابع:

ـ لن أسترسل في موضوع معاناتي معها لأنه موضوع لن ينتهي إلا برحمته تعالى. لقد حاولت مرات أن أبتعد عنها وأعاملها كما يعاملها إخوتي. لكنها كانت تلاحقني أينما توجّهت، تتّصل بي ليلاً ونهاراً لتشكو لي وضعها أو صحتها أو آلامها التي ما عدت أعرف إن كانت حقيقيّة أو ملفّقة.

ـ ألا تعتقدين أنها تشكو من الوحدة هي التي عاشت كل حياتها ضمن عائلة كبيرة تعج بالحياة، وترى نفسها الآن وحيدة في بيتها، هي التي ربّت عدداً لا بأس به من الأولاد؟ أيجوز أن تُترك لتعيش بمفردها في بيت خالٍ من أي حركة أو حياة؟ سألت هبى وأنا أعرف تماماً أنها تفكّر بذلك حتى ولو لم تودّ الاعتراف به. لكنها تجاهلت السؤال وحوّلت الموضوع إلى قول شقيقتها:

ـ كل همها هو أن تعيش معك أو تعيشي معها، قالت لي شقيقتي في إحدى المرات التي شكوت فيها سوء حظي أمامها. أجابتني هبى كأنها توافق على ما سبق وقلته لها.

ـ ولماذا لا تعيشين معها في بيتها أو في بيتك؟ سألتها وأنا أدرك تماماً أنها ترفض هذا الحل هي التي ناضلت طوال حياتها كي تحقّق استقلالها وتعيش حريتها كما تفهمها.

ـ هذا يعني انتحاري. أجابتني هبى بكل هدوء، حاولت ذلك في الماضي فوصلت إلى حدود الانهيار.

ـ أعرف، إنها صعبة جداً ومن المستحيل أن يهنأ الإنسان بقربها إذ عليه أن يراعيها باستمرار. قلت لها موافقة على موقفها، فتابعت كأنها تكمل ما بدأتُ به:

ـ وحين أغيب عنها فترة تقع الكارثة إذ يتحول غضبها إلى ألم في جسمها يرغمك على الاهتمام بها مجدداً فتستعيد توازنها. وشقيقتي ترى أن كل آلامها نفسية، فهي لا تتحمّل أن تُغيّب ذاتها للحظة واحدة وإن فعل بها الآخرون ذلك ظهرت آلامها لتفرض علينا الاهتمام بها مجدداً.

ـ الآلام النفسية هي أحياناً أصعب من الآلام الجسدية، كما تعلمين، وقد تتحوّل إلى آلام فعلية وهذا ما يسمى علمياً بالأمراض النفسية الجسدية (psychosomatisation) قلتُ لهبى التي تعرف جيداً هذه الآلية وأجابتني:

ـ بالفعل آلامها كانت في أغلب الأحيان حقيقية وأحياناً كنا ولا زلنا نحتاج إلى مسكنات من النوع الثقيل لتخفيفها. ومرةً اشتد الألم على والدتي، سألت شقيقتي حول الموضوع فأجابتني: «أنا لا أنفي أن آلامها هي حقيقية لكن أسبابها نفسية، ألا تلاحظين أنها لا تعاني من أي ألم حين نشعرها بأنها هي مركز الكون؟».

ـ صحيح، لكن ما العمل؟ سألتُ شقيقتي، ما العمل وهي تصرخ من الألم؟

ـ التطنيش. أجابتني شقيقتي بكل برودة أعصاب. قالت هبى وتابعت:

ـ كنت دائماً أتفهم موقف شقيقتي، فوالدتي لم تحبّها كما أحبتني وهي لا تتورّع عن إظهار ذلك التحابي.

ـ ألم تحاولي أن تفهمي لماذا كانت والدتك تفضّلك أنت على شقيقتك؟ سألت هبى، ولماذا لم تستدرجي والدتك إلى البوح بما تختزنه من معاناة مع والدتها هي قبل أن تصبح بدورها أماً؟

ـ حاولتُ مرة أن أعيد والدتي إلى طفولتها لأدفعها إلى وعي معنى التمييز هذا بين الأشقاء علّها تتحوّل إلى الآخرين وتخفّف عني حملها. «هل كنت تحبين أمك؟» سألتها وأنا مدركة تماماً أنها لم تكن تحبها حتى أنها لم تكترث بها حين مرضت وشارفت على الموت. أهملتْها ورمتها في المستشفى ولم تزرها. وحين توفاها الله لم ألاحظ أن والدتي حزنت على فراقها.

ـ لم أحبها لأنها كانت تفضل أختي علي. أجابتني والدتي.

ـ ولماذا كانت تفضلها عليك؟ هل لأنك كنت المفضلة عند أبيك؟ سألتها.

ـ كنت أحب والدي أكثر منها، لا بل كنت أكرهها. قالت والدتي ذلك وصمتت كأنها غاصت في ماضٍ بعيد. أصبحتْ وحدها مع ذكرياتها، لكنني أخرجتها من شرودها وسألتها:

ـ أختك لا تشبهك، أنت أخذت جمالك من أمك أما هي فليست بجمالك. أفلا تعتقدين أن أمك كانت تدرك ذلك ولهذا

السبب كانت تعطف عليها؟

ـ ربما، أجابتني والدتي وتابعت: أختي تشبه عمي ومن الممكن أن والدتي كانت تكره عمي في فترة حملها بشقيقتي ولهذا السبب أتت ابنتها تشبهه لأن للكره النتيجة نفسها التي للـ«وحام».

ـ إن كانت تكره عمك فكان عليها ألا تفضّل من تشبهه عليك أنت التي تشبهينها كثيراً. قلت لوالدتي كي أستدرجها إلى البوح بما، ربما، تخفيه. لكنها قالت:

ـ المهم أن أمي كانت دائماً حصّة شقيقتي الصغرى، مهما فعلت وهذا كان يزيدني تعلقاً بوالدي.

ـ وانحيازك إلى والدك كان يزيد من تعلقها بابنتها الصغرى. وإلا فلماذا كانت أمك تكرهك كما تدّعين؟ سألت والدتي.

ـ لا أعلم، ربما أيضاً لأنني كنت أفضّل جدتي عليها. أجابتني الوالدة.

ـ وجدتك، أمُّ والدتك، لماذا أحبتها أكثر من أمك؟

ـ جدتي أحبّتني أكثر من أي مخلوق في هذا الكون وقد أرضعتني من حليبها حين كنت طفلة. أجابتني.

ـ كيف ذلك ومن أين أتى الحليب؟ سألتُ والدتي مندهشة.

ـ من العاطفة، لقد عطفت علي وأحبّتني إلى درجة أن حليبها طفح من صدرها. أجابتني والدتي، وتابعت بعد صمت قصير: الحب يصنع المعجزات.

ـ هذه قصة غريبة حقاً ولا تصدّق. قلت لها مشكّكة بكلامها.

ـ لكنها واقعية، أجابتني بسرعة، وقد رضعت من ثدي جدتي وأصبحت كابنتها التي لا تتخلى عنها أبداً. ألم تتذكّري حبّها لكم وعدم اكتراثها بأولاد أختي وأخي؟ كنتم أنتم المفضّلين عندها، حتى أنها حين طلب منها زوجها، جدّي يوسف، أن توافيه إلى البرازيل رفضت الذهاب إليه إن لم أرافقها.

ـ وهل رضي والداك أن تتركيهما وأنت في السابعة من عمرك؟ سألتها.

ـ والدتي لم تمانع ووالدي وافق شرط أن لا نطيل المكوث في الغربة. ولهذا السبب حين بلغت الثانية عشرة من عمري أرسل موفداً إلى البرازيل واستدعاني بإلحاح. وهنا أيضاً لم تتركني جدتي بل تخلّت عن ابنها وزوجها وعادت معي إلى لبنان.

ـ وكيف كانت الحياة في البرازيل؟ سألتها وأنا أعلم أنها تستمتع بتذكر تلك المرحلة من حياتها.

انفرجت أسارير والدتي وأجابتني:

ـ أحببت هذا البلد جداً، فهو من أجمل بلدان العالم وقد أمضيت فيه أفضل أيام حياتي. أرسلني جدي إلى المدرسة وقد اختار لي أغلاها وأرقاها ولم أحتج لأكثر من ثلاثة أشهر كي أتعلم اللغة البرازيلية التي أتقنتها كتابة وقراءة إلى درجة أن البرازيليات الأصليات كنّ يحسدنني على تفوقي. كن يغرن مني... توقفت والدتي عن الكلام لبرهة وهي تضحك فسألتها:

ـ ماذا يضحكك هل تذكرت طرفة ما؟ فأجابت:

ـ ذات مرّةً كنا في ملعب المدرسة فاقتربت مني إحدى الفتيات القبيحات وشتمتني قائلة: «تور كو ماردا». يعني «تركية نجسة». وما أن سمعتها حتى انهلت عليها ضرباً وعلا صراخها وركضت المشرفة إلينا ورفعتني عنها وهي تسأل عن السبب. أخبرتها بما تفوّهت به تلك الساقطة، فأثّبتها وأرغمتها على الاعتذار مني بعدما شرحتْ لها أنني لبنانية مسيحية ولست تركية مسلمة كما كانت تعتقد.

ـ وهل هذا التمييز بين مسلم ومسيحي عند الأجانب كان ملموساً إلى هذه الدرجة في تلك المرحلة؟ سألتُ والدتي.

ـ لا أدري لكن هذا ما حدث معي، أجابتني، وقد لقنت تلك الساقطة درساً لن تنساه في حياتها، وبعد تلك الحادثة حاولتْ كثيراً التقرب مني ولم أستجب، كنتُ قد نفرت منها.

ـ وجدّتك، هل تعلّمت اللغة البرازيلية؟ سألتها وكنت أعرف سلفاً إجابتها لأنها كانت دائماً تكرّرها.

«ضحكت والدتي بأعلى صوتها وقالت: «تيتي تيتي متل ما رحتي متل ما جيتي». كنت دائماً أرافقها في تحركاتها، وفي إحدى المرات اصطحبتها إلى حديقة عامة ليست بعيدة عن البيت، أجلستها على أحد المقاعد وتركتها لأنصرف إلى اللهو مع بعض الصديقات. غبت عنها لأكثر من ساعة، وحين عدت رأيت إلى جانبها سيدة تقاربها سناً وهي تتكلم وتشير بيديها. فاجأني الأمر إذ إن جدتي لا تفهم اللغة إطلاقاً فعمّ كانتا تتحدّثان؟ اقتربتُ منهما فسارعت جدتي إلى القول: «هيا بنا لقد تأخرنا». وخلال

طريق العودة سألتها: «كيف كنت تتحدثين مع تلك السيدة؟».

ـ كانت هي تتكلم وحين تتوقّف كنت أجيبها: «سي سنيورا». أجابتني جدتي.

ـ ألم يتطلّب حديثها القول ولو لمرة واحدة: «نو سنيورا؟» سألتها وأنا أنفجر من الضحك.

ـ لم أفهم شيئاً مما تفوّهت به وكان همي الوحيد أن تعودي بسرعة لأخرج من هذه الورطة.

ـ مسكينة جدتي، تابعت والدتي كلامها، كل همها كان أن توفّر لي كل ما أطلبه، وأنا كنت متطلّبة في كل الأمور وبخاصة تلك التي تتعلّق بالـ«جخ» والملابس.

ـ وما زلت كذلك حتى الآن. أجبت والدتي التي قالت:

ـ جخيت كتير في حياتي، وأنا أول من لبس الفرو في ضيعتنا. ألا تذكرين المعطف الفرو البني اللون الذي كنت تلعبين مع أختك ببعض أجزائه بعدما اهترأ؟ هذا المعطف قدّمه لي جدي في البرازيل قبل عودتي وبناءً على طلبي. كان يودّ أن يهديني خاتماً من الماس لكنني رفضت وأصررت على الفراء. الخاتم، حتى ولو كان من الماس فهو صغير ولا يبهر العين كما المعطف الذي يغطي كل الجسم ويجعلك تختالين فيه كأميرة. كنت الوحيدة في الضيعة التي تملك مثل هذه القطعة الثمينة والفريدة.

بعدما روت هبى عن علاقة والدتها بالجدة، انتقلت إلى والدتها مجدداً لتعلق:

ـ والدتي لم تتغيّر، واهتمامها بمظهرها استمر طوال حياتها وهو ما زال مستمراً على الرغم من تقدمها في السن. كان والدي يسخر من ذلك، وفي إحدى المرات حين رآها بلباس جديد ولافت وهي تتبختر أمام المرآة بكامل أناقتها وتبرّجها، وكانت في حوالي السبعين من عمرها وهو في المرحلة الأولى من مرضه، ضحك وقال لي: «لا تزال تعتقد أنها بنت عشرين».

ـ عشرين وأقل، أنت شو همك؟ أجابته والدتي.

«فما كان من والدي إلا أن ابتسم وهو يرنو إلي بنظرة لخّصت كل الفارق بينهما، ولم يجبها. لاذ بالصمت وخرجت هي للتسلية بلعب الورق مع إحدى جاراتها. أصبحتُ وحدي معه أنا التي تعرف أنه سيغادرنا خلال سنة كما قال لنا الطبيب في الولايات المتحدة الأميركية: «مرضه سيتفاقم مع مرور الوقت لأن الطب عاجز أمامه، وبكل أسف أقول لكم إنه لن يتعدى شهر تموز المقبل». كنا في شهر تموز. لكنني سارعت إلى سؤاله: «هل سيتألم؟ هل سيتعذب؟»».

ـ لا، لن يتألم، لكنه سيتعذب حتماً، أجابني الطبيب وهو يعتذر عن صراحته.

«بالفعل صدق الطبيب وغادرنا والدي في منتصف شهر حزيران بعد أقل من سنة. قالت هبى ذلك بكل أسى وتابعت: «حين ذهبتْ والدتي لزيارة جارتها، أصبحت وحدي مع والدي، أمسكتُ يديه وكان الشلل قد بدأ يغزوهما. وبقينا صامتين لدقائق. لكنه خرج عن صمته وهو يقول: «كل حياتي حسدت والدتك على قوتها وقدرتها على عدم الاكتراث بالأمور المهمّة التي أفنيتُ

حياتي في سبيلها؛ كنت منشغلاً بهموم الناس والمنطقة، منشغلاً بالسياسة وإمكانية تطبيق العدالة بين كل البشر وبخاصة أهالي منطقتنا الفقراء المهملين منذ عقود، منذ الاستقلال».

ـ وبماذا كانت تزعجك في عملك هذا؟ سألته.

تردّد والدي قليلاً ثم قال:

ـ لم تتدخّل فيه مباشرة لكنها كانت دائماً تتذمّر وتغضب وتثور حين كنت أحاول عقد اجتماعات في بيتنا، ولم تحاول مرة واحدة أن تخفي ذلك أمام المجتمعين. سايرتها كثيراً، ومع الوقت صرنا نجتمع في صالون الكنيسة كي أنجو من تأنيبها ولسانها السليط وكي أرتاح من «برمة وجها».

ـ وكأمّ كيف كان سلوكها؟ سألته.

ـ كأم اهتمت بكم كثيراً وبخاصة بكِ أنت، كنتِ لعبتها، تحاول المستحيل كي تجعل منك لوحة فنية تبهر الناظر إليها. لم تبخل عليك يوماً في ما يتعلق بالملبس والتأنق.

«صمتَ والدي لبرهة كأنه يستعيد الماضي ثم قال: «صحيح أن خلقها ضيّق والتعامل معها صعب، لكن لن أبخسها حقها؛ إنها بالفعل قديرة وعنيدة، لكنها لجوجة وإن صمّمت على شيء فهي لا بد ستحققه».

«و قبل أن يتابع خطر في بالي أن أسأله عن حياته الحميمة معها؛ كيف كانا يمارسان الجنس وهل كانت رومنسية في تلك اللحظات، تعامله بلطف ورقّة أم أنها كانت فظّة ومستعجلة كما

هي في الواقع؟ وعدت إلى مرحلة الطفولة وذلك البيت الذي سكناه حين انتقلنا من الضيعة إلى المدينة وكان مؤلفاً من صالون كبير وثلاث غرف نوم ومطبخ وحمام بدائي وشرفة تطلّ على حديقة من شجرات الـ«جرنك» التي كنا نطال حباتها ونحن واقفون على حفاف الشرفة. كان والدي يتركنا لفترات طويلة لأنه كان طبيب القضاء في منطقة بعلبك، ويأتينا بعد غيابه محمّلاً بكل أنواع المأكولات الشهية التي تنتجها المنطقة. يوم عودته كنت ألاحظ أنه كان يدخل غرفته مع والدتي ويغلقان الباب عليهما. كنت أحدس بما يفعلانه في الداخل وأفتعل التجاهل، ثم أراه يخرج أولاً ثم تلحق به والدتي، ونتابع حياتنا كالمعتاد. وفي المساء كانا يغلقان باب غرفتهما أيضاً ليضمّهما ذلك السرير الكبير الذي يملأ نصف الغرفة. وحين انتقلنا إلى البيت الجديد وجدّدت والدتي الأثاث لاحظتُ أن غرفتهما أصبحت بسريرين، والأهم من ذلك أن باب الغرفة لم يعد يُغلق إطلاقاً. هل انتهت حياتهما الجنسية في تلك المرحلة؟ لست أدري مع أن الواقع يقول ذلك. لكنني خجلت من طرح السؤال الذي كان والدي، حتماً، سيتجاهله. وخرجت من شرودي القصير لأسمعه يروي لي قصة شراء البيت في المدينة:

ـ حين أتينا من الضيعة إلى المدينة من أجل المدارس، سكنا في منزل صغير نسبياً. وكان سكننا مؤقتاً وهادفاً بالنسبة لي إذ إنه يؤمن لكم بيتاً قريباً جداً من المدارس كي تتابعوا دروسكم بكل راحة ومن دون بذخ. لم تكن والدتك مرتاحة كلياً في ذلك البيت، وحين بلغتِ الخامسة عشر، من عمرك وزارنا ذلك الشاب الذي طلب يدك في ذلك البيت الذي لم يكن لائقاً بنظر أمك لاستقبال العرسان صمّمت على تغييره وبدأنا نبحث عن مسكن

جديد ووفّقنا الله بمنزل كبير ولائق ومشرف وله مطل على البحر. أعجبها البيت وبسرعة تمكنا من الانتقال إليه، وباشرت والدتك تغيير كل الأثاث ورتّبته على مزاجها وقد تمّت خطوبتك، كما تعلمين، فيه.

ـ وأذكر أنها أحضرت مائدة ملوكية لتلك المناسبة. قلت له لأثبت كلامه عنها.

ـ في هذا المجال لا يعلو عليها أحد. قال والدي ذلك وضحك ثم تابع: «لم يكن اهتمامها بالموائد من باب الكرم والاهتمام بالضيوف بقدر ما كان للظهور والتباهي، ألا تذكرين الحفلة التي أقمناها لعرس أخيك البكر في الضيعة كيف ظلت تتبجح بها لفترة طويلة؟».

ـ أذكر، لكن دعنا من هذا الموضوع وأكمل قصة البيت. فقال:

ـ صحيح لقد جرّنا الحديث إلى أماكن أخرى، لكنها كلها تصب في حيّز واحد وهو حب أمك للمظاهر واهتمامها بأقاويل الناس. المهم أنها أتتني يوماً لتقول بكل حزم: «علينا شراء البيت».

ـ ولماذا شراؤه فها نحن مقيمون فيه ولا أحد يزعجنا. أجبتَها لكنها أصرّت وعلا صوتها وهي تقول:

ـ أصغر موظف من ضيعتنا بات يملك بيتاً في المدينة ونحن نظل مستأجرين؟ ألا تخجل من ذلك؟

كنت في حينه لا أملك المال الكافي لشراء البيت فأجبتها: «وكيف نشتريه ونحن لا نملك سعره؟ أتريدينني أن أستدين من

الآخرين فقط لكي نقول إن بيتنا ملكنا؟

ـ ألم تفكر يوماً بالاستملاك؟ سألتُ والدي وأنا أعرف موقفه سلفاً. وأجابني وفقاً لتوقعي:

ـ للحقيقة لا، وبخاصة أن أملك بيتاً أو أرضاً خارج منطقتي. لم أشعر يوماً بأنني أنتسب إلى كسروان. الجذور كانت دائماً تشدني، وبيتنا في الضيعة كان يكفيني وبخاصة بعد المعارك التي وقعت قبل استملاكنا له نهائياً وكان لوالدتك وأهلها الدور الحاسم في ذلك.

«توقف عن الكلام وهو يضحك، فسألته عما يضحكه، فقال وهو لا يزال يضحك:

ـ ذات يوم كنا في بيتنا في المدينة وكنتم لا تزالون صغاراً حين أتانا خبر أنّ أخي من أبي قد احتل البيت في الضيعة وهو يقيم فيه مع عائلته. هنا انتفضت والدتك وصاحت بأعلى صوتها: لن أتركهم يتنعمون بالبيت وسأخرجهم منه بأقرب وقت» ولم تغفُ تلك الليلة إلا بعدما وعدتها بأننا سنذهب إلى الضيعة في الصباح الباكر. وصلنا إلى البيت في الضيعة ووجدناه وقد احتله أخي وزوجته التي كانت ابنة عمة والدتك. وما أن وصلنا حتى صعدت والدتك السلم بسرعة وهي تردّد: «أين هي أين هي؟» وحين وجدتْها في إحدى غرف النوم انهالت عليها بالضرب وشبكت يديها حول رقبتها وكادت أن تخنقها لولا تدخلي ورفع والدتك عن زوجة أخي، لكن لم أتمكن من ذلك إلا بعدما «فكشت» إحدى أصابع والدتك الملتفة حول عنق الست حنان التي نهضت من مكانها وسارعت إلى استدعاء الدرك ووالدتك تصيح بهم:

«اخرجوا من بيتي وخذوا معكم هذه الشر... المحتلة لملك غيرها». بعد هذه الحادثة وقعنا في دعاوى أمام القضاء الذي حسم الأمر بالنهاية لصالحنا.

«ضحكتُ بدوري وسألته: «ألهذا السبب قالت إحدى عجائز الضيعة: أجاك سمرمر يا جراد؟ وأجابني والدي:

ـ نعم لقد شبّهت تلك العجوز الست حنان بالجراد الذي يأكل كل شيء وشبّهت والدتك بسمرمر وهو الطائر الوحيد الذي يخافه الجراد لأنه يقضي عليه.

ـ وبالنسبة للبيت في المدينة، كيف تمّت الأمور؟ سألت والدي لأعيده إلى موضوع شراء البيت في المدينة. وأجابني:

ـ ظلّت والدتك تلحّ عليّ وتقول: «أنت لا تهتم إلا بالسياسة وأوضاع الناس أما أنا فسأشتري البيت يعني سأشتريه». وأجيبها:

ـ افعلي ما يحلو لك لكنني لا أستطيع توفير المال. وأتى قولها: «بلى نستطيع وسأريك ذلك». وبالفعل استطاعت أن توفّر ثمنه من مصروف البيت مع أنها لم تقصّر في شيء، وفاجأتني يوماً بالقول إنها اتفقت مع صاحب الملك على الثمن وهي جاهزة لشراء البيت. استغربتُ الأمر لكنني رضخت لإرادتها، وهكذا تمّت عملية الشراء وسجلتْ البيت باسمها وأنا لم أمانع لأن تملكي لبيت في المدينة لم يكن يعني لي شيئاً على الإطلاق.

ـ لكنها لم تتوقّف عند ذلك وأذكر أنها جرّتك إلى شراء قطعة أرض في منطقة الكسليك. أجبت والدي، كي يتابع الكلام عن تلك الإنسى الطموحة.

ـ لقد فعلتْ لكنني بعتُ الأرض بعد فترة قصيرة وهي «تهتّي» حتى الآن على فعلتي إذ إن سعر الأراضي قد ارتفع جداً. أجابني والدي.

ـ صحيح هي دائماً تلومك على إهمالك هذه الناحية وتقول: «لو رجع الأمر لي لكنت ابتعت نصف أراضي المدينة وهي كانت بالـ«بلاش». لماذا كنت تهمل هذه الناحية؟ سألت والدي الذي أجابني بكل اقتناع:

ـ كنت وما زلت أعتقد أن المال هو للصرف وليس لدفنه في التراب، ومع ذلك أعتقد أنها حسناً فعلت لأننا حين هُجّرنا إلى بيروت ومن ثم عدنا إلى المدينة التي كنا نسكنها، لم يعد هناك من بيوت للإيجار ولم نستطع شراء هذا البيت الجديد إلا لأننا بعنا القديم الذي أمّن ثمنه القسط الأوفر من ثمن هذا البيت.

ـ تعترف الآن بجميلها وتقر بصوابية آرائها. أتى تعليقي.

ـ صحيح أنها صعبة جداً ومتسلطة لكنها قديرة، أقر بذلك. أجابني والدي. وأمام اعترافه بقدرة والدتي حاولت أن أعرف أكثر عن علاقته بها، وسألته:

ـ هل كنت تحبها أم أنك كنت تتلافى شرها؟

ضحك والدي وقال: «الاثنان معاً؛ حين تزوجت بها كنت أحبها لكن في ما بعد صرت أتلافى شرها وطباعها النارية».

ـ هل أحببت غيرها خلال حياتكما معاً؟ سألته محاولة مفاجأته علّه يعترف، لكنه لم يفاجأ وقال بكل هدوء:

ـ لم يكن أمراً جدّياً وقد انتهى بسرعة.

هنا أيضاً توقفت هبى قليلاً قبل أن تتابع:

«أذكر تلك الحادثة جيداً ولهذا السبب سألت والدي عنها وظننت أنه سينفي. أذكر أنه كان لدى والدي صديق وكان ذلك الصديق متزوجاً من إنسى جميلة وخفيفة الدم وكانا يأتيان لزيارتنا كل يوم أحد بعد الظهر وكنا نزورهما باستمرار. والدتي كانت تستقبلهما في البداية بكل ترحاب لكنها سرعان ما تغيّرت وباتت تتذمر من مجيئهما المتكرّر وتمانع والدي حين يقترح عليها زيارتهما. تغيُّر والدتي لم يكن من دون سبب بل لأنها لاحظت أن والدي يهتم كثيراً بزوجة صديقه ويستلطفها ويعبّر عن ذلك. كنت أنا أيضاً ألاحظ ميله نحوها وفي الوقت نفسه كنت أبرّره، لكنني كنت أخشى على والدتي أو بالأحرى أخشى على والدي من غضب والدتي، هذا الغضب الذي لم يصمد مكبوتاً لفترة طويلة؛ ففي إحدى الليالي رأيت والدتي تدخل الغرفة التي كنت أتقاسمها مع شقيقتي وتنام على السرير إلى جانبي تاركة والدي وحده في غرفتهما. وفي اليوم التالي سمعتهما يتشاجران حيث قالت له: «سأترك البيت، دبّر أمرك وسأفضحك أمام أولادك وأمام الجميع». وسمعته يرد: «كبري عقلك إنهما فقط أصدقاء ولا شيء غير ذلك».

ـ أصدقاء وتزورهما وحدك ومن دون أن أعلم وبغياب زوجها؟ صاحت به والدتي.

ـ زرتهما مرة واحدة وحين علمت أن صديقي خارج البيت سارعت إلى المغادرة. أجابها والدي بصوت منخفض.

ـ على أيّ حال إما أن تقطع علاقتك بهما نهائياً أو أترك لك البيت وأرحل، أجابته والدتي بصوت مرتفع وتابعت: لا لن أترك البيت فهو بيتي أنا، وأنت من عليه أن يتركه.

«لم أعد أسمع شيئاً وكل ما لاحظته لاحقاً أننا ابتعدنا عن أصحابنا ولم نعد نتبادل الزيارات. وحين سألت والدتي مرة عن الأمر لم تنكره بل قالت»:

ـ وضعت والدك عند حدّه بسرعة، أنا ما في حدا بيتلاعب معي وكرامتي أغلى شي عندي. وكنت مستعدة لأن أتسبّب له بأكبر فضيحة لو استمر في مسلكه ذاك.

ـ هل غرتِ من الست لورا لأنك كنت تحبين والدي؟ سألتها.

ـ لا حب ولا بلوط، المهم هو كرامتي التي هي أغلى بكثير من الحب وغيره. أجابتني والدتي بانفعال.

ـ وكيف انتهى الموضوع يومها؟ كرّرت عليها السؤال.

ـ انتهى بأن قطعنا علاقتنا بأصدقاء والدك نهائياً. أجابتني والدتي بكل ثقة بالنفس.

ـ وهل كنت متأكدة أن والدي قطع علاقته بهما؟ سألتها كي أستفز كبرياءها. لكنها أجابتني بكل اعتزاز:

ـ أنا متأكدة، لأنه كان يعرف أن أي تصرّف مشبوه سيتسبّب له في خراب بيته.

بعد هذا الكلام عن حقبة سابقة من علاقة والدتها بوالدها عادت

هبى إلى جلستها مع والدها في غياب والدتها وقالت:

ـ أخرجني والدي من شرودي إذ قال: «اسكبي لي كأساً من الوسكي كي أتلذّذ باحتسائها قبل عودة والدتك فهي تتأفف وتتذمر من عادتي هذه».

«فعلتُ ما طلبه مني لكن عودة والدتي لم تتأخر؛ دخلت علينا وبادرت إلى القول:

ـ ألن توقف هذا المشروب الذي سبّب لك المرض وسيقضي على حياتك؟ ثم دخلت غرفتها كي تغيّر ملابسها.

ـ هذه النغمة صرنا نعرفها، قال والدي موجهاً كلامه إلي، كل يوم نفس الموال، لم تتركني يوماً واحداً أهنأ وأتلذّذ بشرب هذه الكأس.

«عادت والدتي لتتابع قولها:

ـ أنت من دون إرادة، أنا قرّرت أن أوقف التدخين فرميت السيجارة من يدي وانتهى الموضوع أما أنت فما زلت تدخّن وما شاء الله صرت تشرب.

«لم يجبها والدي وتابع شرب كأسه التي جهّزتها له مع بعض المأكولات الخفيفة وبخاصة قطعة الجبنة الـ«روكفور» التي كان يحبها. ساد الصمت للحظة ثم أدارت والدتي التلفاز وهي تتمتم بعض الكلمات التي لم نسمعها.

قالت هبى ذلك ثم تابعت كأنها تكلم نفسها:

ـ والدي لم يكن سكّيراً ولا مسرفاً في التدخين، لا بل كان معتدلاً حتى في مأكله. كان في شبابه يشرب، في المناسبات، البيرة مخلوطة بالعرق البلدي، ومنذ سنوات قليلة تحوّل إلى الوسكي التي يشرب منها كأساً واحدة كل ليلة. يحتسيها بمتعة ثم يغسل فمه، يستمع إلى الأخبار ويسرع إلى النوم تاركاً والدتي تتابع المسلسلات العربية وغيرها. هل تعوّد شرب الوسكي لكي يتمتّع بالخدر الذي تسبّبه فيهرب من واقع ما عاد يعني له شيئاً. أنا متأكدة أن لجوءه إلى الوسكي هو ليهنأ بنوم مريح يتخفّف خلاله من مشاكستها المستمرة له، فهي لم توفّر يوماً مواعظها وتأنيبها له مهما فعل وبخاصة بعدما تقاعد من العمل وأصبح مقيماً بشكل شبه دائم في البيت. كان يخرج في الصباح ليزور أخوتي الشبان كلاً في بيته حيث يمكث في كل بيت لبضع دقائق فقط. حين كان يخرج لزياراته تلك كانت والدتي تطلب منه أن يشتري لها بعض الخضر أو اللحمة أو غير ذلك مما يحتاج إليه البيت. كان يفعل بكل طيبة خاطر لكنها لم ترحمه يوماً واحداً إذ إنه كلما عاد محمّلاً بما طلبته، انهالت عليه الملاحظات إما حول الأسعار وإما حول النوعية، فيتركها في المطبخ ويسرع إلى غرفة الجلوس حيث يغرق في قراءة الصحف، وهي لا تزال على وتيرتها السابقة من الانتقاد، وكثيراً ما كانت تناديني لكي أرى بعيني سوء اختياراته. كنت دائماً أحاول تبريره وفي النهاية أسمعها تقول: «ما أنت أخرى منو». أضحك من كلامها هذا وأنصرف لأنه من العبث مناقشتها وإقناعها بغير ما هي مقتنعة به، وهي دائماً مقتنعة بأنها على صواب وغيرها دائماً هو المخطئ.

ـ ألا تظنين أن سبب توتر والدتك الدائم ووقوفها ضد والدك في

كل ما يفعله هو عدم اكتفائها جنسياً معه؟ سألتُ صديقتي هبى التي كنت على يقين من أنها فكّرت به، ولهذا السبب أتى جوابها بأنها تفترض ذلك لكنها تابعت:

ـ هذه المشكلة هي مأساة غالبية النساء ولسن جميعاً كوالدتها، القضية هي قضية طباع وشخصية مع اعترافي الكلي بما تثيرينه حول الموضوع. قالت ذلك وهي تنهض من مكانها مستعدة للانصراف.

ـ هل أفرغت كل ما عندك وارتحت؟ سألتها.

ـ إنه غيض من فيض. أجابتني وهي تهزّ برأسها.

ـ لكنك تقولين إن والدتك تطاردك أينما كنت بواسطة الهاتف وها أنك قد أمضيت أكثر من ساعتين برفقتي من دون أن يرنّ هاتفك. قلت لها كي «أحطّ» على عينها، كما يقال.

ابتسمت هبى بشكل معبّر، سحبت هاتفها الجوال من حقيبتها وقالت: «إنه مقفل، والآن سأعيد تشغيله وسترين أنه سيرن قبل مرور خمس دقائق. بالفعل لم تمرّ الدقائق الخمس ورنّ هاتفها، فنظرتْ إلى شاشته وقالت: «ألم أقل لك؟ اقرئي من يطلبني». قالت ذلك وهي تضع الهاتف أمام عيني وحيث قرأت كلمة «ماما» مكتوبة باللغة الفرنسية.

ـ لا تجيبي، قلت لها، ولنخرج إلى أحد المقاهي الليلية لتمضية السهرة.

ـ كما تريدين، هيا بنا. قالت وهي تتوجه نحو الباب.

ركبنا سيارتها وتوجهنا نحو شارع الحمرا في العاصمة، وما هي إلا دقائق حتى رن هاتفها من جديد.

ـ إنها هي، لن تكفّ قبل أن أرد عليها. قالت هبى.

ـ لا تجيبي، قلت لها مجدداً.

ـ وإن كانت تشكو من شيء معيّن؟ سألتني.

ـ ستتصل بأحد إخوتك اطمئني. أجبتها كي أخفف عنها وخز الضمير.

ـ وإن أصابها مكروه؟ لن أسامح نفسي. صاحت بي.

ـ كما تريدين، كلميها.

ردّت هبى على الهاتف وسمعت صوت والدتها وهي تعاتبها: «أين أنت؟ منذ ساعة وأنا أتألّم من معدتي ولا أعرف ماذا أفعل. لقد اتصلت بشقيقتك ولم أجدها، الألم لا يطاق، تعالي بسرعة».

ـ ماذا تريدينني أن أفعل؟ سألتني هبى وهي تقفل الخط بعدما وعدت والدتها أنها آتية.

ـ وإن لم تذهبي، ماذا سيحدث؟ سألتها.

ـ ستستمر في مطاردتي حتى آتيها. أجابتني.

ـ لقد عودتها على تلبية رغباتها، ولهذا السبب تبتزّك وتبتز طيبة قلبك. طنشي مرة واحدة كما تنصحك شقيقتك وسترين أن الأمور تتغير.

ـ لقد طنّشت مرّة وحين زرت والدتي من جديد قابلتني بالبكاء والصراخ وهي تقول: «تاركيني متل الكلبة عيش وحدي». لا أقدر على سماع كلامها هذا لأن ضميري يؤنبني وأشعر بأن من غير العدل أن تبقى وحدها حتى ولو كانت برفقة تلك الجارة التي تزورها، بناءً على طلبنا، كل ليلة وبرفقة تلك الخادمة الفيليبينية النمرودة.

ـ والحل؟ سألتها، لا تستطيعين أن تعيشي معها ولا تستطيعين أن تتركيها وحدها، المشكلة فيك أنت وليست فيها، احسمي أمرك. إما أن تعزمي أو أنك ستدمّرين حياتك.

رنّ الهاتف من جديد، إنها هي تتفقّد أين صارت ابنتها وإلى كم من الوقت تحتاج كي تصل إليها، وسمعتُ صديقتي هبى تقول لها: «نصف ساعة، مسافة الطريق». أقفلت الخط وقالت لي:

ـ اعذريني سنسهر معاً في يوم آخر، أما الآن فسأعيدك إلى بيتك وأمضي إليها.

لم أتركها توصلني إلى بيتي بل ترجّلت من سيارتها وتركتها لتعود إلى والدتها وعالمها الممزّق وحلقته المفرغة.

2

قبل ظهر اليوم التالي اتصلتْ بي هبى وطلبت مني أن نلتقي في أحد مقاهى الآ بي سي.

ـ أنتهي من العيادة وأوافيك حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر ونتناول الغداء معاً. أجبتها.

حين دخلتُ ذلك المقهى رأيتها جالسة في إحدى زواياه تقرأ في كتاب.

ـ ماذا تقرئين؟ سألتها بعدما جلست قبالتها.

ـ أقرأ عن الحروب اللبنانية الأخيرة التي أنهكت حياتنا لأكثر من عشرين عاماً. أنتِ نجوت منها وأمضيت الوقت أو غالبيته في باريس، أما نحن هنا فقد ذقنا الأمرين.

ـ أعرف ما مررتم به، لكن لماذا لم تفعلي مثلي وتغادري البلد؟ ماذا كان يربطك هنا؟ سألتها.

ـ تعرفين أنني حاولت لمرات عدة أن أهرب من الحرب وعشت فترات قصيرة في كل من باريس ولندن وأميركا، لكنني كنت دائماً قلقة على أهلي وإخوتي ولهذا السبب لم أكن أطيل مكوثي في الخارج، كنت أعود لأعيش المأساة معهم، وآخرها كانت خلال حرب عون وجعجع. وهنا لا بد من ملاحظة حول الذين يكتبون عن حروب لبنان، كما في هذا الكتاب مثلاً؛ كلهم يتكلمون عن المعارك العسكرية وعن المباحثات السياسية ولم يكتب أحد منهم عن معاناة الناس الشخصية.

ـ يصبح الأمر من باب الرواية وليس التحليل السياسي وهناك بعض الروايات التي عالجت هذه الناحية الإنسانية الذاتية. أجبتها.

ـ ربما أنك على حق، لكن ما أهتم به بالدرجة الأولى هو معاناة الناس، الأفراد. أجابتني هبى.

ـ اكتبيها أنت، سارعتُ إلى الرد.

ـ سأكتبها، وعناصرها جاهزة في رأسي إذ إنه في بداية حرب التحرير التي قام بها الجنرال عون كانت حالة والدي قد أوشكت على التدهور، والشلل أخذ يطاول فكّه الأسفل ويديه وصعب عليه المضغ مما حتّم علينا أن نعدّ له الطعام السائل كي يتمكّن من ابتلاعه من دون جهد. بدأنا هذا العمل الجديد ووالدتي تتذمّر كلّما قامت به وكأنها تهتمّ بشخص غريب لم تمضِ حياتها معه، ولكي أتلافى تذمّرها ونقّها كنت أقوم بالعمل وأطعمه بيدي كطفل صغير وهو يبتسم ويهزّ برأسه. لكن الوضع الأمني ساء جداً

وباتت المنطقة التي نسكنها معرّضة للقصف الصاروخي كل لحظة، مما دفع سكان البناية التي كان يقيم فيها والدايّ إلى تجهيز الطابق السفلي وتحويله إلى ما يشبه الملجأ الذي كنا نتراكض إليه كلّما سمعنا أزيز الصواريخ فوق رؤوسنا. تصوّري أن والدتي كانت تركض معنا تاركة والدي في البيت وحده غير آبهة بما سيحصل له. لكنّني هنا لا ألومها لأن غريزة البقاء هي أقوى غرائز الإنسان وفي الوقت نفسه كنت أتألّم لوضع والدي الذي لم يعد قادراً على التحرك مثلنا.

تنهدت هبى بعمق قبل أن تتابع:

ـ في تلك المرحلة من الحروب اللبنانية حزمت شقيقتي أمرها ورحلت مع عائلتها إلى منطقة نائية في أحد الجبال كي تتجنّب وتجنّب أولادها مخاطر القصف الذي كان عشوائياً يطاول كل المناطق من دون تحديد. أما شقيقي البكر فقد قرّر مغادرة البلد ولجأ مع عائلته إلى قبرص، وأخي الثاني رحل مع عائلته إلى الضيعة، والثالث كان يقيم في الولايات المتحدة. تركوني وحدي ورحلوا مع أنني أنا الوحيدة التي كان بإمكانها أن تغادر إلى حيث تشاء لأنني غير مرتبطة بأولاد أو زوج أو سواهما.

ـ ولماذا لم تفعلي؟ سألتها.

ـ لم أترك لأنني حين عبّرت عن رأيي هذا أمام والدتي جنّ جنونها وصاحت بي: «تتركينني وحدي مع والدك وهو بهذه الحالة؟».

ـ إنه زوجك وليس زوجي. كنت أجيبها، وتردّ:

ـ إذا سافرت فسأسافر معك، لن أبقى وحدي معه.

«كنت، كلما تأزم الوضع أعيد القول إياه لكنني، بالفعل، كنت عاجزة عن تنفيذه، ليس كرمى لوالدتي بل من أجل أبي الذي كانت حالته تسوء يوماً بعد يوم وقد أصبح عاجزاً عن أن يستحمّ وحده وقد وجب على والدتي أن تساعده. كانت في البداية تفعل وهي طبعاً تتذمّر وتكيل له الشتائم وأنا في الخارج أتلظّى غضباً، وتمنّيت لو أستطيع القيام بما كانت تقوم به كي أخفّف عن والدي سماع كلامها المهين. لكن من العيب أن ترى الابنة عورة أبيها. أحسست بالعجز، لكنني سرعان ما اتخذت قراري: سأتصل بأخي البكر وأطلب منه المجيء لعلّنا نتدبّر معاً أحوال الوالد. لبّى شقيقي طلبي وأتى على الرغم من سوء الحالة الأمنية. عاد ليحسم الموضوع إذ قال: «نرحل بأبي إلى الضيعة فهذا الأمر ينعشه وقد يطيل في عمره».

ـ لن آخذه وهو بهذه الحالة. أجابت والدتي بينما رحّب والدي بالفكرة وكأنها تلبية لأمنية أخيرة.

ـ هل المرض عيب؟ صرخ بها أخي.

ـ ليس عيباً، لكن أهل الضيعة «لتلاتين وبكترو حكي وبتصير سيرتو ع كل لسان». أجابت والدتي بنبرة عالية وحاسمة.

«هنا تنازعني أمران، فمن جهة كنت أودّ أن نلبّي رغبة والدي الصامتة ومن جهة أخرى كنت شبه مقتنعة بوجهة نظر والدتي إذ كنت أرغب في أن يحتفظ أهل الضيعة بصورة والدي القوي والسيّد لا بصورته الحالية التي تستدعي الشفقة. حزمت أمري وقلت:

ـ ربما كان الحق مع والدتي، من الأفضل ألا نرحل إلى الضيعة وأبي على هذه الحالة.

ـ وما الحل؟ سألني أخي.

ـ نضعه في مستشفى. سارعت والدتي إلى القول، وتابعت: لقد أصبح بحاجة إلى عناية كبيرة لست قادرة عليها.

«حين سمع والدي ذلك استاء جداً وقرأت الغضب في عينيه فسارعت إلى القول:

ـ لا لن نضعه في مستشفى، وإن كان أمر الاعتناء به وبحمّامه يزعجك سنأتي بممرض يقوم بالعمل.

«ارتاح والدي ووافق أخي على اقتراحي وأتينا بممرض يساعد والدي بكل احتياجاته، وبعد فترة قصيرة طلبنا ممرضاً آخر لفترة الليل، فانتقل مبيت والدي من الغرفة الزوجية إلى غرفة ثانية حيث بات الممرض هو رفيقه فيها.

«لم يطل الوضع كثيراً، وبعد أقل من عشرين يوماً فارق أبي الحياة. حدث ذلك بصمت كبير إذ أفقنا صبيحة الخامس عشر من شهر حزيران لنجده مسجى في سريره. لقد غادرنا ليلاً وبهدوء. صُعقنا بالأمر رغم أننا كنا نتوقعه كل يوم، لكن للموت رهبة ولا بد من الشعور بالمفاجأة والعجز أمامه.

«نسيتُ والدتي في تلك اللحظات وبكيت على صدر والدي. لم أنتبه إليها إلا بعد ساعات حيث وجدتها جالسة في الصالون يحيط بها جمع من الأقارب والجيران الذين توافدوا إلى بيتنا حين

سمعوا الخبر. كانت جالسة بوقار، مكتوفة الذراعين، من دون بكاء ولا دموع. بماذا كانت تفكّر؟ لا أدري. لكنها قامت من مكانها واستدعتني إلى غرفتها وطلبت مني أن أهتم بتحضير ثياب الحداد وأن أذهب إلى السوق لابتياعها وقد حدّدت لي المكان قائلة:

ـ في هذا المحل يعرفون مقاسي، فاذهبي إليه وابتاعي لي ثوباً لائقاً.

«كنت سأسألها: لائقاً بك أو بالمناسبة، لكنني فضّلت الصمت في تلك اللحظة وعدت إلى غرفة والدي وقد تم الاتفاق على نقل جثمانه إلى براد المستشفى كي يتمكن أخي من تدبير أمر ذهابنا إلى الضيعة في تلك الظروف الأمنية المتردّية والخطرة.

«بعد اتصالات عديدة بالقوى المحلّية والسورية هدأ الوضع قليلاً وتمكنا من مرافقة النعش إلى مثواه الأخير. كان أخي في الضيعة قد جهّز له مأتماً مهيباً اشترك فيه كل أهالي الضيعة والقرى المجاورة، مأتماً يليق بهذا الرجل الذي أفنى حياته مناضلاً وراء مصالح المنطقة وكان قد أثمر نضاله، كما تعلمين، بأن أوصل أخي البكر إلى سدة البرلمان الذي كان إلى حينه مقفلاً في وجه أمثالنا من أبناء الشعب العاديين.

ـ لماذا لا تكتبين هذه المرحلة من حياتك؟ سألتُ هبى.

ـ سأكتبها لكن ما أود أن أفضي به لك الآن هو ما يتعلق بوالدتي.

ـ كلي سمع، لكن بعد أن نطلب الغداء. قلت لها.

ـ كدت أنسى هذا الأمر، هيا بنا. أجابتني وهي تبتسم.

نادينا النادل وطلبنا ما كنا نرغب بأكله وعدنا إلى الموضوع السابق وتابعت هبى:

ـ دخلنا إلى دارنا في الضيعة وراء النعش ووالدتي تصرخ بأعلى صوتها: «يا رفيق حياتي وين رحت وتركتني؟». وُضع النعش في منتصف الساحة وتجمع الناس حوله وهم يبكون. بعد قليل أتى وفد (أخوية دينية) من قرية مجاورة ونثر رئيسهم فوق النعش غطاءً كبيراً عليه صورة مريم العذراء فما كان من والدتي، وكانت تجلس بالقرب مني إلا أن لكزتني وطلبت مني أن أرفع الغطاء عن النعش. استغربتُ الأمر في البداية، لكني سرعان ما فهمت قصدها؛ كانت تريد أن ينتبه الجميع إلى فخامة النعش الذي أصرّ أخي على أن يكون الأغلى والأجمل. رفعتُ قسماً من الغطاء فسارع رئيس الأخوية إلى نهري: «اتركيه إنه بساط الرحمة». لكنني تجاهلت كلامه وتركت النعش يظهر ولو بنصفه فقط. وحين تأكّدتُ لاحقاً من قصد والدتي تساءلت عن مقدرة تلك المخلوقة التي لا تتخلّى عن المظاهر ولو في أحرج المواقف. كيف استطاعت أن تفكّر بما فكّرت به ونحن في تلك الحالة من الحزن بين جوقة النساء النادبات وصوت المكبّر الذي كان يصدح بأبيات «العتابا» التي تدور كلها حول مزايا الميت وأهميته والتي كان ينشدها أهم قوّال عتابا في المنطقة وهو ابن ضيعتنا وكان قد شاع صيته في كل مكان؟ ما هذه القوة التي تمنعها من نسيان حالها ولو للحظة واحدة؟

ـ ألا تظلمينها قليلاً في تحليلك هذا؟ سألت هبى.

ـ لا أعتقد لأنني أعرفها جيداً ولأنني تأكّدت من الأمر منها بالذات. لكن الدفن قد تم وعدنا وحدنا إلى البيت بعدما وضعنا التابوت في جبانة العائلة، وهنا بدأت مشكلة ثانية.

ـ وما هي؟ هل هي تعلق والدتك بك وعدم قبولها بالافتراق عنك؟ هل استبدلتك بأبيك؟ سألتها.

ـ لم نصل بعد إلى هذه القضية وهي قضية معقّدة، بل المشكلة كانت في أن جسم والدتي كان حساساً باللون الأسود وهذا ما ظهر عليها بعد وفاة أمها، إذ بعد ارتدائها للجوارب السوداء لفترة قصيرة امتلأ جلدها بحبيبات صغيرة حمراء قال عنها الطبيب المختص إنها حساسية، ومن لحظتها خلعت والدتي الجوارب السوداء ولا تدع اللون الأسود يلامس جسمها مباشرة وباتت ترتدي تحت ملابسها رداءً من القطن الأبيض. هل كانت حساسية والدتي باللون الأسود أمراً صحياً أم نفسياً؟ هل حقدها على والدتها هو الذي تمظهر بتلك الحساسية كأنها كانت ترفض في داخلها أن تحزن عليها؟ تساءلت صديقتي وهي تتوجه إلي، فسارعت إلى الإجابة:

ـ أليس من القسوة بمكان أن تُطرح هذه الأسئلة.

ـ لقد وردت في ذهني ولا أتردّد في البوح بها أمامك فقط. لعلّ رحيل والدي في فصل الصيف رحمها فلم تحتج إلى الجوارب واكتفت بالملابس فقط التي ما أن انقضت السنة الأولى حتى خلعتها وعادت إلى نظامها السابق: «اللباس الأسود ما ردّ حدا». كانت تردّد دائماً وكنت أوافقها الرأي حتى ولو كانت الواجبات تفرض غير ذلك.

ـ هي على حق. الرداء الأسود هو من التقاليد ولم يردّ ميتاً في يوم من الأيام. أتى تعليقي.

ـ أعرف ذلك لكن مقولتها تلك وضعتنا مرة في موقف حرج جداً بعد وفاة خالتي التي تصغر والدتي بخمس سنوات؛ كنت معها في بيتها بعد ظهر أحد الأيام التي تلت رحيل أختها وكنا كلانا نرتدي ثياباً عادية ملوّنة. رن جرس الباب ودخلت علينا إحدى جارات والدتي ومعها ابنتها وهما ترتديان اللون الأسود وفقاً لمتطلبات اللياقة في مثل تلك الظروف. شعرت بالارتباك أمامهما وفي الوقت نفسه انتابتني موجة من الضحك فأسرعت إلى خارج الصالون متحجّجة بطلب القهوة من الخادمة، وحين عدت سمعت والدتي تشرح لهما كيف أنه ممنوع عليها ارتداء اللون الأسود وهما تحاولان التخفيف عنها وترد عليهما: «الحزن في القلب وليس في الملابس». هل كان قولها صادقاً؟

ـ خالتك؟ تقصدين تلك التي كانت جدتك، تفضلها على والدتك؟ سألتها.

ـ هي بالذات، وخالتي كانت إنسى مرحة، ذكية ومتمرّدة منذ صغرها، وهي التي كانت جدّتي تفضّلها على أمي وتعاملها برفق وحنان لم تنعم بهما والدتي. تلك الخالة هي أول من عصى مشيئة جدي إذ إنها أحبّت شاباً من خصوم أبيها وليس من «مزاويج» بنات الشيخ فواز. أحبته وأصرّت على موقفها وهربت معه من بيت أهلها. تزوجت به فارضة الأمر الواقع على الجميع. لكن جدي عاداها وحرمها من السكن في الضيعة لمدة طويلة بينما كانت جدتي ترسل لها المال خفية عن زوجها، ودام الوضع إلى أن أنجبت خالتي ابنتها البكر واصطلحت الأمور مع أبيها

بعدما تدخّل كل وجهاء الضيعة في الموضوع. حين أخبرتني والدتي ذلك علقتْ قائلة: «كل عمرها كانت طايشة وعنيدة وجدتك تسترّ عليها وترعاها حتى عملت عملتها و كسرت إرادة والدها لِ ما تجرأ حدا على الوقوف في وجو».

ـ لكنها تزوجت بمن تحب وقد عاشت مرتاحة معه. أجبت والدتي.

ـ يحبها العمى، لقد بهدلتنا. أتى جواب والدتي السريع.

ـ هل أنت حاقدة عليها؟ سألتها. وأجابتني:

ـ حقدت في البداية، لكن مرور الزمن بسوّي الأمور. صحيح أنها أختي لكنها منحازة لزوجها في السياسة وهو ضدّنا و أورث موقفه هذا منا إلى أولادها، ولهذا السبب أفضّل الابتعاد عنها وما بوثق فيها.

روت هبى ذلك وتابعت:

ـ صحيح لم تكن والدتي على علاقة جيدة مع أختها، مع أن خالتي كانت تحاول التقرب منا وبخاصة بعد وفاة والدي. وكنت أنا أشجّع ذلك التقرّب وأطلب منها أن تزور والدتي وتمكث معها لفترة كي أرتاح. كانت تلبي طلبي وتأتي، لكنها لم تكن تطيل الإقامة مع أختها وتقول لي قبل مغادرتها:

ـ والدتك صعبة ومزاجها لا يحتمل، ومن المستحيل أن يتحملها الإنسان لفترة طويلة إذ عليه أن يكون دائماً بإمرتها ووفقاً لإرادتها. كنت أود أن أبقى معها لفترة أطول لكنني لا أتحمل.

وتتنهد هبى قائلة:

ـ رحمك الله يا خالتي، كم كنت أفهمك وأفهم هروبك منها ومن سطوتها وصعوبة العيش معها. وعليك يا أبي كل الرحمة.

رن جرس هاتفها، وقبل أن تسحبه من حقيبتها نظرت هبى إلى ساعتها وقالت: «إنها هي حتماً، حلّت الساعة الثانية والنصف ولم أتواجد عندها بعد».

بالفعل ما توقّعته صديقتي كان صحيحاً وسمعتها تقول: «أنا في بيروت وأحتاج إلى أكثر من ساعة للوصول».

...ـ

ـ لن أتأخر، هل تشعرين بشيء؟

...ـ

ـ اشربي كوباً من النعناع الساخن وأنا آتية. قالت هبى لوالدتها قبل أن تقفل الخط. ثم توجّهت إليّ وقالت:

ـ هل رأيت؟ لا تمرّر يوماً واحداً من دون أن تتّصل. قبل الظهر تكون منشغلة بأمورها الخاصة، لكن بعد أن تتناول الغداء «تحوص» وتبدأ بالاتصال.

ـ وأنت تلبين طلبها بسرعة. أجبت هبى لأبيّن لها مساهمتها في ما تشكو منه. لكنها أجابتني:

ـ لا تزعجني زيارتها بعد الظهر في هذه المرحلة، إذ إنني أذهب

إلى بيتها وأتمدّد قبالتها على الكنبة وأنام لمدة ساعة، حين أصحو أشرب القهوة وأنتظر مجيء الجارة كي أغادر، وهنا تبدأ المشكلة، إذ غالباً ما تصاب والدتي بالألم في تلك اللحظة وتضعني أمام اختيار صعب: هل أتركها تتألّم وحدها أم أمكث معها؟ وفي أوقات كثيرة كنت أنبر فيها وأتّهمها بأنها تصطنع الوجع كي تبقيني معها، فتنهال علي بالدعوات وتتّهمني بأنني بلا قلب ولا شفقة. أحياناً كنت أتركها لكنها ما كانت تتركني إذ تلاحقني بواسطة الهاتف حتى أعود وأمكث معها حتى ساعة نومها حيث تدخل غرفتها وهي تقول: «نامي عندي هذه الليلة». أجيبها بالإيجاب وحين أبدأ بسماع شخيرها الخفيف أنسلّ كاللصة وأعود إلى بيتي بانتظار نهار آخر شبيه بالذي مر. والآن أستودعك لأعود إليها ولنر كيف سيكون هذا اليوم وفي لقاء آخر سأتابع لك قصتي معها.

تركنا المقهى وتوجهنا كل منا في اتجاه؛ أنا إلى عيادتي من جديد وهي إلى عالمها الذي تدور فيه منذ أكثر من عشرين عاماً.

3

مضى أسبوع كامل ولم تتّصل صديقتي هبى بي، قلقت عليها وبادرت إلى طلبها. أجابتني وهي راقدة في السرير تعاني من صداع قوي إثر إصابتها بالكريب. لكنها قالت: تصوّري أنني مريضة ولا أتمكّن حتى من رفع رأسي عن الوسادة ووالدتي تهاتفني كل ساعة لتسألني متى سأشفى لكي أزورها. ممنوع علي أن أمرض.

ـ اعتني بنفسك وانسي كل شيء حتى تتعافي. سأزورك بعد الظهر. أجبتها قبل أن أقفل الخط.

رحبت بي وقالت: سأتناول حبتين من «البانادول» كي أكون بحالة جيدة حين تصلين.

زرتها بعد ظهر ذلك اليوم وكانت في حالة لا بأس بها؛ لم أتركها

تخرج إلى الصالون لاستقبالي بل طلبتُ منها أن تبقى في سريرها، فوافقت وجلست إلى كرسي بالقرب منها وأنا أمسك يدها.

لم يطل الوقت قبل أن أسمع الهاتف بالقرب من سريرها يرن.

ـ إنها هي. قالت هبى وهي تنظر إلى الرقم المسجل على شاشة الهاتف، ثم رفعت نظرها نحوي وسألت: «ماذا أفعل؟».

ـ ردي عليها وأفهميها أنك مريضة.

ـ لقد فعلت ذلك للمرة الألف خلال هذا الأسبوع ولم تكلّ.

ـ ربما كان بالها مشغولاً عليك، أفهميها.

ـ أفهمها جيداً فهي بالفعل تريدني أن أشفى وأعود إلى الروتين السابق معها. أتى تعليق هبى.

ظل الهاتف يرن إلى أن رفعتْ هبى السماعة وأتى قول والدتها: «أين أنت لماذا تأخرت في الرد؟ لقد شغلت بالي».

ـ كنت في الحمام وها أنا الآن أفضل وسأزورك قريباً.

هنا رأيت صديقتي تبتسم وتقول: «أكيد غداً» وهي تعيد السماعة إلى مكانها. ثم توجّهت إليّ وسألتني: «كيف أمضيت هذا الأسبوع؟».

ـ كالعادة في عملي في العيادة بين المرضى الذين أحاول مساعدتهم على تحمل مشكلاتهم.

ـ هم يأتونك إلى العيادة وأنت تأتيننني إلى البيت كي أشكو

أمامك عن وضعي. قالت هبى ضاحكة.

ـ أنت لست مريضة، أجبتها، لكنك تمارسين نوعاً من الشفاء الذاتي (autotherapie) وتجعلين مني مرآة لكي تري بوضوح توتراتك الداخلية.

ـ وهل يزعجك ذلك؟ سألتني وهي تعرف تماماً جوابي المرحّب.

ـ أبداً. ولكي أبرهن لك ذلك سأطلب منك أن تتابعي ما كنت قد بدأته في المقهى الأسبوع الفائت. أجبت هبى وأنا أشد على يدها.

ـ وأنا كلي رغبة في ذلك. أين انتهينا في الجلسة الماضية؟

ـ كنتم في الضيعة بعد وفاة والدك على ما أذكر.

ـ صحيح، أجابت هبى محاولة التذكر بدورها، وتابعت: وما قمنا به بعد أيام التعازي، هو أننا تركنا والدي في الضيعة، تركناه لوحدته ووحشة المقبرة، تركناه في تلك الحفرة المظلمة التي لا ندري إلى أين سيذهب بعدها، أللعدم أم لحياة أخرى بشرتنا بها الأديان.

ـ وأنت ماذا تعتقدين؟ سألتها.

ـ لا أعرف، مع أنني ميالة إلى فرضية العدم. المهم بالنسبة لي أنه غاب ولم يعد موجوداً معنا.

ـ المسألة كبيرة جداً ولسنا بصدد حلها الآن فلنعد إلى حديثنا السابق. أجبتُ هبى كي تتابع سردها السابق لأنني أعرفها جيداً

وأعرف ميلها إلى الغوص في الأسئلة الكبيرة.

استجابت هبى لطلبي وقالت:

ـ تركنا والدي في الضيعة وعدنا كلٌ منا إلى حيث كان؛ شقيقتي عادت مع عائلتها إلى الجبل البعيد عن القصف، وشقيقي البكر غادر إلى قبرص حيث تنتظره عائلته وشقيقي الثاني بقي في الضيعة وعدت مع والدتي إلى المدينة. عدنا لتقيم والدتي معي وتلازمني في كل تحركاتي، تلك التحركات التي كانت تقتصر على التنقّل بين البيت والملجأ إذ إن الوضع الأمني استمر على أسوأ مما كان عليه قبل مغادرتنا، ودخلنا ما سُمّيت في حينه حرب الإلغاء وتحوّل القصف إلى الأحياء داخل المنطقة الواحدة.

صمتت هبى قليلاً كأنها تتذكّر هول تلك المرحلة من الحرب وتابعت بعد أن قالت: «تتذكر ولا تنعاد».

«رفضت والدتي أن تسكن وحدها في بيتها؛ كانت ستفعل لو انتقلتُ أنا، إلى العيش معها. تفهّمتُ وضعها في تلك المرحلة الصعبة وفضّلتُ أن تسكن هي معي، وافقتْ وانتقلنا إلى حيث أسكن. لكن بيتي كان في الطابق السادس وكان علينا نزول السلّم وصعوده مرات عديدة في اليوم الواحد وفقاً لوتيرة القصف. كنا نتراكض عل السلالم ووالدتي تتذمّر وتشكو من التعب وأنا عاجزة عن تغيير الوضع إلى أن خطر ببالي أن نعود إلى الضيعة ولو لفترة قصيرة نرتاح فيها من أجواء الحرب التي باتت شرسة، ولكي أتخفّف من مسؤولية والدتي التي ألقيت على كاهلي وحدي.

بعد صمت قصير تابعت هبى:

«كنا في الملجأ والقصف على أشدّه والقذائف تُقصف من مربض قريب من حيّنا وكنا نتوقّع الأفظع حين فاتحتُ والدتي بالموضوع:

ـ ما رأيك في رحيلنا إلى الضيعة في هذه الظروف اللعينة؟ سألتها.

تردّدت والدتي قليلاً ثم أجابتني: «كما تريدين، لكن...»

«لم تكمل جملتها لكنني كنت أعرف أنها لا تحب الضيعة هي التي ولدت فيها وترعرعت في ربوعها وتزوجت من أحد أبنائها وأنجبت بعضاً من أولادها في بيتنا هناك. كنت أعرف عدم رغبتها في الاستجابة لطلبي لكنني ثابرت على إقناعها لفترة أيام قبل أن توافقني الرأي وتحسم أمرها.

«كنا في بدايات شهر تموز من تلك السنة والطقس حار ونحن لا نزال نرتدي ثياب الحداد السوداء. لكن والدتي كانت تخلعها حين نكون وحدنا في البيت لترتدي عباءة خفيفة ملونة تقيها من الحر الذي لا تتحمله أبداً. أما في الضيعة فليس من وقت نكون فيه وحدنا إلّا في أواخر الليل مما حتّم علينا شراء عباءات سوداء وهذا ما فعلته والدتي وهي تتأفّف وتقول: «أهل الضيعة ما بيرحموا، حطّيهن عإنتقاد».

ـ ألا تجدين لهم أية ميزة؟ ولماذا تكرهينهم هكذا؟ سألتها مرة.

«كنت أعرف لماذا لا تحبّهم. والسبب هو نظرتها الاستعلائية إليهم والتي لا تخفيها أبداً مما يدفعهم إلى تهيّبها والتهرب من مقاربتها. حتى استقبالها لهم يأتي متكلّفاً ولا تكون فرحة فعلاً إلا

حين يدخل علينا أحد الذين كانوا يزورونها في بيت أهلها قبل زواجها. كانت تجالسه بودّ وتستعيد معه كل ذكرياتهما المشتركة حول مواقف والدها الشجاعة ذلك الوالد الذي تفتخر به جداً.

ـ تعمي عيونهم الغيرة ويتآكلهم الحسد. أجابتني والدتي.

ـ لا ألاحظ ذلك بل على العكس أجدهم طيبين ومحبين وغيورين علينا وعلى مصالحنا. أجبتها كي تخرج ما في داخلها ضدهم.

ـ أنت لا تعرفينهم جيداً؛ كل كلب منهم مفكر حالو زعيم، ما حدا بيعرف حدّو. قالت والدتي وهي تنفض يديها.

ـ اخرجي من هذا التكبر، كل الناس خير وبركة ولا أحد أفضل من أحد. أجبتها كي أردها إلى الواقع، وتابعتُ: «هل نسيتِ تجمعهم حولنا يوم مأتم والدي؟ هل نسيتِ كيف شارك الجميع في الحفلة التي أقامها والدي في عرس أخي؟ هل تنسين...

لم تتركني أتابع وقالت: «فيهن خصلة منيحة بيتجمعوا وبلفّو عبعضن في المناسبات».

ـ ألا يكفي ذلك؟ سألتها.

ـ حلي عني أنت متل بيك، الله يبارك فيهن. قالت ذلك لتقفل الموضوع.

استدركت هبى أنها ابتعدت عن الموضوع فقالت:

«أما نحن فلنعد إلى السياق السابق؛ رضيت والدتي بأن ننتقل إلى

الضيعة وحدّدنا موعد الذهاب في صبيحة اليوم التالي. في الموعد المحدّد ركبنا سيارتي متوجّهين نحو الضيعة. تركنا المدينة حوالي الساعة العاشرة صباحاً وتبعنا طريق عيون السيمان جبل صنين لأن الطريق العادية التي تمر بصوفر وظهر البيدر كانت لا تزال مقطوعة بسبب الحرب. كنت أملك في ذلك الوقت سيارة صغيرة لكنها سريعة، وبسبب ضعف محركها كان علي أن أطفئ التبريد في مرحلة الصعود محاولة إلهاء والدتي بالحديث كي أتلافى تأففها من الحر، لكنني لم أفلح إذ ما إن أقفلت الموضوع السابق حول رأيينا في أهالي الضيعة، حتى صاحت: «شوهالشوب ما بتقبلي إلا تطلعي عالضيعة».

ـ وهو أفضل بكثير من البقاء تحت القصف، أجبتها.

ـ القصف ولا هذا الحر. أجابتني بنبرة عالية.

ـ طوّلي بالك حتى نصل إلى قمّة الجبل، بعدها سأشغّل التبريد وقد صرنا على مقربة منها. افتحي النافذة إن أردت.

لم تفتح والدتي النافذة بل قالت: «أوف رح نحترق».

ابتسمت هنا هبى وقالت:

«لم تفتح النافذة لأنها تخشى أن يعبث الهواء بتسريحتها وتصل إلى الضيعة وهي منكوشة الشعر. لم أكرّر طلبي وحاولت المستحيل كي نصل إلى آخر الطريق الصاعدة بأسرع وقت. وما أن أصبحنا على المقلب الهابط حتى شغّلت التبريد فانتعشت وراق مزاجها وتابعنا الطريق بصمت إلى أن قالت: «الهوا البارد عم يضرب ع معدتي وقد بدأت أشعر بالمغص في بطني».

ـ هل أوقف التبريد؟ سألتها.

ـ لا، بس ديريه عليكِ. أجابتني

«فعلتُ وتابعتُ قيادة السيارة وأنا أحاول الإسراع كي نصل إلى الضيعة وأتخلّص من ملاحظاتها. لكنّني لم أنجُ إذ صاحت بي: «لماذا كل هذه السرعة؟ بدّك تهورينا؟».

«خفّفت السرعة من دون أن أجيبها وكظمت غيظي إلى أن وصلنا إلى بعلبك فقلت: «لقد اقتربنا، نصف ساعة ونكون في البيت».

ـ تضرب هالضيعة شو بعيدة، ليش ألله خلقنا بآخر الدنيا؟ أتى تعليقها الذي طالما سمعته منها في السابق.

ـ سنصل وترتاحين قليلاً ويزول عنك كل التعب. أجبتها كي أقفل الموضوع.

«لم تعلّق، ووصلنا إلى البيت حيث كان أخي وزوجته وابنه ينتظروننا في الحديقة ورافقونا إلى الطابق العلوي وشبان العائلة يحملون أمتعتنا. تناولنا الغداء الذي كان أخي وزوجته قد أحضراه لنا من الصفيحة البعلبكية واللحم المشوي والتبّولة والحمّص والمتبّل و... وفقاً لذوق والدتي التي شكرتهما على ما قاما به لكنها تابعت شكرها بالقول: «لقمة كبة نية بتساوي كل هذه الأشكال».

ـ غداً ستأكلين الكبة النية أجابها أخي من دون أن يبدي أي استياء كما فعلت زوجته.

«وهنا بدأت مرحلة «الكنّة والحمة» مرحلة لم يسبق لهما أن

خبرتاها أبداً في السابق لأن كل واحدة منهما كانت تعيش في بيت مستقل تمارس كل فيه حياتها الخاصة وحريتها. أما الآن فكان لا بد من الاحتكاك والمعايشة. كيف تم ذلك؟ زوجة أخي أجنبية وتتكلّم العربية بصعوبة لكنها كانت قد استفادت من إقامتها في الضيعة لتحسّن من إمكاناتها اللغوية وباتت تتكلّم مع الناس بالعربية حتى ولو أتت أحياناً كثيرة غير صحيحة من دون أن يسبّب لها ذلك أي إحراج. لكنها كانت تتكلم الإنكليزية مع زوجها ومعي ولغتها الأم مع ابنها الذي أتقن هذه اللغة التي لا يعرفها إلا القليلون في لبنان. أما مع والدتي فكانت تتوجّه إليها، طبعاً، بالعربية. لكن حين أكون أنا موجودة تتحدّث بالإنكليزية وأغلب الأحيان أكون موجودة. كانت والدتي تستاء من تصرّفها هذا وتتلمّظ وتتبرّم وتظهر امتعاضها وأحياناً كثيرة تعبّر عن مشاعرها وتقول لكنّتها: «تتكلمين العربية مع كل الناس فلماذا لا يحلو لك إلا الإنكليزية حين أكون موجودة؟».

ـ أنا ما بيأرف يحكي أربي منيح. تجيبها زوجة أخي ليلي التي ينادونها في الضيعة بالست أم وليد، وهو اسم ابنها، كما كانوا ينادون والدتي بأم وائل وأحياناً الدكتورة وليس باسمها هي. وتتابع: «ابنتك هبى بتقول إلك شو إحكي».

«كنت اضحك من كلامها هذا وأحاول أن أترجم لوالدتي كل ما تقوله ليلي وأترجم لليلي ما تقوله والدتي، ومن حسن حظي أن الكلام بينهما كان مختصراً جداً.

«كانت ليلي تنادي والدتي «ماما» لكن حين كانت تتوجه إلى ابنها تسميها «بابشا». ووالدتي تنفر من هذه الكلمة التي لا تفهمها وتحمّلها معنى تحقيرياً بينما هي تعني «تيتا» بالعربية.

ـ قولي لها أن تقلع عن تسميتي «بابشا»، أنا «تيتا» وعلى ابنها أن يناديني «تيتا». كانت تقول لي والدتي دائماً بنبرة غاضبة.

«أصبح وليد يناديها «تيتا» لكن ليلي لم تقلع عن تسميتها «بابشا» وكان تعليق والدتي على ذلك هو أن «ليلي وحدة بقرة ما بتعمل إلا لبراسها». لكننا تعودنا الأمر وبتنا نحن أحياناً ننادي والدتي بكلمة «بابشا» كي نمازحها.

ـ كي تمازحوها أم تغيظوها؟ سألت هبى مازحة.

لم تنتبه لسؤالي وتابعت:

«منذ طفولتنا أذكر أن والدتي كانت تستيقظ باكراً وهي لم تغيّر عادتها مع تقدم السن ولم تغيّر ما يتبع استيقاظها؛ تنهض من سريرها، وقبل أن تغسل وجهها أو تقوم بأي عمل آخر، كانت تدور على غرفنا وهي تصيح: «هيا انهضوا، صارت الضهر». كنت ألبّي رغبتها، أما شقيقتي فكانت تتباطأ بالنهوض مما يستدعي تدخّل والدتي المباشر التي كانت تردّد: «الإمبراطورة لا زالت نائمة؟» تدخل الغرفة وترفع عنها الغطاء وهي تقول: «هل نأتيك بريش النعام لنهوي لك؟» تتأفّف شقيقتي لكنها تنفّذ الأوامر ولو على مضض. لا أذكر أن والدتي اقتربت منا يوماً لتوقظنا بحنان أو بلطف أو لتقبّلنا كما تفعل كل الأمهات وكما باتت تفعل شِقيقتي، لاحقاً، مع أولادها. أما تعاملها مع الخادمة، إن حدث ووجدتها نائمة، وهو نادراً ما كان يحدث، فهو أمر آخر إذ تزجرها وتؤنّبها وتهدّدها بالطرد أو بالضرب الذي كانت تمارسه أحياناً.

«ومع زوجة أخي القصة باتت تتكرّر كل يوم؛ ليلي لا تستيقظ

باكراً بل تسترسل بالنوم حتى ساعة متأخرة من قبل الظهر. ينهض أخي مع بزوغ الفجر، يرتدي ثياب الرياضة ويركض لمدة ساعة قبل أن يعود إلى البيت ليستحم ويتناول فطوره ويهيئ نفسه للانتقال إلى الحديقة حيث يكون الزوار قد بدؤوا بالتوافد. يحصل كل ذلك وليلي نائمة ووالدتي تكيل لها الشتائم أمامنا من دون أن تقترب من باب غرفتها لأنها لا ترغب في المواجهة مع أخي الذي هو المفضل عندها بين أبنائها الذكور. ينهض ابن أخي وليد وبسرعة يجهّز نفسه ويغادر للقيام بما يحلو له من تجوال في أزقة الضيعة وزيارة كل البيوت من دون تمييز بين الأصدقاء والخصوم. كان الجميع يستقبلونه بالترحاب وكل يوم يأتينا من يقول لنا إن وليد قام بزيارته. كانت تلك السنة سنة وليد بامتياز إذ عاشها بكل حرية وانفتاح ووالداه فرحان به وباكتشافاته التي كانت كلها مع الحيوانات حيث لم يترك حماراً أو بغلاً أو حصاناً إلا وركبه، ولم يترك بقرة أو ماعزاً أو نعجة إلا وساعد أصحابها في حلبها، ولم ينج أي خن للدجاج من اقتحام وليد له لجمع البيض ولم يبق هرّ أو هرّة إلا وتنعم أو تنعمت باهتمام وليد بهما من حيث اللعب وتأمين المأكل الذي كان يأتيهما به من البيت بعد التداول مع والدته التي كانت تشجعه على ما كان يقوم به. وفي فترة الظهر وأحياناً في المساء يعود وليد ورائحته لا تطاق فتغمره أمه وتقبّله وهي فرحة به وبإنجازاته التي كان يسردها لها بلغتها، بينما تصرخ به جدته: «ادخل الحمام ولا تقترب مني ورائحتك مثل المزبلة». أصبح الجميع في الضيعة يعرف وليد ويروي أخباره ووالدتي لا تنسى ولو للحظة علاقتها المتوترة مع أمه التي تنعتها بالمستهترة واللا مبالية والتي لا تهتم إلا براحتها ونومها حتى منتصف النهار. وليلي لم تكترث لملاحظات والدتي التي لم تسمعها مباشرة بل تحدس بها فقط، ولم تغيّر من سلوكها؛ تستيقظ ساعة

تشاء، تحضر قهوتها وتجلس في الصالون لتحتسيها وتدخّن سيجارتها الأولى. تنهض والدتي من مكانها وهي تتمتم: «ما بتحمّل ريحة الدخان، ليش ما بتوقفي هالعادة السيئة وزوجك قد وقّفها؟». تتجاهل ليلي الملاحظة وتتابع ما تقوم به وأحياناً تحمل فنجان القهوة وتتوجّه نحو الحديقة. بعد هذا الطقس الصباحي ترتدي ليلي ثياب الرياضة وتنزل إلى الحديقة من جديد حيث تبدأ ممارسة نشاطها اليومي من اهتمام بالزهور والريّ واقتلاع الأعشاب اليابسة وما إلى ذلك مما شكّل كل هوايتها في ذلك الصيف.

«ولوالدتي أسبابها في حقدها على كنتها التي لم تنجب إلا ولداً واحداً وعدم إنجابها لم يكن بإرادتها بل بسبب صحي.

ـ لو تزوج من غيرها لكان لديه الآن أكثر من ولد. أيجوز أن يبقى وليد وحيداً؟ كانت والدتي تردد دائماً.

ـ هذا حظه، كنت أجيبها وأتابع بخبث: هل تودين أن يطلقها؟

«لا تجيبني مباشرة لكنها تباشر بسرد سيئات ليلي ابتداءً بتأخرها بالنوم إلى عدم اكتراثها بتحضير الطعام ولا حتى الاكتراث أو بذل الجهد لاكتساب تعلمه إلى لا جدوى اهتماماتها المقتصرة على العمل في الحديقة والقراءة.. وتنهي نقدها بالقول بنبرة متوترة: مرا متلها لشو؟

ـ ابنك يحبها وهو مرتاح معها، ألا يكفي ذلك كي تحبيها؟ كنت أجيبها.

ـ كان باستطاعته أن يحب من هي أفضل منها.

ـ وبماذا تزعجك؟ فهي تحاول دائماً مداراتك. أجيبها.

ـ سبحان الله، كل ما بتعملو ما بيعجبني، أم إنك إنت بتوافقي على غرقها بالنوم حتى نص النهار مثلاً؟ تسألني والدتي وهي متوتّرة.

ـ فلتنم قدر ما تشاء، أين المشكلة؟ كنت دائماً أجيبها.

ـ ما بتساعدني مرة بتحضير الطعام، بتكتفي بس بالتهامه حين يجهز.

ـ أنت لا تتركين أحداً يقوم بهذا العمل لأنك لا تثقي بنا ولا تأكلين إلا مما طهوت أنت.

ـ لكنها ما بتجاملني أبداً ولا بتعرض خدماتها. تقول والدتي.

ـ تعرفينها جيداً، هي ليست خبيثة ولا تمثل أدواراً فقط للمجاملة.

ـ قلت لك إنها وقحة وجلفة. تقول والدتي لتختصر الموضوع.

ـ هل تفضلين عليها الأخريات؟ كنت أسألها.

ـ كلهن أضرب من بعضن، لكن زوجة أخيك الكبير ست بيت ومش قليلة التهذيب.

ـ لكنك كنت تعارضين زواج ابنك منها في البداية.

ـ صحيح وأخوك يستأهل أكتر. كانت تجيب دائماً.

ـ وزوجة ابنك المقيم في أميركا؟ سألتها وأجابتني بإسهاب

سألخص لك مضمونه: «لا تذكّريني بها فأنا لا أنسى كيف دفعتنا إلى أن نفضّل البقاء تحت القصف على الاستمرار في ضيافتها يوم هربنا أنا ووالدك إليهم؛ كان أخوك يذهب إلى عمله صباحاً ويتركنا مع الست المصونة التي كانت تلازم غرفتها ولا تجلس معنا أبداً وكأنها تقول إنها لا تريدنا عندها. لم أتحمل ذلك وطلبت من والدك الرحيل، وتخيلي أن أخاك كان غير منزعج من سلوكها».

ـ إنها أميركية ولا تتكلّم العربية وربما كانت تفضّل أن تفسح لكما في المجال بأن تتصرفا بحرية. أجبتها كي أخفّف من حقدها على كنتها.

ـ لا، لا، هي أيضاً بقرة وما بتعرف المسايرة إطلاقاً. تجيبني والدتي وهي تهز برأسها.

ـ يعني أنك تفضلين زوجة ابنك البكر على الأخريات؟

ـ ما بعرف، ما سكنت معها حتى أحكم عليها. ربما كانت أسوأ من الأخريات. تقول والدتي بكل جدية.

ـ وأنت كيف كنت مع حماتك؟ سألتها مرة.

ـ حماتي ما كانت أم والدك بل خالته وكانت تكرهني وتكره أباك. صمتت والدتي قليلاً وهي تلوح برأسها كأنها تتذكر الأيام الماضية، ثم قالت: «الله ما يحطّها بديار حدا،نهبت أموال جدك وأوصلته إلى الإفلاس هو الذي كان ملك كل هذه المنطقة، نهبته وأسعفت أخاها الذي سلّمته كل تجارة جدك. وجدك ألله يرحمو كان يقوم بكل ما تطلبه منه... كل الرجال ضعاف مع النسوان.

ـ ووالدي كان ضعيفاً معك؟ سألتها.

ـ والدك سلّمني كل ما يتعلق بالبيت وانصرف إلى عمله في الطب وفي السياسة، وقد عمّرت بيته.

ـ هل كنت تحبينه؟ طرحت عليها السؤال للمرة المئة تقريباً خلال حواراتي معها.

تجاهلت مجدداً سؤالي وقالت: «ألله يرحمه كان طبيباً ماهراً والكل يشهد له بذلك حتى خصومنا في الضيعة، وهم لا يتنكّرون لإنجازاته معهم على الرغم من خلافهم معه في السياسة ؛ ففي مرة مرضت زوجة أحدهم وأتوا لها بأطباء من خارج المنطقة لكي يعالجوها، لكنها لم تستفد، وأخيراً اضطروا إلى الاستعانة بوالدك الذي ما أن عاينها حتى اكتشف مرضها و كان يومها الحمّى المالطية التي لم يكن أحد قد سمع بها من قبل، أعطاها العلاج وشفيت من المرض. كان والدك أهم طبيب.

ـ هل كنت تحبينه؟ كرّرت سؤالي الذي تجاهلته في إجابتها المسهبة.

ـ كنت فخورة به كطبيب.

ـ أسألك هل كنت تحبينه؟

ـ حلّي عني إنت وسؤالاتك الباردة. صرخت بوجهي.

ـ هل عيب أن تحب الإنسى زوجها؟ فأنا أعترف بأنني أحببت زوجي مثلاً. قلت لها.

ـ ولهذا السبب طلقتِه بسرعة و كان شاباً ممتازاً. سارعت إلى الإجابة.

هنا استراحت هبى قليلاً، شربت بعض الماء، ثم تابعت وهي تضحك:

«لم تظهر والدتي رضاها إلا عن الذي بات خارج العائلة، فهو الوحيد الذي حظي بالثناء بينما كل الآخرين، من زوج شقيقتي إلى زوجات أخوتي هم كلهم سيّئون. وهذا الموقف من قبلها لم يكن جديداً إذ إنها كانت دائماً تدافع عن زوجي السابق وهو لم يكن ليرفض لها طلباً، لم يقل لها مرة واحدة: لا. ربما كان هذا هو النموذج الذي يحظى برضاها هي التي لا تغفر لكل من يخالفها الرأي وتنعته بأقبح النعوت التي أقلّها أنه غشيم.

صمتت صديقتي من جديد لدقائق وهي غارقة في ذاتها، انتظرتُ قليلاً وسألتها عما يجول في ذهنها، فقالت:

ـ نسيت والدتي وغرقت في داخلي أستعيد بعضاً من الماضي وأكثر ما استوقفني هو عدم اهتمامها الواضح والبيّن لعدم إنجابي الأولاد هي التي لا تمل من تكرار حسرتها على ابنها الثاني الذي حرمه وضع زوجته إلا من ولد واحد. ففي مرحلة زواجي الذي دام حوالي السبع سنوات، لم تسألني يوماً عن الإنجاب والأنكى من ذلك أنها كانت ضد طلاقي من زوجي حتى بعدما علمتْ أنه كان عاقراً. لم يكن الطلاق بسبب ذلك لكنه كان واقعاً أثبته العلم. هل كانت تتقبّل الواقع أم تتمنّاه؟ أنا لست سيئة النيّة لكنني لم ألحظ اهتمام والدتي بهذا الموضوع إطلاقاً وكأنها فرحة به. هل كانت بلا وعيها تهيئ المرحلة الحالية حيث تكرّر بكل اعتزاز

لا يخلو من الدّلع، أمامي وأمام الجميع، أنها أمست هي ابنتي بعدما كنت ابنتها المدلّلة التي لم تحرمها من شيء.

ـ لستِ سيئة النية إطلاقاً، وتحليلك فيه الكثير من المنطق والحقيقة. أجبتها كي أشجعها على المتابعة.

ـ هل كنتُ ابنتها المدلّلة التي لم تحرمها من شيء فعلاً؟ تساءلت هبى وتابعت: بالواقع كانت تميّزني عن شقيقتي وتهتمّ بي أكثر من اهتمامها بها. هل كانت تهيئني لأن أكون أمّها التي لم تحبها يوماً؟ هل كانت تغدق علي العطاء كي لا أبخل عليها في ما بعد؟ هل كانت تدرك أنها خنقتني بكثرة اهتمامها بي؟ لقد كنتُ لعبتها التي تتفنّن في إلباسها أجمل الفساتين وتسرّح شعرها أجمل التسريحات. أذكر أنها مساء كل سبت، كانت تلف شعري بطريقة معينة وتربطه بمنديل كي تسرحه صبيحة يوم الأحد على مزاجها وتلبسني أجمل الملابس وأرافقها إلى الكنيسة في الضيعة وكأنها تعرض تحفة جميلة أمام كل الناس وبخاصة النساء اللواتي كن يكلن لها المديح على جمال ابنتها وأناقتها، وهي تشمخ برأسها وتفرح كأنها أحرزت نصراً حقيقياً. كنت أخجل من تلك المواقف وأسرع في العودة إلى البيت إلى جانب والدتي التي كانت تختال واثقة الخطى في سوق الضيعة كأميرة والكل يلقي عليها السلام ويتراكض لمصافحتها وسؤالها عن حالها وحال كل واحد منا.

صمتت هبى من جديد وهي تهز برأسها فسألتها: «هل عاودك الصداع؟ ارتاحي إن كنت قد تعبتِ من الكلام». وأجابت:

ـ لا لم أتعب بل أستعيد بعضاً من التمييز الذي عاشته شقيقتي.

فأحياناً كثيرة كنت أجد أختي في البيت تتلظّى غضباً من سلوك والدتها وتحوّل غضبها إلى نوع من العناد إذ كانت ترفض أن تلبي ما تطلبه منها والدتي، تحرن وتمانع لكي تُفهم تلك الوالدة أنها موجودة، وتلك الوالدة لا تفهم وضعها وتعاملها بقسوة. وحين كانت شقيقتي المسكينة تعبّر عما يختلج في داخلها كانت والدتي تردعها وتتّهمها بالعناد وترد عدم اهتمامها بها إلى هذه الطباع السيئة من غير أن تدرك أنها هي السبب في كل ما كانت تقوم به شقيقتي من سلوك سلبي. وكيف لا تكون سلبية هي التي كانت الشاهد والمعايش لكل التفرقة التي كانت تقوم بها والدتي بيني وبينها؟

ـ وهل تعلمين لماذا كانت والدتك تميّزك عن شقيقتك؟ سألتها متوقعة جوابها الذي أتى مقتضباً:

ـ للتعويض.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد التعويض عن النقص الذي عانته والدتي مع جدتي.

ـ وكيف كان يتجلى هذا التمييز بينكما؟ سألتها.

ـ التمييز هذا كان ينسحب على كل الأمورُ ولا تتوّرع والدتي عن إظهاره بشكل وقح؛ ففي مناسبة عيد الشعانين مثلاً كانت تباشر والدتي، منذ بداية الصوم بالتفكير والتخطيط لكي تتمكّن من إلباسي أجمل ما يمكن ووفقاً لأحدث الموديلات؛ تذهب إلى أسواق الأقمشة، تختار منها الأجمل والأفخم وتتفنّن بتحويله إلى رداء فريد يغلف جسدي الصغير صبيحة ذلك الأحد حيث يطوف

الأطفال وراء الكاهن وهم يحملون الشموع. دائماً كنت أحظى بالثناء على جمال ملبسي الذي يختلف عن ملابس الجميع والذي تقوم الكثيرات من الأمهات بمحاولة تقليده مع بناتهن في الموسم التالي. لم تبخل والدتي على شقيقتي في تلك المواسم أو غيرها، لكنها كانت دائماً تختار لي الأجمل والأغلى وحجّتها كانت دائماً أنني البكر بين البنات ومن حقّي أن أكون مميزة.

«تلك المواسم وبخاصة أحد الشعانين كانت مخصّصة للأطفال، لكن والدتي أصرّت على أن تستمر إلى أن أصبحت صبية وبت أخجل من ارتداء ثياب جديدة في تلك المناسبات. وتمسكتْ بموقفها إلى أن بلغتُ السادسة عشرة من عمري وكنت في صف البكالوريا وقد أطعتها لآخر مرة ولبّيت رغبتها في أن تعرضني كدمية. السنة التالية تمّت خطوبتي من ذلك الشاب الوسيم الذي تحوّل إلى زوجي بعد سنتين.

«كانت شقيقتي تتألم مما تراه من تمييز وتتساءل وتسأل والدتها: «هل لأن أختي هي شقراء وشعرها أملس وعيناها ملونتان تهتمين بها أكثر مني؟». كانت محقة في أسئلتها تلك فهي بالمقاييس الجمالية التي سادت في تلك المرحلة كانت تعتبر أقل مني جمالاً إذ إنها كانت كستنائية الشعر وسوداء العينين. لكن مع تقدم السن ازدادت جمالاً وبتنا كتوأمين. لكن والدتي كانت تبرّر عملها بأن تقول لها: «أنت الأصغر ودورك آتٍ أما الآن فهو دور أختك».

ـ وهل تعرضينها للزواج هكذا؟ تجيب شقيقتي بكل انفعال.

ـ الزواج سترة البنت وعليها أن تتزوّج بأسرع وقت. وأنت يأتي دورك بعدها.

ـ لن أتزوج، سأبقى معكم أطول وقت ممكن كي تهتمّي بي كما تهتمين بالست هبى. ترد عليها شقيقتي.

ـ أنت عنيدة ولا تفعلين إلا ما يغيظني، أما أختك فهي مطيعة ولا ترفض لي أمراً. تقول والدتي لتبرر انحيازها.

ـ كيف لها أن ترفض لك أمراً وهي حاصلة على كل ما تبغي؟ وأنت لا تهتمين إلا بها؟ تجيبها شقيقتي بكل اقتناع.

«وينتهي الحوار بينهما بأن تنهرها والدتي قائلة: «اسكتي واهتمي بدروسك وخفّفي من «وراشتك» التي يشكو منها أساتذتك».

ـ هل كانت شقيقتك فعلاً ورشة في المدرسة؟ سألتُ هبى التي أجابت:

ـ سلوك شقيقتي هند في المدرسة لم يكن إلا رد فعل على ما تعانيه في جو البيت إذ إنها كانت تحاول أن تسترعي انتباه جميع المعلّمين وتدفعهم إلى الاهتمام بها، ولهذا السبب كانت كثيرة الحركة ومشاغبة مما دفع أحد الأساتذة، وهو كبير في السن، إلى الركض وراءها في أحد الأيام كي يتمكّن من الإمساك بها وردّها إلى مقعدها، فساد الهرج والمرج في الصف وعلت أصوات التلامذة بالضحك مما أثار غضب الأستاذ المسكين الذي هرول مسرعاً إلى بيتنا الكائن على مقربة من المدرسة، كي يشكو أختي التي بلبلت كل جو الصف.

«كادت والدتي أن تنفجر من الضحك وهو يخبرها ويشير بيديه كأنه يصف معركة حربية، لكنها تمالكت نفسها ووعدته أنها ستلقّنها درساً لن تنساه. وحين عادت هند من المدرسة نالت

نصيبها من التأنيب لكنها لم تغيّر من سلوكها في الصف مما اضطر إحدى المعلمات إلى الاستغناء نهائياً عن مهنة التعليم وهي تردّد «إما أنا وإما هند في هذا الصف». وفي النهاية كانت هي من ترك المدرسة لتنتقل إلى مدرسة أخرى.

«لكن هند التي كانت تعاني من سلوك أمها معها والتي لم ترتوِ من ردّ فعلها في الصف فقط، ارتدت إلى نفسها وأخذت تمرض باستمرار إذ إنها كانت تمضي أسبوعاً في المدرسة وأسبوعاً في البيت طريحة الفراش مع حرارة عالية. كنا في حينه نرد ذلك إلى أنها ضعيفة الصحة لكنني الآن أعرف أن كل ذلك كان يعود إلى ما صرت أعرفه وما يسمى «الساكوسوماتيك» أو تأثير النفسي على الجسدي. وهي حتى الآن سريعة العطب وكل انفعالاتها تجد منفذها في جسدها. ربما كان ذلك وراثياً إذ إن والدتي هي أيضاً عانت من إهمال أمها لها، لكنها لم تدرك أنها مارست علينا ما مورس عليها وهي في بيت أهلها. هل اختارت أن تنحاز لي أنا البكر بين البنات لأنها هي التي كانت البكر، أُهملت؟ هل ثأرت لذاتها من أمها وأختها المدلّلة بسوء معاملتها لابنتها الصغرى؟ الأمور معقّدة جداً لكن النتائج واضحة.

ـ الأمور ليست معقدة وهي كما وصفتها تماماً، ثأرت والدتك من والدتها بواسطتك، وشقيقتك هي التي دفعت الثّمن. لكني هنا لا أحاكم والدتك لأن سلوكها لم يكن ناتجاً من وعي تام بالأمور. أجبت هبى لأنني اقتنعت بتحليلها للأمور.

ـ لكنها كانت ولا زالت ذكية جداً وتلتقط الأمور «ع الطاير» كما يقال. أجابتني هبى.

ـ المعرفي شيء والسلوكي شيء آخر. أجبتها.

ـ أعرف ذلك، لكن دعيني أكمل هذا الغوص في الماضي.

ـ تابعي، قلت لها، فبعد هذا البوح ستنامين بهدوء وستتخفّفين من المرض.

ـ صحيح أن والدتي كانت تهتم بكل ما يتعلق بي من حيث المظهر، لكنّني لم ألمس يوماً قربها مني وشعوري نحوها كان الخوف منها ومن طباعها الشرسة. لا أذكر أنها اقتربت مني يوماً لتتلمّس وجهي أو تحتضنني، حتى الآن لا أعرف ملمس جلدها ولا طعم وحرارة قبلاتها. لم أنعم يوماً بضمة منها كما أرى الأمهات يفعلن مع أطفالهن. تقول إنها أرضعتني من ثدييها لمدة سنتين وهي مرحلة لا أذكرها لكن باستطاعتي تخيّلها انطلاقاً من سلوك والدتي معنا طيلة نشأتنا ومن شخصيتها الراهنة، هذه الشخصية التي تبدو خالية من أية عاطفة إلا من تلك التي تحيط بشخصها إذ إنها تحب ذاتها وذاتها فقط وتحب فينا، نحن أولادها، ما تفخر به أمام الآخرين؛ فابنها البكر الذي كان باستمرار الأول في صفه هو موضع اعتزاز لا توفّر فرصة إلا وتتبجّح به أمام زوارها أو معارفها، ومع ذلك لم أرها يوماً تضمه إلى صدرها وتقبّله. ما هذا الجفاف العاطفي؟ هل هو حقيقي أم يخبئ دفئاً لم تُتح له فرصة الظهور؟

ـ هناك أشخاص لا يعبرون عن دواخلهم ويكونون دافئين جداً، ربما والدتك من هذا الصنف. أجبتها على تساؤلها.

ـ لكنني أرى جميع الأمهات يعبرن بحرارة عن مشاعرهن ويفتخرن بذلك بينما والدتي لا تظهر إلا القسوة فهل الأمر طبيعي؟

ـ ربما تعتقد والدتك أن إظهار العاطفة هو نوع من الضعف وتفضل أن تحتفظ بها في داخلها. أجبت هبى كي أخفف من اندفاعها في وصف قسوة والدتها.

ـ لكن الفرص كانت عديدة ولم ألحظ هذا الدفء الذي كنت أبحث عنه؛ كانت والدتي تتركنا أحياناً مع جدتي وترافق والدي إلى الضيعة حيث عمله؛ تتركنا لمدة أسبوعين أحياناً كنا خلالهما ننعم برفقة جدتي أو جدة والدتي التي كانت تحبنا كثيراً وتظهر لنا هذا الحب. كنت، أنا شخصياً لا أكترث لغيابها بينما كنت أشتاق إلى والدي الذي وإن لم يكن متدفّق المشاعر إلا أنني كنت أحدس بدفئه وحنانه من خلال ضمه لي واعتصاري ولو للحظة، بينما كانت والدتي تطبع على وجنتي قبلة باردة وكأنها تقوم بواجب فقط. هل أظلمها إن عبّرت بصدق عما كنت أشعر به ويعكّر كل حياتي؟ نعم كان يعكّر كل حياتي لأنني كنت بحاجة إلى حضن إلى أم تقف إلى جانبي في مراحل نموّي وبلوغي، ذلك البلوغ الذي سقط خبره عليها كالصاعقة وقد عبّرت حينها عن استيائها بالقول: «ليش هالقد بكير». وكنت يومها في الثالثة عشرة من عمري وكنت قد علمت منها بطريقة غير مباشرة أنها حاضت وهي في الثانية عشرة. ردّ الفعل ذاك من قبلها أوجد عندي كرهاً لأنوثتي التي دفعتني إلى اعتبارها عاراً وليس نمواً طبيعياً تفخر به كل أنثى. كل ما فعلتْه في ذلك اليوم هو أنها دلّتني على الفوط الصحية وعلّمتني طريقة غسلها وضرورة غليها كي تتطهّر. فعلتْ ذلك والاشمئزاز بادٍ على وجهها وأنا كنت أشعر كأنني مذنب عليه التكفير عن أخطائه، فتبعت تعليماتها بصمت. لكن ذلك لم يمرّ من دون أثر إذ إن جسدي تمنّع عن القيام بدوره لمدة سنة كاملة بعدما كان قد بدأ بالتفتح.

ولم تعد الأمور إلى مسارها الطبيعي إلا بعدما شرح لي والدي أوالية جسد الإنسى ومجموعة الهورمونات التي تتحكم به والتي لها الدور الأساس في عملية الحمل والإنجاب. استتبّ الأمر وباتت العادة الشهرية تزورني في موعدها، لكنني كنت في أغلب الأحيان أخفي ذلك عن والدتي التي كرّرت رد الفعل إياه مع شقيقتي حين بلغت.

ـ يعني أنها ساوت بينكما بالنسبة لهذا الموضوع. قلت لها ممازحة.

ـ صحيح وللأمر دلالة وهي أنها كانت ترفض أنوثتها ربما، ولهذا السبب رفضتها فينا. ما رأيك؟ سألتني هبى.

ـ هي لم ترفضها عندكما ولم ترفض أنوثتها، لكن ربما لم تجد إشباعاً لهذه الأنوثة في حياتها الجنسية وهذه هي حالة غالبية النساء في ذلك الزمن بينما اليوم الأمور تغيرت ووعت الإنسى، كما تسمينها، دورها ووعت حياتها الجنسية كما يجب و...

لم تتركني أتابع وسارعت إلى القول: «ولهذا السبب كثر الطلاق في أيامنا هذه».

ـ ربما، أجبتها، لكن فلنعد إلى والدتك، إلى مَ تردّين جفافها العاطفي كما تصفينه؟

ـ ما كنت ألاحظه على والدتي من جفاف عاطفي دفعني إلى طرح سؤال لم أجرؤ على التفوّه به. كنت أسائل نفسي، بعدما تزوجتُ وخبرت الحياة الجنسية، كيف كانت والدتي تمارس

الحب مع والدي؟ هل كانت رومنسية؟ هل كانت تغمره بين ذراعيها؟ هل كانت تتمتّع معه؟ هل وألف هل. لم أطرح عليها السؤال يوماً، كنت أحاول أن أتخيّلها في هذه الحالة وكنت أتوقّع أنها كانت تحثّ والدي على الإسراع من دون أن تحاول التمتع، وخيالي هذا لم يكن مخطئاً إذ سمعتها مرّة تتحدّث في الموضوع مع إحدى صديقاتها حيث اتفقتا في نهاية الحديث على أن الإنسى ليست سوى «مشخخة» للرجل، فهو يستعملها ليقذف ما عنده ويرتاح بينما هي لا تشعر بشيء. وانتهيتا إلى القول: «شي بقرّف».

ـ الأمر واضح إذاً، فالحياة الجنسية مع الشريك تحدّد كل مسالك الحياة الأخرى. أجبت هبى وكأنني أسألها رأيها. وأجابتني:

ـ وهذا ما دفعني إلى التساؤل هل موقف والدتي هذا من العملية الجنسية كان السبب وراء عدم تهيئتي له ليلة زفافي؟ لم تقل لي كلمة واحدة حول الموضوع ولم تهيئني لمقاربته أنا التي لم تكن تعرف شيئاً عنه، تركتني لتيهي ولارتباكي الذي لم يخرجني منه إلا صديقة أخي التي تكبرني بسبع سنوات والتي تكرّمت وشرحت لي الأمر بوضوح يوم زفافي حين كنت أعدّ نفسي لمغادرة بيت أهلي. علمت وقتها كيف تحصل العملية الجنسية وكيف ينتصب العضو الذكري وكيف علي تحمل الألم في الولوج الأول حيث يمزّق ما يسمونه غشاء البكارة. «قد لا يكون الأمر ممتعاً في البداية، لكنك ستشعرين باللذة في ما بعد. كل الموضوع يتعلق بالزوج وبطريقته في المعاملة». قالت لي تلك الصديقة وتابعت «عليك أن تكوني صبورة وتمنحيه الوقت اللازم لدوزنة العملية».

توقفت هبى من جديد قبل أن تتابع فتقول:

«من المؤكد أن جدتي لم تهيئ ابنتها ولم تحظَ والدتي بمن يرشدها إلى ما هي قادمة عليه في الزواج، لقد تزوّجت كما تزوجت كل النساء من جيلها وهنّ يعتقدن أن الزواج والعملية الجنسية بالتحديد ليس لهما إلا دور واحد وهو الإنجاب. أما المتعة فكانت حتماً خارج قاموسهن وهذا ما حاولت والدتي أن تورثه لنا. أنا هنا لا ألومها، لكني آسف لها فقط إن كانت قد أمضت عمرها وهي ترى أن الإنسى ليست سوى «مشخخة» للرجل وأن ليس للمتعة الجنسية من مكان في حياتها.

صمتت هبى وغرقت في ذاتها، لكني تابعت الأسئلة، فلم تجبني مباشرة بل تابعت حين خرجت من شرودها:

«هل كانت تمارس العادة السرية للتعويض عن حرمانها من التمتّع باللذة الجنسية مع زوجها؟ لا أعتقد. كيف إذاً كانت تصرّف تلك الطاقة غير المشبعة؟ ما كنت ألاحظه هو أنها كانت نشيطة جداً في كل ما يتعلّق بالأعمال المنزلية، وطبخها كان، وبشهادة الجميع، من أطيب ما تصنعه يد إنسى، وهي كانت تهتم به بشكل مهووس إذ إنها لم تمرّر يوماً واحداً من دون أن تطهو طبقاً جديداً تبدأ بتحضيره باكراً كل يوم وهي تصدر الأوامر للخادمة أو للخادم بكل استعلاء وتكبّر، وهي كانت تفضّل استخدام الذكور في بيتها، وقد علمت لاحقاً أنها لا تتحمّل الأنثى لأنها تحيض كل شهر وهو أمر يقرفها، ولهذا السبب كانت تختار من الخدم إما الصبيان وإما الإناث ما دون العاشرة من أعمارهن.

«كانت تنهي واجباتها الصباحية بكل ديناميكية لتكملها بعد الظهر بالتفنّن في صنع الحلوى التي لم يخلُ منها يوماً بيتنا؛ كل يوم تبتكر صنفاً وتفتخر بإنجازاتها أمام جاراتها اللواتي كن يستمتعن بتذوق ما تقدّمه لهن وهنّ يحاولن التعلّم من والدتي التي كانت تتمتّع بتلقينهن طريقة تحضير الحلوى وهي تعدّد العناصر المكونة لكل منها. كانت تمارس نوعاً من الأستذة عليهن؛ هل كان ذلك يشبعها ويطفئ شعلتها الجنسية أم كانت تقوم بكل ذلك لتعوّض بالطعام عن حرمانها وهي بالفعل، كانت شرهة تختار الأفضل من كل طبقٍ لها، وهذه الشراهة كانت ظاهرة على بدانتها التي فاقت المعدل بكثير في مرحلة من حياتها قبل أن تصاب بداء السكري وتضطر إلى اتباع حمية محدّدة.

«هل كانت تصرف طاقتها أيضاً في القراءة التي كانت تستمتع بها وتمضي كل أوقات فراغها في ممارستها؟ لقد قرأتْ الكثير وتعلمتُ منها الكثير وتعرّفتُ من خلالها على كل روايات جرجي زيدان وألف ليلة وليلة و... إذ كانت تروي لنا في سهرات فصل الشتاء كل ما تقرأه. كانت راوية جيّدة تتقن إبراز كل التفاصيل وكنا نحن ننتظرها كل ليلة وكأننا نتابع مسلسلاً كما بتنا نفعل مع ظهور التلفزيون الذي لم يكن موجوداً بعد في مرحلة طفولتنا.

«هل كل ذلك عوّضها عما كانت بحاجة إليه؟ اليوم أقول: لا لم يعوّضها لأنها، وكما أذكر، كانت دائمة العصبية وطباعها شرسة وتغضب لأدنى سبب، مما كان يدفعنا إلى مداراتها والابتعاد قدر الممكن عن صولات غضبها الذي كان ينفجر بالسّباب ولعن أبينا وأحياناً برشقنا بحذائها الذي كنا نتحايل لتجنب أذاه. و سرعان

ما كانت تهدأ لكن هدوءها كان دائماً مقلقاً بالنسبة لنا لأننا كنا نتوقع دائماً ثورة ثانية. هدوؤها كان متوتراً كأنها في حالة قلق دائم. لهذه الأسباب كنا ننعم بالاسترخاء حين كانت ترافق والدي إلى الضيعة وتحلّ محلها جدتها أو جدتي.

ـ ما كان شعورك نحوها وأنت تلاحظين بعدها العاطفي عنكم؟ سألتُ هبى.

ـ أتساءل اليوم هل كنت أحبها أم أهابها؟ أجابتني وتابعت: بالتأكيد كنت أهابها وأتجنب كل ما يغضبها لكن هل أحببتها أنا التي كانت تُظهر محاباتها لي واهتمامها بكل ما يتعلق بي؟ للحقيقة أنا في حيرة من أمري إذ إنني لا أجرؤ على القول بكل وضوح إنني لم أحبها، لكنني أستطيع التصريح بأنها لم تكن يوماً ملاذي ولم ألجأ إليها ولو مرة واحدة لتحلّ مشكلاً عانيت منه، لكن بكل تأكيد كنت مطيعة لها على عكس شقيقتي التي كانت تشاكسها مما أوجد بينهما نوعاً من الحلقة المفرغة؛ ابتعاد والدتي عنها يسبّب عنادها ومشاكستها وبدورهما يؤديان إلى إظهار الكره وعدم الاهتمام بشقيقتي من قبل والدتي التي كانت تبرّر سلوكها هذا بأنني مطيعة ولا أرفض لها طلباً بينما شقيقتي لا تسمع الكلمة. تبرّر ذلك من دون أن تدري مدى الحقد الذي كانت تساهم في خلقه عند هذا الكائن الصغير الذي لم يفهم يوماً لماذا عليه مثلاً أن يرتدي ثيابي العتيقة بينما كنت أنا أتمتع بكل جديد وجميل.

«لكن عدم اكتراث والدتي بشقيقتي حمّلني مشقات عديدة إذ أصرّت والدتي على أن تعلّمني كل أنواع الطبخ وصنع الحلوى وأنا لا أزال طفلة. كانت تريدني صورة عنها وتعاملني كأنني

نسخة عنها أو هكذا يجب أن أكون. حبّها لي كان محاولة قولبتي على صورتها ومثالها. كنت أكره هذه الصورة وفي الوقت نفسه أعجز عن معاندتها لأنها كانت تؤمّن لي كل الامتيازات التي كانت والدتي تبرّرها، حين تُسأل، بأن كل شيء يكون بأوانه وأن دور شقيقتي سيأتي لاحقاً. هل أتى هذا الدور؟ وهل كانت والدتي تحبني فعلاً؟

ـ وهل هذا مجال للتساؤل؟ هي، بالتأكيد تحبك ولو لم تظهر هذا الحب. قلت لهبى التي تابعت:

ـ أنت على حق لأنني لا أنسى حتى الآن الشراسة التي كانت والدتي تظهرها في الدفاع عني؛ فحين صفعتني تلك المعلمة وجرحت بياض إحدى عيني، جنّ جنون والدتي التي ما أن رأت عيني بعد عودتي من المدرسة حتى ارتدت ثيابها وهي في حالة هياج لا يستكين، أخذتني من يدي وتوجّهنا نحو المدرسة لمواجهة الأخت الرئيسة.

ـ أريدها الآن أمامي. قالت والدتي.

تجاهلت الرئيسة الموضوع، وأقول تجاهلت لأنها كانت على علم بما حدث لأن كل المدرسة ضجّت بالخبر قبل أن أعود إلى البيت. تجاهلت الأمر إذاً وقالت لوالدتي:

ـ من تريدين وما الأمر؟

ـ المعلمة شفيقة التي ضربت ابنتي، أحضريها الآن وسأصفعها بالطريقة إياها التي صفعت بها ابنتي ولن أكتفي بخدش عينها لا بل سأقتلعها.

«حاولت الرئيسة تهدئة والدتي التي أصرت على موقفها قائلة:

ـ لن أترك المدرسة قبل أن ألقن هذه الأستاذة الهمجية درساً لن تنساه طوال حياتها.

«أمام هذا الإصرار ما كان أمام الرئيسة سوى الكذب إذ قالت:

ـ لكن المدرسة شفيقة غادرت المدرسة.

ـ لا بل هي هنا، أجابت والدتي، وأنا أعلم أنها تسكن هنا ولا تغادر إلا في نهاية الأسبوع.

ـ صحيح، لكنها شعرت بوعكة صحية وفضّلت الذهاب إلى بيتها.

ـ لكنها ستعود ويوم عودتها سأكون هنا لأعلّمها كيف تجرّأت ومدّت يدها على ابنتي.

«خجلت من موقف والدتي الهادر المتفلّت من أي لياقة واعتبار وتمنّيت لو أنني لم أرافقها وسررت حين كذبت الرئيسة إذ إنها بفعلتها تلك ساهمت في نجاة المدرّسة من صفعة أكيدة ونجّتني من الارتباك والخجل. وعدنا إلى البيت ووالدتي لم تهدأ بعد، إذ تحوّلت إلي وبدأت بتأنيبي وبلومي كيف أسمح لهذه البقرة بأن تصفعني. لم أجبها لكنني كنت مسرورة بما آلت إليه الأمور واعدة نفسي أن والدتي، وكعادتها، ستهدأ وسيتلاشى غضبها وستنسى الموضوع بعد عدّة أيام. لكنها لم تهدأ وبعد وصولنا إلى البيت اتصلت بوالدي وطلبت منه الحضور فوراً، وحين أقفلت الخط قالت: «إن كانوا يعتقدون أن الأمر سيمرّ هكذا فهم

مخطئون، سأطلب من والدك أن يرفع دعوى على هذه «التيسة» وأحرّم عليها التدريس كل حياتها. «بعد ذلك اتصلت بالرئيسة وحذّرتها: «إن لم أصفع تلك «الست شفيقة» كما صفعتْ ابنتي، فنحن بصدد رفع دعوى عليها وعلى المدرسة، وأترك لك الخيار».

«صباح اليوم التالي لم أذهب إلى المدرسة، وسرعان ما وصل والدي ليستوضح سبب طلب والدتي له بالمجيء، وحين علم وعاين عيني ووجد أنها بخير وأن جرحها سيزول بسرعة من دون أن يترك أثراً، حاول تهدئة والدتي ولامها على تصرفها مع الرئيسة، لكنّها صاحت به: «أنت كل عمرك ما بتحب المشاكل، لكن هذه المرة لن أتزحزح عن موقفي».

ـ كما تريدين، والأجدى هو أن نرفع دعوى على المعلّمة وليس على المدرسة، وسأهتم بالأمر من دون صخب وضجة وهكذا نحصّل حقوقنا من دون فضائح لأنك لو صفعت المدرّسة لكان الأمر ارتدّ ضدنا. أجابها والدي بكل هدوء.

ـ لن تنجو من صفعتي إن تقاعستَ في الإسراع في رفع الدعوى. صرخت بوجهه.

ـ سأباشر اليوم بالذات. قال والدي لينهي الموضوع.

«لكن ما أن انتهيا من الشجار حتى قرع جرس الباب ودخلت علينا الرئيسة ترافقها راهبتان.

ـ هل هبى تشكو من شيء ولماذا لم تأت إلى المدرسة؟ سألت الرئيسة.

ـ وتسألين إن كانت تشكو من شيء بعد الذي حصل؟ أجابت والدتي.

ـ ونحن هنا لنعتذر ونقول لكم إننا مستعدون لكل ما تطلبونه.

ـ سنرفع دعوى على المدرِّسة كي تنال جزاءها. قال والدي بكل هدوء.

«حاولت الرئيسة أن تقنع والدي بالإقلاع عن رفع الدعوى مبرّرة أن سمعة المدرسة مقحمة في الأمر وتابعت: «إن كان يرضيك أن أبعد الأستاذة نهائياً وأشرّد الصف، فأنا مستعدّة لذلك، لكن المسؤولية كبيرة ومن الصعب تأمين مدرّسة بدلاً عنها في هذا الظرف ونحن قد بتنا في منتصف السنة».

«كان والدي عاقلاً ومتفهماً، وبعدما استمع إلى أقوال الرئيسة، أطرق قليلاً ثم قال:

ـ أقلع عن رفع الدعوى شرط أن تزورنا المعلمة وتعتذر من ابنتي.

ـ كما تريد، أجابت الرئيسة بسرعة، سآتي بها اليوم بالذات. قالت ذلك وهمّت بالنهوض، لكن والدتي تدخّلت وقالت:

ـ أقبل باعتذار المعلمة، شرط أن يكون في الصف وأمام كل التلامذة، لأن هبى أهينت أمامهم.

«صمتت الرئيسة لبرهة ثم قالت:

ـ الشرط صعب لأن المدرّسة ستفقد هيبتها أمام التلاميذ وقد يصعب عليها الإمساك بالصف لاحقاً.

«تدخّل والدي وحسم الأمر: «أوافق الرئيسة الرأي، واعتذارها هنا في البيت يكفي».

«غادرت الرئيسة مع مرافقتيها بسرعة كي لا تفاجأ بشرط جديد من والدتي التي ما أن أصبحن خارج البيت حتى تحوّلت إلى والدي وبدأت تؤنّبه على قبوله بما لا يشفي غليلها. لكن الأمور سويت كما أراد والدي وعادت المياه إلى مجاريها بعدما زارتنا المدرسة شفيقة التي بادرت إلى القول:

ـ أنا أحب هبى جداً ولست أدري ما الذي أصابني حتى قمت بذلك العمل الذي أندم عليه من كل قلبي.

«انتهى الموضوع هنا وبت صديقة مقرّبة جداً من المعلمة شفيقة وقد صحّ قول المثل الشائع: «ما إلك صاحب إلا بعد قتلة». قالت هبى خاتمة تلك القصة. لكن سرعان ما استأنفت تساؤلها:

«هل كان دفاع والدتي عني هو دليل حبها المفرط لي؟ هل كانت تدافع عن صورتها أم عني أنا؟ حتى الآن لا أتمكّن من الحسم لأنها في حادثة ثانية كانت مستعدّة لارتكاب جريمة دفاعاً عني؛ يومها أصبت بطلقة رصاص من مسدّس أحد رجال الأمن الذين كانوا مقيمين في الطابق السفلي من بيتنا في الضيعة. حصل شجار بينهم وبين أحد المطلوبين من العدالة وارتفعت الأصوات وخرجنا، نحن الأولاد، إلى السطح لنرى ماذا يحصل تحتنا. وما هي إلا دقائق حتى فرّ المطلوب من بين أيدي رجال الأمن وتوجّه نحو السوق، فما كان من أحد رجال الأمن إلا أن أطلق النار في الهواء حتى يفرّق المتجمعين. شعرتُ بأن شيئاً هزّ رأسي فوضعت يدي على جبهتي وتوجّهت إلى داخل البيت من دون أن أدري ما

الذي حصل بالفعل. لكن ما أن أصبحت في الداخل حتى رأيت الدم يتساقط من بين أصابعي الضاغطة على جبهتي وسمعت صراخ والدتي تقول: «سأقتله ابن الكلب». أدخلوني بسرعة إلى عيادة والدي الذي اهتم بمعاينة الجرح وأخبروني لاحقاً بعدما عدت من مستشفى زحلة أن والدتي ركضت إلى الخزانة وأخرجت منها المسدس وتوجهت نحو المخفر لقتل مطلق النار ولم يتمكّن أكثر من خمسة رجال من ثنيها عما هي عازمة على القيام به وبجهد كبير استطاعوا أن يأخذوا المسدس من يدها. وأمام إصرارهم على منعها من ارتكاب جريمة القتل، توجّهت إلى السطح ورفعت حجراً كبيراً جداً وهي تركض نحو الحافة لترميه على رأس مطلق النار. وهنا أيضاً تدخّل الرجال ومن بينهم والدي كي يطمئنها أن الإصابة خارجية وليس من خطر على حياتي. فركبت معنا السيارة التي أقلتني إلى المستشفى وهي تردّد: «إن أصابها مكروه فسأقتله لا محالة حتى ولو اضطررت لإمضاء كل حياتي في السجن، لن أترك هذا الوغد ينعم بحياته إن ماتت ابنتي». وكنت أسمع والدي يطمئنها: «هبى بخير وكل ما سينتج عن ذلك هو آثار ذلك الجرح في جبهتها».

ـ يعني ستشوه، صاحت به، وتقولها بكل بساطة.

ـ اشكري ربك أن الرصاصة لم تدخل رأسها، لو دخلته لكانت عطبتها نهائياً حتى ولو نجت من الموت. ألا نحمد الرب على رعايته ولا نتحمّل تشويهاً بسيطاً؟ أجابها والدي.

ـ اطلب من الطبيب الجراح أن يعتني جداً بالجرح، لن أتحمل أن أرى جبهة هبى مشوهة، سيشمت بي كل الناس. قالت لوالدي الذي كان يقود السيارة وهي إلى جانبه.

ـ لا يهمنا الآن إلا شماتة الناس؟ هبى ستظل جميلة وربما أعطاها هذا التشويه البسيط علامة فارقة تميزها. قال والدي كي يسكتها.

ـ وماذا سنفعل بمطلق النار؟ سألته والدتي.

ـ نطمئن الآن على صحة ابنتنا ثم ننظر في الأمر. أجابها والدي بكل هدوء.

«عدنا من مدينة زحلة إلى الضيعة حيث استقبلنا كل السكان، وكانت النساء بينهم يستفسرن عن تأثير الجرح على جبهتي ووالدتي تطمئنهن أن الطبيب الجراح قد أجرى لي عملية تجميلية و: «إن شاء الله لن يبقى أي أثر للجرح».

«لكن الأثر بقي وقد رافقني طوال حياتي وهو في أعلى جبهتي ولم أحاول يوماً واحداً تغطيته بغرة وما يشابه ذلك في تسريحات الشعر. قالت هبى ذلك وهي تشير إلى أعلى جبهتها حيث ما زالت آثار الإصابة ظاهرة.

ـ ألا يكفيك أن والدتك كانت مستعدة لارتكاب جريمة قتل من أجلك كي تسكت تساؤلاتك حول حقيقة حبها لك؟ سألتُ هبى بعد ما سمعته منها حول سلوك والدتها. وأجابتني كأنها تخاطب نفسها:

«هل كانت فعلاً تحبني ولا تعلم كيف تمارس هذه العاطفة؟ كنت دائماً أتوق إلى أن تحتضنني أن أمرغ وجهي على صدرها، أن آخذ يدها بين يدي وأشعر بحرارتها، أن أعود إليها في مشكلاتي الصغيرة أو الكبيرة وألقى تفهماً من قبلها، أن أشاركها

أفكاري ورغباتي ومشاعري، أن أكون طبيعية معها وأن أحبها عوض أن أخاف ردود فعلها المنفعلة والقاسية دائماً، أن أقاسمها نظرتي إلى الحياة والتجرؤ على القول لها إنني أود أن أتابع دراستي قبل الزواج. لكنها كانت دائماً تنهرني وتقول: «هل تريدين أن تعنسي؟ إذا تجاوزت الواحدة الثامنة عشرة ولم تتزوج فإنها ستبور».

ـ أتفهم ما ترغبين به لكن ربما كانت والدتك تعتبر السلوك الذي تتمنينه هو دليل ضعف وهي ترفض أن تكون ضعيفة، لكن هذا لا يعني أنها لا تحبك كما تتمنين تماماً. وإن كانت تريد أن تزوجك باكراً فهذا ما كان متعارفاً على صحته في ذلك الزمن أي قبل أكثر من أربعين عاماً. قلت لهبى كي أخرجها من حيرتها حول موضوع حب والدتها لها. فأجابتني بعد صمت قصير:

ـ بالفعل، ووفقاً لما كان سائداً، لقد خُطبت وأنا في السادسة عشرة من عمري وتزوجت في الثامنة عشرة. كانت والدتي فخورة بذلك الإنجاز وبخاصة أنها حظيت بصهر عليه القدر والقيمة بنظرها ونظر من يحيط بنا. وفي هذا المجال أظهرت كل مهاراتها في تدبير الأمور بحيث إنها لم توفّر شيئاً في سبيل تحضير أفضل وأكمل جهاز عروس وقد جعلت مني أجمل العرائس يوم زفافي بذلك الفستان الذي أمضت الليالي وهي تطرّز ذيله الممتدّ إلى أمتار ورائي. كانت فخورة بأن ابنتها تزوّجت قبل كل رفيقاتها، وكأن الموضوع يعزّز كبرياءها ويؤكد ما كانت مصرّة على تأكيده وهو أنني الأجمل بينهن. والآن حين أنظر إلى صور عرسي ألاحظ الفرق في التعبير بينها وبين والدي؛ ففي الصورة التذكارية التي جمعت بيني وبين والديّ يلاحظ المشاهد

ترقرق الدموع في عيني والدي بينما لا يستطيع أن يغفل النظرة الشامخة في عيني والدتي وكأنها تتباهى وتقول إن: «كل ذلك من إنجازي أنا وأنا فخورة به لأنه الأفخم والأبهى».

توقفت هبى عن الكلام كأنها تستعيد صوراً من الماضي، ثم تابعت خلاف ما كنت أتوقع سماعه، إذ قالت:

ـ هذا الاهتمام بزواجي لم تظهره والدتي في زواج أختي؛ فما أن وافقتْ شقيقتي على ابن العم جورج حتى أزاحت والدتي الهمّ عن كاهلها ورمته بكامله على كاهل جورج الذي من شدّة فرحته بقبول أختي بابنه، كان يقول دائماً لها: «أنت تستطيعين طلب لبن العصفور وأنا جاهز لتوفيره لك». وأمام هذا الموقف من قبل العم جورج تكاسلت والدتي في موضوع تجهيز ابنتها ولم تكترث به إلا بحدوده الضيّقة التي تحفظ ماء الوجه. وكانت أختي هي التي تجهّز نفسها ولا تخفي غضبها من والدتي التي لم ترعَها كما رعتني ولم تكترث لأمورها كما انشغلت في تدبير أموري.

تزوّجت أختي وأقيم لها الحفل اللائق لكنها حتى الآن لا زالت تتذكّر إهمال والدتي لها، وأحياناً كثيرة تذكّرها به ووالدتي تردّ ذلك إلى أسباب غير مقنعة بالنسبة لشقيقتي. واستمرت على برودة في علاقتها مع صهرها الثاني على عكس علاقتها بزوجي الذي كانت ترعاه وتقدّم له كل ما تقدمه لأولادها، وهو كان لائقاً جداً معها والتفاهم بينهما كان تاماً على خلاف ما بينها وبين زوج أختي التي لم تبدِ له المودة نفسها مما أبعد أختي عن جو بيت العائلة في الفترة الأولى بينما كنت أنا شبه مقيمة مع عائلتي الأولى بسبب مهمات زوجي في المناطق البعيدة.

«رحلنا عن بيت أهلنا للأسباب نفسها، فكلانا، شقيقتي وأنا تركنا البيت هرباً من الجو الذي كنا نرى أنه قامع لحريتنا، هربنا توقاً لتحقيق الذات بمحض إرادتنا من دون حسيب أو رقيب يملي علينا تحركاتنا واختياراتنا، هربنا من سطوة والدة لا ترى في الدنيا إلا ذاتها ولا تؤمن بصوابية رأي غير رأيها. قد يقال إن لشقيقتي الحق في تبني هذا المنطق الذي لا ينطبق عليّ أنا، لكنني أسرع إلى القول إنه ينطبق علي أكثر؛ فأختي قد تمكّنت من ممارسة تمنعها بلجوئها إلى العناد والمشاكسة ولو أنها كانت تعاقب عليهما، بينما كنت أنا منكسرة الإرادة بسبب سلوك والدتي المنحاز والذي حرمني من الشكوى التي كانت ستبدو غير مبرّرة بينما كنت أتألّم إذ أشعر بحتمية الانصياع لمشيئتها المستبدّة. ميّزتني عن أختي لكنها لم تتساءل يوماً عما أريده أنا، بل كان همّها الوحيد أن تحقّق بواسطتي ما يحلو لها وما تراه صواباً من دون أي احترام لهذا الكائن الذي لا أدري إن كانت تتلمّس أسباب ألمه وانكماشه على نفسه. بالفعل لم تكن تتلمّس ألمي بل كانت تفاخر بأنني طيعة المراس ولست مشاكسة كحال أختي، تفاخر وتمعن في محاولة محو شخصيتي التي كانت تنتظر الظرف المناسب للتفتح.

ـ أفهم من ذلك أن الدافع من زواجكما هو الهروب من سطوة معيّنة للتوصّل إلى نوع من التحرّر، فأين تموضعين الحب الذي هو أساس الزواج، في سلوك كهذا؟ سألت هبى التي لم تتردّد في إجابتي:

ـ لقد أحببت زوجي قبل الزواج، لا أنكر ذلك، لكنه كان الرجل الوحيد الذي سُمح لي بمعاشرته، وكان شاباً وسيماً وذا مركزٍ

مرموق بمقاييس تلك المرحلة. والأهم من ذلك أنه حاول أن يُشعرني بأنني صاحبة القرار بكل ما يتعلّق بأمور التحضيرات للزواج وفرش البيت وغيرهما، مما عزّز ثقتي بنفسي ودفعني إلى التعلّق به أكثر وبخاصة أن كل من أحاط بنا كان يمتدح ذلك الشاب الواعد. ولكي أكون صريحة أكثر سأقول لك إننا، شقيقتي وأنا هربنا من تسلّط واستبداد والدتي لكنّنا رسمنا دربين مختلفتين وإن تقاطعتا أحياناً؛ ومنذ بداية الدرب حاولت أن أحقّق ما حرمت منه وهو أن أكون وأن أمارس ذاتي من دون أن يخطّط لي الآخرون ما علي فعله. وكانت أول خطوة قمت بها بعد الزواج أن التحقت بالجامعة كي أتابع تكوين نفسي التي شعرت بأنها غير مكتملة. لم أتردّد كثيراً في اختيار الاختصاص، كان شبه محتّم لدي أن أختار علم النفس وقد بدأت بالتوجه نحوه من خلال ما تعلّمته منه في صف الفلسفة، إذ حفّزني على متابعة سبر أغوار النفس البشرية وكل أمراضها وانفعالاتها والأسباب الكامنة وراء سلوكاتها. اخترت هذه الدرب، ربما للتعرّف إلى شخصيتي أكثر والأهم أن أتوصّل إلى إدراك الدهاليز اللاواعية التي تتحكّم بنا وبكل ما نقوم به علّني أحل مشكلة علاقتي بوالدتي وأساعدها على الخروج من شخصيتها المستعلية التي تبعد الآخرين عنها. لكن اختياري هذا لم يكن واعياً لدي كما هو الآن. توجهت إليه ببساطة كأنه قدر، كما أنني رفضت الإنجاب من دون أن أدرك تماماً ما هو السبب في رفضي هذا. حاولت في البداية أن أزيح الموضوع متحجّجة بمتابعة دراستي وبصغر سني، لكن الأمر استمر إذ كنت لا أرغب بالتوقف عن متابعة الدراسة وانتقلت بعد حيازتي على شهادة الدراسات العليا في علم النفس، إلى التخصّص في الفلسفة التي وجدت فيها متمّماً ضرورياً لعلم النفس. اكتشفت بعد الانتهاء من اختصاصي الأول أن لا بد من

الخوض في المسائل الكبرى تلك التي تعالج قضية الوجود والكون والله و... وتغنينا بتحليل المفاهيم الكبرى كالعدالة والخير و... وصولاً إلى الحرية التي كانت همي الأساسي. وهكذا مرّت السنون من دون أن أنجب ومن دون أن أسائل نفسي عن الموضوع، إلى أن تمّ الطلاق وتحرّرت نهائياً حتى من طرح السؤال على نفسي وتحرّرت من طرحه من قبل الآخرين، مع العلم أنني لم أفكر بالإنجاب إلا بعد الطلاق كأنني كنت أودّ أن أنجب من خلال مفهوم الحرية وليس من مفهوم الارتباط. كنت أودّ أن ألد طفلاً يحمل اسمي أنا وليس اسم أب لا دور له في تكوينه إلا إشباع لذة عابرة. لكن هذا التحدي للمفاهيم السائدة لم أنفّذه، ليس تهيباً منه في مجتمع كمجتمعاتنا الشرقية بل لأنني لم أرغب حقيقة في أن يكون لي ولد.

ـ تركتك تسهبين في شرح الموضوع، لكن لدي سؤال سأطرحه عليك بكل وضوح؛ هل حلّلت يوماً لماذا رفضتِ الإنجاب؟ سألت هبى التي أجابتني بعد تردّد:

ـ في البداية لم أفكّر بالموضوع ولم أهتم به ومرّت الأيام من دون أن أحمل. لكن في ما بعد فكّرت بالأمر وبخاصة حين بدأت الأسئلة تنهال علي وعلى والدتي حول عدم حملي، فكّرت ووجدت أنني في داخلي أرفض الإنجاب ربما بسبب رفضي لصورة الأم التي اكتسبتها عن والدتي أو ربما بسبب أنني لو أصبحت أماً فسأكون عكس والدتي كلياً بحيث ألغي حياتي الخاصة من أجل ابني أو ابنتي وأكون، هكذا، قد انتهيت، وأنا أرفض أن أنتهي.

ـ ألا تعتقدين أن رغبتك بعدم الإنجاب تجعلك قريبة من والدتك

من حيث الأنانية التي تصمينها بها؟ سألتها كي تصرّح أكثر بما في دواخلها الغامضة.

ـ ليست أنانية تماماً بقدر ما هي تهرّب من المسؤولية التي كنت أشعر بأني لا أقدر على تحملها. أجابتني بكل بساطة.

ـ ألم تفكري يوماً بأنك رفضت الإنجاب لكي تظلّي ابنة والدتك وليست أماً مستقلة؟ ألم يكن قرارك هذا هروباً لاواعياً نحو والدتك التي ترفضين اللجوء إليها في وعيك؟

ـ هل تقصدين أن الضحية تحب الجلاد؟ سألتني وهي تضحك.

ـ افهميها كما تريدين، لكنني ميالة إلى هذا التحليل. أجبتها كي أستفزها.

لكنها لم تستفز وأجابت بكل هدوء.

ـ ربما كان تحليلك صائباً، وأذكر الآن أن والدتي لم تهتم للأمر ولم تسألني يوماً عن تمنّعي عن الإنجاب ولم يشغل بالها الموضوع بالشكل الذي يشغل بال كل الأمهات على بناتهن وخوفهن من أن يكنّ عاقرات. وما يستوقفني الآن أكثر ولم ألاحظه في حينه هو رفضها لطلاقي من زوجي حتى بعدما علمتْ أنه هو العاقر. كانت تريد لي أن أستمر معه لأنه طيّب وخلوق مع العلم أنني لم أطلب الطلاق بسبب عقره بل لأسباب أخرى. هل كانت بلامبالاتها تلك حيال عدم إنجابي البنين تهيئ بلاوعيها الدور اللاحق الذي تحدّده لي؟ هل كانت تود أن أبقى ابنتها وأستمر في كوني البنت لا الأم لتحولني أماً على هواها؟ هل كان هناك تواطؤ لاواعٍ من كلينا حول الموضوع؟

ـ ربما، على كل حال هذا ما وصلتما إليه. بينما اختارت شقيقتك توجهاً آخر. أجبتها. فتابعت:

ـ صحيح، فعلى النقيض ممّا قمت به أنا، تزوجت شقيقتي وسارعت إلى الإنجاب وبعد أكثر من سنة بقليل أتتنا بأول حفيد للعائلة وكان طفلاً رائعاً استحوذ على كل اهتمامنا. لكن بعد ذلك الإنجاز بفترة قليلة، اختارت طريق تكوين ذاتها، بمتابعة دراستها وقد فضّلت المجال الصحي: انتسبت إلى كلية التمريض وباتت تواظب على كل الدروس متّكلة على والدتها وعلينا في الاعتناء بطفلها الذي تعلقنا به وأصبحنا نحن من يحاول حرمانها منه في فترات فرصها الجامعية. لكن شقيقتي أنجبت ثانية وهي لا تزال في مرحلة الدراسة. الابنة الجديدة تربت هي الأخرى، مثل أخيها في بيت جدها. واللافت في كل ذلك أن والدتي أبدت اهتماماً ملحوظاً بالطفلين وخاصة بالبكر بينهما، وبات تعلقها بهما كبيراً. هل كانت تعوّض معهما إهمالها لأمهما وهي طفلة أم أنها كانت تزاحمها وتصادر منها دور الأمومة؟ أميل إلى الشق الثاني من السؤال إذ إنني أرى الآن أن تعلّق والدتي بحفيديها والذي فجّر عندها أمومة لم نحظَ بها نحن أولادها، كان ممارسة لدورها الذي لم تقم به حين كانت تشعر بالحرمان من المتعة الجنسية مع زوجها، أما في ما بعد فقد تراخى هذا الشعور بسبب التقدم في العمر وهذا التراخي مكّنها من العودة إلى السلوك السوي وغير المتوتر. لكن ومع ذلك كانت لا تدرك أنها تؤذي ابنتها، وطفليها وهي، بالفعل كانت عاجزة عن ذلك وكانت تتباهى بأن الطفلين يحبانها أكثر من أمهما، وأصيبت بانهيار عصبي حين بلغ الطفل البكر سنته التاسعة وخيّروه بين أن يبقى في مدرسة بيروت، حيث بيت جده، بعدما هُجّروا إلى العاصمة أو أن ينتقل إلى مدرسة في

المدينة حيث أهله وبالأخص أمه. اختار الصبي أمه ورحل معها، وانهارت الجدة. كانت تعتقد وتتمنى أن يختارها هي التي لا تزال حتى الآن تمنّنه بأنها تفانت في اهتمامها به.

ـ لقد طرحت مواضيع عديدة من المهم أن نتوقف عند بعضها؛ قلتِ إن أمومة والدتك تفجّرت مع أحفادها من ابنتها التي لم تحب كما يجب وعلّلتِ ذلك بفرضيتين أرى أنهما صحيحتان، لكن فعل «التمنين» الذي استعملته في النهاية قد نسف كل التحليل السابق ليعيد لوالدتك الصورة الأولى التي رسمتها لها.

ـ صحيح لم تعرف والدتي العطاء المجاني كما هو متعارف عليه في الأمومة، في ثقافتنا، ولهذا السبب أسميها والدتي وليست أمي.

ـ أليست الأم كائناً بشرياً مثل غيره من الكائنات المتنوعة؟ فلماذا تفترضين أنها كتلة عطاء فقط؟ سألتها.

ـ أفترض ذلك مما تلقيناه من كل تراثنا عن مفهوم الأمومة؛ فغالبية الذين كتبوا عن الأم قدسوها وأظهروا أنها تختلف عن الكائن البشري العادي الذي له سيئات كما له حسنات، فهي دائماً محاطة بهالة من الطهر وإفناء الذات و..... كل ما يدل على أنها مثال البذل والعطاء المجّانيين في سبيل أولادها. هذه الصورة التقليدية المرسّخة في وعينا كما في لاوعينا عن الأم هي التي دفعت بي إلى استهجان ما كانت عليه والدتي، ولهذا أصرّ على تسميتها،كما قلت لك، والدتي وليس أمي. وهذا ما حدا بنا، شقيقتي وأنا إلى أن نرفض صورة الأم التي تكوّنت في ذهنينا، لكن رفض كل واحدة منا أخذ مساراً محدّداً، والاتجاهان خاطئان بالنسبة للحالة السوية السائدة والتي تسمى طبيعية؛ اخترت أنا عدم

الإنجاب وتحرّرت من مهمة الأمومة، كي لا أقول رفضتها، واختارت شقيقتي دور الأمومة التي حاولت أن تمارسه بكل جوارحها إلى درجة أنها باتت جاهزة للتضحية بحياتها من أجل أولادها.

ـ وهو سلوك طبيعي إن صدق كلامك السابق عن إهمال أمها لها. أتى تعليقي السريع قبل أن تتابع هبى تحليلها:

ـ سلوك طبيعي، أوافقك الرأي، لكن شقيقتي تخطّت ما هو طبيعي وإن كان في الاتجاه نفسه؛ تفانت ولا تزال تتفانى في سبيل أولادها.

ـ كم أنجبت شقيقتك من الأولاد؟

ـ اكتفت شقيقتي بالولدين، وأعتقد أنها اكتفت بذلك كي لا يأتي أحد ويقاسمهما امتيازاتهما وبخاصة امتيازات ابنتها المدلّلة. كانت تريدها وحيدة من دون منافس كي تحقّق بواسطتها ما حرمت منه وهي تعاني في مرحلة طفولتها من سلوك أمها معها. لكنها رغبت، في ما بعد لو أنها أنجبت أختاً لابنتها وكان ذلك حين دهمتها تلك الأزمة الصحية وقد لازمتَها كل فترة مرضها في المستشفى ورافقتها إلى الولايات المتحدة و... لم يساندها أحد كما ساندتها في محنتها تلك وقد تحولنا إلى صديقتين حميمتين لا يستطيع أحد الفصل بينهما. في مرحلة مرضها ذاك وفي جلسة حميمة بيننا قالت لي بكل أسى: «لم أندم على شيء في حياتي كما ندمي على عدم إنجاب أخت لابنتي». كان كلامها هذا أبلغ من أي شكر كانت ستوجهه لي، فضممتها إلى صدري قائلة «أالله يطول عمرك وتبقين إلى جانبها وتعوضينها عن هذا الحرمان».

ـ وأعتقد أيضاً أن عدم رغبتها بأن يكون لابنتها أخت هو لتلافي الشعور بالغيرة التي كانت تعيشه حين كانت والدتك تميزك عنها.
قلت لهبى التي أجابتني:

ـ ممكن، لكن المهم أن كل واحدة منا اختارت طريقاً مختلفاً. خلاصة الكلام هي أن سلوك والدتي معنا ولّد لدينا مسارين مختلفين ولو استنبتا من جذور واحدة وهو رفض الصورة التي تكونت لدينا عن دور الأم والذي لم نجده عند والدتنا والتي مارسته من دون أن تعي خطورته.

ـ استمتعت بتحليلك ولهذا السبب لم أقاطعك ولم أتدخل، وإن رسمنا الآن صورة بيانية لتسلسل الأجيال ظهر لنا بوضوح الدور الذي يلعبه اللاوعي في سلوكنا وخياراتنا وكل حياتنا، وتظهر لنا كل الإسقاطات التي نقوم بها خلال حياتنا من دون أن نعي جيداً أسبابها وهي تعود كلها إلى مرحلة الطفولة، تلك المرحلة التي تطبع كل سلوكنا اللاحق والتي توجه خياراتنا وميولنا التي نجهد أنفسنا في محاولة البرهنة على صحتها حتى ولو لم نكن، في غالب الأحيان مقتنعين ذهنياً بها. أتى تعليقي على ما سمعته من هبى التي أجابتني:

ـ أتمنى لو أقدر على ذلك، لكني لا أتمكن من العودة بصور الذاكرة إلى أبعد من جدّتي لأن معالمها ترتجّ وتظهر غير واضحة قبل ذلك. لا أعلم ما كانت عليه علاقة جدتي بأمها، كل ما أعلمه هو أن والد جدتي هاجر مع ابنه إلى البرازيل وترك زوجته مع ابنتها وحدهما في لبنان، وأن جدي حين تزوج من جدتي سكن معها ومع أمها في بيتها، وقد لمّحت لي والدتي لمرة واحدة لم تكرّرها أن أباها كان قد أغرم بجدتها قبل أن يتزوج من

أمها. إذاً هناك نوع من صراع صامت كان بين الأم وابنتها دفع بهما إلى التباعد والجفاء. تزوجت الابنة من ذلك الشاب الذي أصبح جدي وأنجبا أول ولد الذي هو والدتي. هذه الطفلة استحوذت على كل محبة جدتها مع عدم اكتراث بها من قبل والدتها. هل أحبّت الجدة الطفلة الصغيرة لأنها ابنة الشاب الذي أحبها وأحبته قبل أن يتزوج من ابنتها والذي لم ترض به صهراً إلا لكي يظل بقربها؟ لا أستطيع الإجابة عن كل هذه الأسئلة، لكن كل ما أعلمه هو أن والدتي كانت حبيبة جدتها التي أرضعتها من ثديها، وللحادثة دلالة كبرى إن صدقت.

«أنجبت جدتي طفلها الثاني وبات للشيخ فواز وريثٌ.. وتمتّع ذلك الطفل بكل الدلال وتحوّل في ما بعد إلى أهم فرسان الضيعة وأكثرهم مهابة. أعتقد أن مجيء خالي بعد والدتي ساهم في إبعاد جدتي عن ابنتها لتكرّس كل اهتمامها لابنها مما دفع بوالدتي إلى اللجوء إلى حضن جدّتها الحاضر لضمها. أما ولادة الطفلة الثانية فقد حوّلت جدتي إلى الاعتناء بها بإفراط. المهم هو أن جدتي أهملت ابنتها البكر التي كانت حبيبة والدها ومارست كل غريزة الأمومة لديها مع ابنتها الصغرى مما ولّد حقداً عليها من قبل ابنتها البكر. وهذه الأخيرة التي هي والدتي عكست الآية وأهملت ابنتها الصغرى لتوجّه كل عاطفتها نحو ابنتها البكر التي هي أنا، فنتج عن ذلك كرهي لمفهوم الأمومة ورفض شقيقتي أن يكون لابنتها أخت. إلى أي مدى لعب الوعي دوراً في هذا المسار؟ بالتأكيد دوره ضئيل وضئيل جداً.

ـ أعترف بأنك على حق ولو حاولتُ التحليل لما أتيت بغير ما أتيت به. أما الآن فسأستودعك وأتركك ترتاحين علك تستيقظين

غداً بصحة جيدة. لكن قبل أن أغادر، ألم تلاحظي أنه مرّ أكثر من ساعتين والهاتف لم يرن؟

ضحكت صديقتي وقالت: «الحمد لله لقد أدركت بالنهاية أنني مريضة مع العلم أنها في مثل هذا الوقت تكون مشغولة بلعب الورق مع جارتها.

4

تركت صديقتي هبى وعدت إلى عالمي شاكرة ربي أن والدتي لا تتدخّل في أمري وأنها راضية بأن أزورها مرة واحدة في الأسبوع، مع العلم أنها تعيش بمفردها، تماماً كما والدة هبى. انصرفتُ وأنا أستعيد تحليلات هبى حول وضعها مع والدتها مما شدّني إلى متابعة الموضوع معها قريباً جداً. وهذا ما قمت به صبيحة اليوم التالي، إذ اتصلت بهبى كي أطمئن إلى صحتها متمنّية أن تكون بحالة جيدة كي تتابع الكلام الذي كنا قد بدأناه البارحة.

ـ هل أنت بخير اليوم؟ سألتها عبر الهاتف.

ـ بألف خير وأنتظرك، وإن رغبت باللقاء خارج البيت فأنا جاهزة.

ـ وهذا يعني أنك قد شفيت نهائياً. سألتها بفرح.

ـ لا أحب المكوث في السرير، لا أعرف أن أدلّل نفسي، هيا نلتقي حوالي الساعة العاشرة والنصف في مقهى الروضة، ففي مثل هذا الوقت يكون شبه فارغ ونتمكّن من الإفادة من الهدوء.

ـ موافقة، إلى اللقاء.

أقفلتُ خط الهاتف واستعددت للقائها وحثها على متابعة موضوعها وقد خالجتني فكرة أن أكتب، في يوم من الأيام، عن هذه العلاقة المعقّدة بين أم وابنتها.

التقينا، وبعدما طلبنا القهوة باشرتُ بالسؤال: «كيف انتهت إقامتكم في الضيعة بعد وفاة والدك»؟.

ـ كأنك تقرئين أفكاري، أجابتني هبى، وتابعت: فبودي أن أتابع ما كنت قد بدأته معك حول تلك المرحلة. سأباشر فوراً:

«انقضى الصيف والحالة على ما كانت عليه بين والدتي وكنّتها، ولم ينته التوتّر بينهما إلا حين هلّ شهر تشرين وغادرَنا أخي مع عائلته لكي يلتحق ابنه بمدرسته. وهكذا اهتمّ كل من إخوتي بعائلته وبقيت وحدي مع والدتي. تركوني ورحلوا غير آبهين بالحمل الذي رموه على كتفي أنا التي كان باستطاعتها أن تسافر إلى حيث تشاء، أنا التي تحرّرت من الزوج ومن الأولاد لكي تعيش حريتها من دون أي عائق. وهكذا تحولت العائلة والزوج والأولاد تحرراً بينما بات التحرر منهم عبودية. حرّرت العائلاتُ أخوتي من والدتهم وتحرري من العائلة حوّلني إلى مسؤولة وحيدة عن كائن لا يرحم، عن كائن متسلّط ومستبد، عن كائن لا يرى سوى نفسه في هذا الوجود حتى ولو أتى ذلك على حساب حياة الآخرين، كل الآخرين بمن فيهم ابنتها

التي هي أنا والتي تعتبر أنها المفضلة عندها.

«صحيح كنتُ المفضلة عندها لكن ذلك التفضيل كان يعني بالنسبة إليها أن لا أخالف أوامرها وأن ألبي كل رغباتها. تفضيلها لي لم يكن لصالح انتعاشي وتحقيق ذاتي، بل كان من أجل أن تمارس علي كل تسلّطها من دون أن يُسمح لي حتى بالتبرّم أو التذمّر، وقد اتخذ هذا التفضيل أشكالاً مختلفة مع تقدم العمر بها؛ ففي البداية تصرّفت معي كأنني رفيقتها ومثيلتها من دون أن تحسب لفارق العمر بيننا أي حساب، ثم تحوّلت، حين عجزتْ، إلى دور الابنة التي لا حياة لها إلا في حضن أمها وحوّلتني إلى هذه الأم التي تمارس عليها كل دلالها ومزاجها وتجبرها. لن أعود إلى هذا الموضوع ودعيني أخبرك فقط بما حدث:

«تفرّق الأخوة كل في سبيله وفي درب تحقيق مصلحته، وبت وحدي معها لتبدأ معاناتي التي ولدت صغيرة وكبرت مع الوقت على عكس كل المصائب التي تولد، عادة، كبيرة وتصغر مع مرور الزمن. هل أحمّل والدتي كل أسباب معاناتي معها أم أن لي دوراً في تأجيجها واستفحالها؟ أقر بأنني ساهمت في تنميتها وتعميقها ولو أنني لست المبادرة في انوجادها. حزمة من الظروف تواطأت على عالمي ونصّبت تلك المعاناة عصبها الفقري، تلك المعاناة التي سترافقني إلى القبر، قبرها أو قبري من دون أن أتمكّن من تجاوزها أو الانتهاء منها بحل يريحني من هذا التمزّق القاتل بيني وبين ذاتي، بين تمرّدي وانكساري وبين أنانيتي وألمي. هذا التأرجح بات محدّد حياتي معها؛ أثور وأتركها وسرعان ما ينتابني شعور بالذنب أمام عجزها. هذه الدائرة المفرغة التهمت سنوات عديدة من عمري من دون أن أتجرّأ على الخروج منها، وأحسد

أخوتي على لامبالاتهم والقوة التي يتمتعون بها في تجاهلهم لواقع الحال. لكن لا بد من الاعتراف بأن والدتي ساهمت في بلورة موقفهم هذا واكتفت بالاستئثار بي وتملّكي كأنها لم تنجب غيري مما يدفعهم إلى تبرئة ضميرهم من إهمالهم لها، هذا الإهمال الإنساني الذي يعوضون عنه بتأمين كل ما تحتاج إليه مادياً وكأن واجبهم تجاهها قد حقق كل مكوناته. بالفعل أحسدهم على قوتهم لكني، في الوقت نفسه، لا أبرئ والدتي من المساهمة في بلورة موقفهم هذا.

ـ قلت إنك ستهملين التحليل كي تسردي الوقائع وإذ بك تغوصين من جديد في ما قرّرت الابتعاد عنه. هل هذا ما يسمى d'formation professionelle؟

ضحكت هبى ووافقتني الرأي ثم قالت: «سأعود إلى الوقائع لأروي ملاحظاتي من دون تعليق»، قالت ذلك وصمتت قليلاً كأنها تتذكر الفترة التي تلت موت والدها وبعدما باتت وحدها مع والدتها. قالت:

«أول ما لاحظته في تلك المرحلة هو أنني لم أشعر بأن والدتي افتقدت زوجها فعلاً، فهي لم تذكره يوماً ولم تغيّر من سلوكها إطلاقاً كأنها لم تخسر أي شيء. هل كان والدي على هامش حياتها؟ إلى هذه الدرجة هل حين ينتفي الجنس بين الزوجين يتحولان إلى رفاق درب قسرية تجعل أحدهما يشعر بالتحرّر عند فقدان الآخر؟ في فترة تواجد أخي في الضيعة كان هو الذي يقوم بكل ما يجب حيال البيت، لكن حين رحل مع عائلته إلى بيروت تحوّل العبء إلي، وما لم تتمكّن والدتي من ممارسته مع ابنها من تحكّم وتجبّر مارسته معي، إذ استعادت مكانتها السلطوية وباشرت

ممارسة دورها القيادي الذي لا يرتضي شريكاً له. حاولت أن تحمّلني الدور الذي كان يحمله والدي كما كانت تريده أن يكون، يعني لعبة في يديها، والذي لم يلبّه والدي كما كانت تأمل. وربما لهذا السبب شعرت بالتحرر بعد غيابه. فالسلطة التي لم تتمكّن من ممارستها كاملة على والدي، حاولت أن تمارسها علي أنا ابنتها التي باتت تتحمّل كل الأعباء ما عدا العبء المادي الذي استمرت والدتي في تحمله لتديره كما تشاء.

«في تلك المرحلة كنت أدرّس في الجامعة، لكن سوء الأحوال الأمنية وإقفال الجامعة بسببها مكّناني من ملازمة الضيعة بشكل مستمر ومكنا والدتي من التحكم بي على هواها إذ حتّما علي الإقامة معها طوال تلك السنة التي كانت الأولى التي أقضيها كاملة في ضيعتي. كنت فرحة لفكرة أنني سأمكث فيها خلال فصل الشتاء وأتمتع بأجوائها الباردة وبعشرة أهلها الطيبين وهو أمر حرمت منه كل السنوات السابقة أولاً بسبب المدارس ومن ثم العمل، حيث لم يُسمح لي إلا بزيارات قصيرة إليها وبخاصة خلال فصل الصيف. وما أن انتهى هذا الفصل، تلك السنة وهلّ فصل الخريف حتى بدأت أتمتع بما حرمت منه طوال حياتي إذ إنني، من بين كل الفصول، أعشق هذا الخريف بالتحديد وبخاصة إن كنتُ خلاله في منطقة أحبها وليس من مكان أعزّ على قلبي من ضيعتي. لكن الضيعة لم تعد كما في ذاكرتي، وشهر أيلول الذي كان شهر «المونة» حيث تنهمك النسوة في تحضير البرغل والكشك وتمليح العدس و... تحوّل إلى شهر عادي إذ إن المطاحن الحديثة حلّت محل كل الوسائل التقليدية السابقة والتي كانت تشكل قسطاً مهماً وجميلاً من تراث ضيعتنا.

«لكن والدتي أصرّت على الاحتفاظ ببعض من التراث القديم وطلبت من أحد رجال العائلة المزارعين أن يأتيها بالباذنجان الأبيض الصغير لتجعل منه «مكدوساً» زكي الطعم وبخاصة إذا أكل مع الخبز الذي يسخن على مدفأة المازوت في فصل الشتاء ويتبع بشي البطاطة والكستناء. وطلبتْ من أحد أصحاب قطعان من الغنم والماعز، أن يأتيها باللبن كي تنشفه وتجعل منه كريات صغيرة مغمورة بزيت الزيتون الذي يتجمد مع حلول الشتاء البارد والمثلج أحياناً. أما المتطلبات الأخرى فقد حقّقتها بشرائها جاهزة كما يفعل الآن معظم أهل الضيعة. بقيت القورما التي تغيرت وصفتها مع ظهور الكولستيرول والتريغليسريد وغيرهما من أمراض العصر. في البداية كان يُعلّف «كبش» الغنم طوال الصيف ثم يُذبح ويحوّل لحمه ودهنه معاً إلى قورما شهية تؤكل مع الكشك والبيض وبعض الأطباق التي كادت أن تندثر راهناً. ففي ذلك الخريف ابتاعت والدتي لحم البقر القليل الدسم، المقطع إلى قطع صغيرة وبعضاً من «ليّة» الغنم وصنعت منهما القورما بحلتها الجديدة التي لا تضاهي حلتها الأولى بأي شكل من الأشكال، لا بطريقة التحضير ولا بالطعم.

«المهم في كل تلك التحضيرات التي قامت بها والدتي هو أنها كانت تقوم بها برفقتي إذ لم تتحمّل أن تنفّذ أي عمل بمفردها حتى ولو ساعدها فيه كل الناس. فإن دخلتْ المطبخ لتحضير الغداء مثلاً، وهي كانت مصرة على تحضيره بنفسها لأنها تنتقد كل ذوق يختلف عن ذوقها، فلا ترضى أن أمكث في غرفتي أقرأ أو أقوم بأي نشاط آخر؛ تصرّ عليّ أن أكون رهن أوامرها وإشاراتها حتى ولو لم يكن وجودي ضرورياً. وإن تمنّعتُ وابتعدت عنها لأقوم بما أرغب به، صاحت من المطبخ بأعلى

صوتها: «الستّ قاعدة ومرتاحة وتاركتني اعمل كل شي وحدي». وتبدأ بنهر الخادمة والتضييق عليها إلى أن ترغمني على التدخل والمجيء إلى المطبخ لمرافقتها، فتحقّق ما تريد وترتاح. وهكذا كل ما حققتْه من نصر علي كان بسبب صراخها وابتزازها، وأنا كنت أعلّل النفس بأنها مرحلة عابرة وأن الأمور ستسوى حين نعود إلى بيوتنا في المدينة. لهذا السبب تخلّيت عن كل ما كنت أرغب في القيام به من قراءة أو غيرها واستجبت لطغيانها الذي لا يرتوي.

ـ يعني أنك ساهمت في ازدياد تسلطها عليك. أتى تعليقي البسيط لكي أمكّنها من متابعة بوحها.

ـ لم أهمل كل أعمالي بطيبة خاطر بل رضوخاً للأمر الواقع. اتركيني أشرح لك:

«أول عمل قمت به بعدما غادر أخي مع عائلته هو أنني أبديت رغبة في الانتقال إلى غرفته والتخلي عن سرير أبي في غرفة والدتي. أردت أن أتحرّر منها ولو في فسحة النوم وبخاصة أن أصوات شخيرها تحرمني من النوم الهادئ. حين عرضت الفكرة عليها استاءت واتهمتني أنا بالشخير.

ـ إذاً ترتاحين من شخيري. قلت لها.

ـ لكني لا أجرؤ على النوم وحدي. أجابتني.

ـ لست وحدك فأنا والخادمة معك في البيت، والغرفة التي سأنتقل إليها ملاصقة لغرفتك.

ـ إن كان من تغيير ولا بد، فأنا سأنتقل إلى غرفة أخيك والتي كانت قد احتلتها ليلي بسبب قربها من الحمام. إبقي أنت هنا وسأنتقل أنا إلى الغرفة الثانية لأنها تناسبني.

«كانت تلك الغرفة تناسبني أنا أيضاً تماماً بسبب قربها من الحمام حيث كان بإمكاني دخوله من دون أن أمر بثياب النوم أمام الزوار الصباحيين في الصالون والذين لا يخلو منهم بيتنا أبداً. بينما كان باستطاعة والدتي أن تستمر حيث هي لأنها تستيقظ باكراً وتتزيّن وبخاصة تزين وجهها قبل أن يزورنا أحد كي تبدو دائماً جميلة كما يعهدها الجميع. كانت تهتم بشكل خاص بتلوين وجنتيها بالأحمر كي تمنح وجهها تألقاً وعافية وهي عادة لم تتخلَّ عنها حتى في سنواتها الأخيرة.

«تمت التنقلات وفقاً لرغبة والدتي وبقي مبيتي في سرير والدي الذي ما أن أضع رأسي على مخدته حتى أستحضره وأروح أتحاور معه قبل أن يأخذني النعاس. كنت أتخيّله سعيداً إذ تخلص من عذابه معها، وأحياناً أسقط عليه معاناتي فأراه ساخطاً يدعوني إلى التمرّد والابتعاد عن جوّها لأنها ستخنقني إن كنت جاهزة لتلبية كل متطلباتها. أسمعه يردّد: «عيشي حياتك ولا تخسريها كرمى لأي أحد فالحياة قصيرة وما يفوت منها لا يعوّض لأن الزمن غدار». كنت أغفو على أمل أن أحقّق رغبته وأن أمارس حريتي بعيداً عن سطوتها. لكن ما أن تشرق الشمس ويبدأ النهار حتى تعاد الكرّة من جديد وأراني، تلافياً للمشاكل، أخضع لكل ما تطلبه. أخضع صحيح ويا ليتني كنت أحصد رضاها إذ إن كل ما كنت أقوم به كان عرضة لنقدها.

«في الصباح الباكر تتذمّر إن تباطأت في ارتداء ملابسي وتزيين

وجهي وتسريح شعري، ولتزيين الوجه بنظرها أهمية تتعدى أحياناً النظافة إذ كانت لا تشدّد على الاستحمام أحياناً مثل تشدّدها على الظهور الأنيق، وهذا الأمر رافقني منذ صغري حين كانت دائماً تلاحقني لأضع بعض البودرة الحمراء على وجنتي وأن أطلي رموش عيني بالـ«ريميل» الذي يبرز طول الرموش الشقراء ويجمّل العين. أذكر ملاحقتها لي في هذا المضمار منذ كنت طفلة لا أتعدى الثامنة أو التاسعة من عمري. بالفعل كنت لعبتها التي تودّ أن ينجذب إليها الجميع وأن ينبهر بجمالها. ولست أدري ما هو الإشباع التي كانت تحصل عليه من رؤيتها للدهشة في عيون الآخرين ولسماعها الإطراء الذي كان يكال لجمالي تماماً كالفنان أمام لوحة يُعجب بها الناظر إليها. هل فرحها ذاك يعود إلى اقتناعها إنني ملكها، أنني شيء من أشيائها الجميلة؟ لكن هذا الشعور بالتملك الذي كان يطاول الشكل فقط في البداية، استفحل مع مرور الزمن ليتحوّل إلى الرغبة في تملك الشخصية أيضاً. فهذه اللعبة الجميلة عليها أن تستمر لعبة مسلوبة الإرادة تحرّكها أنامل المبدع وفقاً لرغباته. وإن حصل وتمرّدت اللعبة وخرجت عن إرادتها تحوّل جو البيت إلى جحيم، وفي أغلب الأحيان تظهر عوارض المرض التي ترغم المتمرّد على الرضوخ من جديد. عملية ابتزاز واضحة لكن هل هي واعية لما تقوم به؟ والعملية تنامت مع الوقت وبخاصة في المرحلة الأخيرة حيث أصبحت نوعاً من الهستيريا بكل معنى الكلمة.

ـ لن أعلق، سأترك التحليل إلى ما بعد. تابعي فأنا أود الاستماع فقط. قلت لها وصمتّ. فتابعت:

«انقضى فصل الخريف وأتى الشتاء وتهيأنا لبرده القارص فركّبنا

«الصوبيات» وملأنا البراميل بالمازوت وركناها في الطابق السفلي في غرفة إلى جانب الغرفة التي كان فيها مولد الكهرباء الذي كان تشغيله سهلاً، وكنت أنا من يهتم بكل هذه الأمور مع من كان يساعدني من أبناء العائلة الذين لم يحظوا يوماً برضا والدتي إذ إنها كانت تنتقدهم دائماً ولا يعجبها كل ما كانوا يقومون به تلبية لرغباتها. فقط أبو طوني من بينهم، كان يحظى برضاها لأنه كان يسايرها ويجالسها ولا يرفض لها طلباً وهو الذي كان يهتم بالحديقة من حيث الري واقتلاع الأعشاب اليابسة وتقليم بعض الأشجار المثمرة وبخاصة الدوالي التي كانت تحظى باهتمام والدتي أيضاً، وزرع بعض الزهور والخضار وبخاصة النعناع الذي لم تستغنِ عنه والدتي إطلاقاً لأنه يدخل في تحضير الكبة النية، أكلتها المفضلة والتي لا تأكلها إلا إذا كانت من صنع يديها.

«بدأ فصل الشتاء واضطررنا لشراء بعض الملابس الصوفية لأننا لم نتمكّن من إحضار ما لدينا من بيوتنا. كنت كلما ابتعت قطعة أبتاع لوالدتي ما يناسبها من حيث المقاس واللون لأنها لا ترتدي إلا اللون الغامق الذي يبرز بياض الوجه. لكن كلما كنت أقوم بعمل من هذا النوع كانت تنتقد وأضطر إلى القيام بعدّة زيارات للمحل كي أبدّل وأغيّر في الملابس حتى ترضى عنها وأحياناً كثيرة كنت أرغم على مرافقتها كي تختار ما تشاء لأن ذوقي في الاختيار لم يكن يناسب ذوقها. وهكذا كان لكل عملية شراء حفلة تدوم أحياناً بضعة أيام ولا تنتهي إلا بعد رضوخي لمشيئة والدتي وتلبيتي لكل تطلّباتها النزقة.

«أما التحرك خارج البيت فكان له مواله الخاص؛ أبدأ بالفترة

الصباحية حيث كنت أحياناً أرتدي ثياب الرياضة وأهمّ بالخروج للسير في بعض أنحاء الضيعة، فتنبري والدتي لردعي لأن رؤيتي بلباس الرياضة لا تليق بمقامي وبالتالي علي تجنّب ما كنت أرغب به لأنه يليق بالشباب الصغار وليس بي أنا ابنة الأربعين. كنت أحياناً أرفض منطقها هذا وأجوب شوارع الضيعة وزواريبها متقصّدة السير السريع وعدم التوقّف عند كل من كان يدعوني لشرب القهوة كي لا يعتقد أحدهم أنه مفضّل على غيره. وحين كنت أعود إلى البيت أجدها بانتظاري لتعاود تنظيرها حول الموضوع الذي لا تستسيغه، ربما لأنها غير قادرة أن ترافقني. أما في أغلب الأحيان ولتلافي ملاحظاتها التي لا تتوقف، فكنت أكتفي بالسير في الحديقة لمدة معينة فترضى عن سلوكي هذا لأنني أكون دائماً تحت نظرها.

«بعد ظهر كل يوم كانت تزورنا بعض القريبات الشابات من نساء العائلة وبخاصة عائلة والدتي، فكانت ترحب بهنّ، لكن حين كنّ يقترحن القيام بنزهة معيّنة برفقتي كانت تعترض وتسخّف عرضهن الذي لا يصبح لائقاً إلا إذا رافقتنا لتنفيذه. هؤلاء السيدات كنّ يرغبن في رفقتي لأنهن يكن على راحتهن معي بينما رفقة والدتي لنا يحرمهن بعضاً من عفويتهن وحريتهن ولذلك كن، في أغلب الأحيان، يكتفين بالبقاء معنا في الحديقة مفضلات ذلك على رفقة والدتي لهن، فيتحول نشاطهن إلى تحضير التبولة وأكلها بورق العريش النضر. كانت والدتي تراقب عملهن وتحرص على ألا تمتدّ يد إلى خلط التبولة لأنها ستمتنع عن مشاركتنا التهامها إذا لمستها يد غير يدها. كانت تعتبر أنها وحدها يمكنها لمس أي شيء وكأن كل الآخرين قذرون ولا يحترمون قواعد النظافة. أما الطريف في الموضوع فهو أن أولئك النسوة كن يعرفنها جيداً

ويحاولن إرضاءها لأنهن يحترمنها، هي كبيرة العائلة. كنّ ينفّذن أوامرها بكل رضا لكنهن كن يذهبن إلى بيوتهن بعد ذلك ويتركن كل الهمّ علي أنا التي كان عليها تحمّل مزاج والدتي طوال النهار والليل وهو مزاج لا يرحم ولا يحسب للآخر حساباً كما بات معلوماً.

صمتت هبى قليلاً وهي ترتشف القهوة وتميل برأسها يمنة ويسرة، فسألتها: «بمَ تفكرين؟ هل تراجعين أفكارك؟» لم تجبني مباشرة بل تابعت كأنها تكلّم نفسها:

«مركز العالم هو حيثما توجد هي، فهي لا تنسى نفسها ولو لدقيقة واحدة، وعلى الجميع أن يحذوا حذوها ويستمروا في كيل المدائح لكل ما تقوم به، وإن أخلّ أحدهم بهذه القاعدة نعتته بالـ«حمار» الذي لا يفهم شيئاً. فقط ما تفعله هو الصواب، وما تقوله هو الحقيقة والرأي السديد وكل ما عداهما لا قيمة له إذ إنه من باب الكذب أو الجهل. بكلمة وجيزة، تعتبر والدتي أنها المخلوق الأكمل شكلاً ومضموناً وبالتالي على كل من هو برفقتها أن يقرّ بهذا الاعتبار وأن يسلك على أساسه؛ وهي لا تكتفي بشخصها فقط بل تسقط اعتباراتها هذه على كل ما أنتجته فيصبح أولادها أفضل أولاد في الكون ولا يسمح لأحد بأن يجاريهم. من هذا الباب كان نقدها المستمر لكل ما أقوم به إن كان يماشي ما يقوم به أي شخص آخر. علي أن أكون مميزة حتى ولو كان ذلك على حساب عفويتي وشخصيتي الحقيقية التي تحتقر كل اعتباراتها الفوقية والتي هي، بنظري، غير مبرّرة وليس لها حيثيات في الواقع سوى أن والدتي هي ابنة ذلك الرجل الذي كان يحظى باحترام الجميع وزوجة ذلك الطبيب اللامع

وابن البيت المحترم الذي منحها لقب «دكتورة» أو «حكيمة». أما على الصعيد الشخصي فهي كائن عادي يتمتّع بعيوب وحسنات كأي مخلوق عادي. لكنها غير عادية بالفعل لأن شخصيتها الاستثنائية وممارستها لهذه الشخصية يدفعان المتعامل معها إلى تهيّبها ومداراتها كي يتجنّب ردود فعلها التي تأتي في أغلب الأحيان وقحة وفجّة. أما سكوت الآخر أمام تجبّرها، احتراماً لموقعها ولسنها فتعتبره برهاناً على صواب ما تفعل وهذا ما يزيدها طاووسية واعتزازاً بنفسها وبالتالي تسلطاً وتحكماً.

ـ لكنها سيدة جميلة جداً ومن المؤكد أنها كانت، في صباها، فاتنة، ويحق لها أن تنظر إلى الآخرين بنوع من الاستعلاء. قلت لصديقتي كي أحدّ من تهجّمها على والدتها والذي ستندم عليه حتماً في ما بعد.

ـ أنا أعترف بأنها أجمل الجميلات، لكن هل يحق لها، لكونها جميلة، ألا تحترم غيرها وتجعلهم يهابونها؟ سألتني.

ـ الهيبة من الله، ومن يتمكّن من فرض هيبته يكن، بالتأكيد، شخصاً مميزاً، ووالدتك هي، بالفعل، مميزة، شكلاً ومضموناً..

اعترفت هبى بصحة ما أجبتها به، لكنها تابعت:

«لكن كل هذه القوة الظاهرة للخارج كانت تنهار أمام ما يتعلّق بصحتها؛ ففي حالة مرضها تفقد كل رابط بالخارج لينصبّ كل اهتمامها على دائها الذي يكون، دائماً، فريداً ومضخّماً وأداة لإرغام الآخرين على الاعتناء بها. تظلّ مركز الكون حتى في انهيارها فتشغل كل من حولها بـ«نقّها» وتركيزها على ما حلّ بها متجاهلة كل ما عداه. وانهيارها هذا يكون دراماتيكياً وكأن العالم

سينتهي، وإن قصّر أحدنا بتلبية نقّها أو تجاهل مرضها نعتته بِأشنع النعوت وتخلّت عنه نهائياً، وهي في ذلك سيدة المواقف المتطرفة حتى مع أولادها؛ فإن قصّر أحدهم مرّة معها أو تجاهلها لفترة ولو وجيزة يكون فيها منهمكاً بأموره الخاصة، أصدرت أحكامها المطلقة بعبارتها الشهيرة: «يحل عن طيزي، لا إبني ولا بعرفو».

ـ وهذا دليل على قوة شخصيتها، ومعناه أنها ليست بحاجة إلى أي منكم. قلت لهبى التى، أعتقد أنها تبالغ في وصف والدتها. فأجابتني:

ـ لكنها في حالة المرض تكون ضعيفة جداً؛ ففي أحد الأيام حدث ما لم تكن تتوقّعه إطلاقاً إذ إن كمالها البدني والمعنوي بنظرها يجب أن يظل خارج ما تشكو منه الأبدان والمعنويّات العادية. كانت تتمكّن من السيطرة على الشق المعنوي أما الشق البدني فلم يكن رهناً لإرادتها وهذا ما كان يدفعها إلى الانهيار أمام تداعيه الذي تبدّى مرّة بظهور درنة في ثديها الأيسر فحدثت المناحة وعمّت الهستيريا لمدة أسبوع في البيت قبل أن نتوصّل إلى النتيجة التي أتت إيجابية.

ـ كيف حصل ذلك وماذا ترتب عليه من معاناة؟ سألت هبى.

ـ في أحد الأيام، بعدما تزوجتُ وسكنت مع زوجي في منطقة الأشرفية، اتصل بي والدي وهو يقول: «النجدة، لقد وقعنا في ورطة لا أدري كيف الخروج منها». أخافني كلامه وحاولت استفساره عن طبيعة تلك الورطة، فأتى جوابه: «تعالي بسرعة وإلا فوالدتك ستنهار».

ـ وما بها؟ وهل تشكو من شيء؟ سألته.

ـ الأمر أخطر مما تتصورين، لقد اكتشفت درنة في ثديها وهي الآن شبه مهسترة وتظن أن تلك الدرنة هي سرطان وأنها ستموت. أجابني والدي بسرعة.

ـ وهل فحصتها؟ سألته.

ـ لقد فعلت وتبيّن لي أن ما اكتشفتْه والدتك هو حقيقي، مع اعتقادي شبه الأكيد أنها درنة دهن وليست سرطاناً، لكنني عجزت عن إقناعها بما أعتقد وقد طلبتُ موعداً من طبيب مختص والموعد غداً بعد الظهر. أما حتى يأتي ذلك الموعد فالحياة معها لا تحتمل وهي تطلب منك المجيء بسرعة. أجابني والدي قبل أن يقفل الخط.

«أقفلت خط الهاتف بدوري، وتوجهت إلى بيت أهلي الذي وصلته لأجد والدتي منهارة تماماً وهي تردّد: «أجت الآخرة». تقول ذلك وتلطم وجهها وتصيح بأعلى صوتها: «إذا طلع معي سلطان خلّوني انتحر».

حاولت أن أهدئ من خوفها الذي قمت بتسخيفه لأن الطب أصبح قادراً على العلاج في مثل تلك الحالات، لكنها كانت تزداد انهياراً وهي تردد: «ما بعيش نهار واحد إذا شالولي صدري». وأجبتها:

ـ والدي يقول إن الدرنة ربما كانت كيس دهن.

«لكنها أصرّت على موقفها المنهار وأمضينا تلك الليلة بالقرب منها نواسيها ولم يغمض لنا جفن لأنها هي لم تهدأ، وقد ازداد اضطرابها حين رأت أخوتي وأختي يتوافدون الواحد تلو الآخر إلى

بيتها بعدما أعلمَتهم بالأمر. فكان كلما دخل واحد عليها، صاحت: «جابي تودّعني». وتنهمر بالبكاء.

«كانت جحيماً تلك الليلة التي انقضت ببطء كبير، وأتى الصباح وكان علينا تحمّل المزيد من المعاناة حتى يحين موعدنا مع الطبيب في مستشفى أوتيل ديو. ألبستُها ثيابها، قبل الوقت المحدّد، رغماً عنها وحاولت أن أبعدها عن نقطة تركيزها بشتى الطرق، لكنني لم أفلح واستمررنا على حالنا من البكاء والنق والولولة إلى أن وصلنا إلى المستشفى حيث كان الطبيب المختص، وهو زميل والدي، بانتظارنا. كشف على موضع الدرنة «الصغيرة جداً» كما قال، وكان رأيه مطابقاً لرأي والدي في التشخيص، لكنه تابع: «لا نستطيع الحسم إن لم نفحص مخبرياً نسيج تلك الدرنة وهذا الأمر يتطلب عملية صغيرة».

«وما أن سمعت والدتي كلامه حتى صاحت بأعلى صوتها: «لن أخضع لأية عملية، تركوني موت». لكن والدي حسم الموضوع وطلب من زميله إجراء العملية بأسرع وقت، وتمكنا من تحديد الموعد في اليوم التالي، مما استدعى بقاء والدتي في المستشفى تلك الليلة، وقد أراحني ذلك إذ حاولوا إعطاءها مخدّراً كي تهدأ وتغفو، وكي نتمكّن من الخلود إلى النوم بعد ليلة بيضاء قضيناها معها في البيت. لكن المهدئات تلك لم تفعل فعلها كما يجب، مما حوّل نومي معها إلى نوم متقطع، لكنه أفضل من السهر المستمر والاستماع إلى ندبها الذي كانت تعود إليه كلما استيقظت.

«لكن تلك الليلة، وعلى الرغم من صعوبتها كانت نعيماً بالنسبة لما حدث في اليوم التالي قبل إدخال والدتي إلى غرفة العمليات؛

أتى أحد الممرضين إلى غرفتها وهو يحمل بيده نوعاً من السجل وطلب منها أن توقّع عليه بعدما شرح لها الموضوع. وما أن انتهى من شرحه حتى علا بكاؤها ونحيبها وهي تصيح: «لن أوقّع، لن أوقع، فإن حاولتم استئصال ثدي فدعوني أموت تحت البنج». حاول والدي أن يهوّن عليها بقوله إن ما يقوم به الممرض هو عمل روتيني وليس مهماً، لكنها لم تقتنع وثابرت على موقفها ورفضت الخضوع إلى العملية، وأتى الطبيب المختص وعاود الشرح وهو يخفّف من إمكانية الاستئصال. قال لها: «لا سمح الله، إذا تبين لنا أن الدرنة هي ورم خبيث فلا بد لنا من الجراحة وهي أمر لا يحصل إلا بموافقة المريض».

ـ يعني أنك تشك أنه سرطان، صاحت به والدتي وهي تولول.

ـ الشك دائماً وارد ولو واحداً في المئة قبل أن نتأكد مخبرياً، ولهذا السبب نتّخذ كل الاحتياطات اللازمة. أجابها الطبيب.

ـ لن أعيش يوماً واحداً وأنا مشوّهة الجسد، أفضّل الموت على ذلك. صاحت والدتي بأعلى صوتها.

«لم تقتنع والدتي بكل الشروحات التخفيفية وأصرّت على موقفها الرافض للتوقيع إلى أن نهرها والدي وهو يقسم لها أن الورم ليس خبيثاً وأن ثديها لن يُستأصل. لكنها مانعت وتهرّبت من التوقيع لمدة ساعتين قبل أن ترضخ للواقع وتستسلم بعدما فعلت الحبوب المهدئة فعلها. وفي النهاية وقّعت ودموعها تنهمر على خديها وهي شبه منهارة كلياً.

«لم تستغرق العملية الجراحية أكثر من نصف ساعة، خرج بعدها الطبيب الجراح ليقول لنا: «لقد أرسلت خزعة من الورم إلى

المختبر، لكنني متأكّد أنه كيس من الدهون، ولهذا السبب باشرت فوراً إقفال الجرح ولن أنتظر نتائج المختبر والحمد لله على سلامة هذه «الشخاخة» التي لم يمرّ عليّ شخص يخاف مثلها».

«شكرنا الطبيب وانتظرنا خروج والدتي من غرفة العمليات لنطمئنها ونرتاح. خرجت، وأول ما استفاقت من المخدر سألت وهي تتلمّس أعلى جسدها: «شالولي صدري».

ـ لا، أتاها جواب والدي، والحمد لله على أن الورم لم يكن إلا كما توقّعنا؟ كيساً من الصمغ المجمّد.

«لم تثق بما سمعته من والدي وظلّت تتلمس ثديها إلى أن استفاقت كلياً من البنج وتأكّدت بنفسها من صحة ما قلناه لها.

«بعد العملية وعودتها إلى البيت أتى بعض صديقاتها لزيارتها وتهنئتها بالسّلامة فما كان من والدتي إلا أن باشرت عرض ثديها أمامهن لكي تثبت لهن أن الورم لم يكن خبيثاً وأن جسدها ظل على ما كان عليه في السابق.

«بعد رحيل الزائرات سألتُ والدتي لماذا أصرّت على أن ترى صديقاتها ثديها؟ وأتى جوابها:

ـ ألم تلاحظي نظراتهن الشكّاكة، كن يهنئنني بالسلامة وهن ينظرن إلى صدري كأنهن متأكدات أنني أخفي شيئاً ما، ولكي أثبت لهن سوء نيتهن بادرت إلى إخراج ثديي كي يرينه.

«كانت والدتي تكرّر فعلها هذا كلما شعرت بالحاجة إليه كأنها تريد أن تثبت لذاتها أكثر من الآخرين أنها بصحة جيدة، وأن

جسداً كجسدها لا يمكن أن يطاوله المرض.

ـ أظنك تبالغين في القول إن والدتك تخاف التشويه البدني أكثر من المرض بالذات، ومن منا لا يخاف المرض وبخاصة إذا كان من النوع العصي على الطب كالسرطان؟ أتى تعليقي على ما سمعت من هبى. لكنها أجابت:

ـ ربما كنتِ على حق، لكن سأروي لك حادثة أخرى وستحكمين بنفسك.

ـ وهل هناك من حادثة أخرى؟ سألتُ هبى التي أجابت:

«لم يمرّ على تلك الحادثة أكثر من سنة حتى عانت والدتي من نزيف رافق دورتها الشهرية التي كانت قد استمرت منتظمة إلى ما بعد سن الخمسين. هذه المرة لم يكن والدي مطمئناً وقد عبّر عن قلقه أمامي إذ قال:

ـ أظن أن حالتها غير مطمئنة وهذا النزيف يدلّ، في أغلب الأحيان إلى وجود ورم، بالأرجح هو ورم خبيث، لكن عليّ استشارة طبيب نسائي فهو بدوره سيطلب إرسال خزعة من نسيج الرحم إلى المختبر وسنعاني مع والدتك ما عانيناه في المرة الماضية.

ـ ما رأيك لو تلافينا كل الموضوع وأقنعناها باستئصال الرحم من دون أن نتطرق إلى الاحتمالات التي كانت واردة في المرة الماضية؟ اقترحت على والدي.

ـ وكيف نقنعها وهي متنبهة جداً وكثيرة الشك؟ أجابني وكله حيرة.

ـ تقول لها ما تعانيه هو بسبب تليّف عادي، وهو أمر يحتاج إلى «كورتاج» وقد يعود التليف وتحتاج في كل مرة إلى عملية جراحية ولهذا السبب من الأفضل أن ترتاح نهائياً ولمرة واحدة باستئصال الرحم التي لم يعد لها دور سوى أن تكون وكراً للأمراض التي ربما تحولت إلى أورام خبيثة.

«فكّر والدي قليلاً ثم قال: «ألا تعرفين والدتك وعلاقتها بجسدها؟ لن تقبل عرضي، أنا متأكد، ألا تذكرين ما فعلته حين طلب منها أن توقّع على إمكانية استئصال ثديها؟».

أمام تردده وحيرته حاولت اتخاذ المبادرة وقلت له:

ـ سأقنعها، تماماً لأني أعرف علاقتها بجسدها؛ هذه العملية هي داخلية ولن يتعرّض جسد والدتي للتشويه الخارجي الذي تخافه جداً. وبإمكان الطبيب النسائي أن يساعدنا في مهمتنا؛ اتفق معه على ضرورة الاستئصال من دون أن تخبروها ومن دون أن يؤتى على ذكر أي مرض.

«بعد الاتفاق مع والدي، عاين الطبيب النسائي والدتي وكان رأيه مطابقاً لرأي والدي، فتوجه إليها قائلاً: «إن كنت تريدين أن ترتاحي نهائياً من كل مشكلات الرحم، فمن الأفضل أن نستأصلها. وكثيرات من النساء يلجأن إلى هذه العملية من دون عوارض تذكر، حين ينتهين من مرحلة الإنجاب.

ـ كما ترى، أجابت والدتي بكل هدوء لم يفاجئني إطلاقاً، ويوم العملية وقّعت على المستندات من دون خوف. فما رأيكِ الآن؟ سألتني هبى بكل ثقة.

ـ أرى أن ما قامت به والدتك من رضوخ لما أقنعتموها به هو أمر طبيعي جداً وكل واحدة منا تخاف من التشويه الخارجي أكثر من التشويه داخل الجسد. وأقرّ، هنا، لوالدتك بالذكاء لما ارتضت به وبخاصة أنها كانت قد أصبحت في مرحلة من العمر تسمح لها بالاستغناء عن الرحم من دون أي أثر عليها بينما لاستئصال الثدي أثر يومي ومباشر على كل من يخضع له، إذ إن رؤيته، وهي يومية، تذكّر بالمرض بالإضافة إلى التشويه. أظن أن معاناتك الحالية مع والدتك تدفعك إلى رفض كل ما قامت وتقوم به، حتى ولو كان إيجابياً فتؤوّلينه على هواك كي تقتنعي بأنك على حق في نقد والدتك وكل سلوكها.

استمعت هبى لما قلت وأتى تعليقها:

ـ أعترف بأننا كلنا نخاف التشويه الخارجي لكنني مصرّة على أن هذا الخوف عند والدتي هو أكثر من عادي.

توقفت هبى قليلاً عن الكلام ثم تابعت:

«لكن الموضوع لم ينتهِ هنا إذ تبيّن من الفحص المخبري أن الورم كان خبيثاً ولو من الدرجة الأولى، وهو أمر يستلزم أن تعالج والدتي بالأشعة، بعد العملية. هنا وقعت المشكلة وكل ما تهرّبنا منه في ذكر المرض أمامها تهاوى لأنها ستدرك أنها كانت مصابة بذلك المرض الذي تخاف حتى من لفظ اسمه.

«تداولنا الموضوع لبضعة أيام أتى بعدها قرار والدي حاسماً إذ قال: «أعرف والدتك جيداً فإن علمت أنها مصابة بالسرطان ستنهار كلياً ولن تتقبل الموضوع وستتحوّل حياتها وحياتنا معها إلى جحيم لن نتمكن من الخروج منه بكل وسائل الإقناع، ولهذا

السبب سأوقف الموضوع هنا ولن أخضعها للأشعة ولا لأي علاج آخر، وأنا واثق من أن راحة بالها ستساعدها في الشفاء أكثر من الأشعة».

«صدق حدس والدي وشفيت والدتي نهائياً وها هي الآن في التسعين من عمرها من دون أن يعاودها أي عارض يرتاب منه. لقد لعب والدي على تأثير الوضع النفسي ونجح في لعبته تلك وأنقذ والدتي وأنقذنا معها من معاناة كانت ستقضي حتماً على حياتها وستنغص كل حياتنا معها.

وأتى تعليقي مختصراً إذ قلت لها:

ـ وهذا دليل إضافي على صدق ما قلته لك. وقد أوردت، أنت نفسك، البرهان.

لكن هبى لم تقتنع وتابعت:

«سأوضح لك لماذا كان سلوك والدتي هادئاً وتقبّلت العملية من دون ردود فعل رافضة كما حدث في السابق؛ إن من يعرف نفسية والدتي التي كانت ترى أن مرحلة الحيض نجسة ولو أن الحيض: «يجوهر الجسم» كما كانت تقول، يستطيع أن يتفهّم قبولها بالعملية من دون تردّد. ثم إن العملية هي داخلية ولا تغيّر في شكلها إطلاقاً، هذا الشكل الذي كانت تعوّل عليه كثيراً ولا تتهاون أو تتوانى عن إبرازه والافتخار به. والبرهان أنها بعد العملية تحدّثت عنها أمام زائراتها كأمر عادي جداً وأخذت تنصحهن باللجوء إليها حتى ولو لم تدعُ الحاجة إلى ذلك، كأنها تفاخر بما قامت به مع التركيز على فظاعة الآلام التي شعرت بها في مرحلة النقاهة، وهي مرحلة كانت بالفعل صعبة لأن والدتي لا تتحمّل

أخف الأوجاع وكل ما تشعر به يكون مضخّماً جداً كي تستمرّ هي مركز الاستقطاب وكي ينشغل الجميع بها؛ تستنفر الجميع لخدمتها من دون أن تراعي قدرة التحمّل عند الآخر. وهكذا فهي لم تستعد عافيتها إلا وكنا كلنا متعبين وبحاجة إلى راحة استطاع أن يتمتع بها كل أخوتي وبقيت وحدي بصحبة والدي معها لنتحمّل دلالها الذي طال لأكثر من شهر كامل نصحني بعده والدي بأن أعود إلى حياتي العادية لأن والدتي باتت بخير وتابع: «وإن كنت تنتظرين قرارها، فهي لن توافق على ابتعادك عنها لتعودي إلى زوجك وجامعتك، اسمعي كلامي وتابعي حياتك كما في السابق ودعيني وحدي معها».

«رحم الله والدي كم كان يفهمني ويفهمها».

ـ رحمة الله عليه، أما الآن فدعيني أعود إلى عيادتي الخاصة لمتابعة مشاكل مرضاي ومحاولة مساعدتهم على تخطيها. قلت لهبى قبل أن تباشر سرد حادثة ثالثة.

ـ كما تحاولين معي خارج العيادة. أجابتني هبى وهي تبتسم.

ـ معك نتحاور وأحاول تجنب المداخلة كي أتركك تفرغين ما عندك؛ وهو أفضل علاج للتوتر والنقمة على الواقع. أجبتها.

ـ أشكرك على تحمّلي، لكنني لم أكمل بعد. قالت ذلك وهي تنهض من مكانها استعداداً للانصراف.

ـ وأنا مستعدة للاستماع. إلى اللقاء غداً.

ـ غداً صباحاً، أجابتني هبى، لأن والدتي لا تطلبني إلا استثنائياً

في مثل هذا الوقت.

ـ أفهم وضعها فاقتراب الليل هو الذي يقلقها.

ـ أعرف ذلك ولهذا السبب أكرس لها كل يوم بعد الظهر، لكن المشكلة أنها لا تكتفي بذلك.

ـ للحديث صلة. قلت وأنا أقبّلها قبل أن تتوجّه كل منا إلى سيارتها.

5

في لقائنا التالي تركتُ هبى تفرغ ما عندها حول معاناتها تلك الليلة مع والدتها التي لم تتركها تعود إلى بيتها إلا بعد منتصف الليل لأنها كانت تشكو من ألم لم يهدأ إلا حين تأكّدت أن هبى لن تتركها وحدها مع الخادمة. حين صمتت بعدما ندبت حظها، قلت لها: «في جلسة سابقة كنت قد بدأت تخبرينني عن المرحلة التي تلت وفاة والدك وأنتم في الضيعة، فكيف انتهت تلك المرحلة وكم من الوقت أمضيتموه هناك؟».

ـ سنة تقريباً، أجابتني، لكن لم تمر تلك السنة في الضيعة إلا على حساب أعصابي المشدودة دائماً تجنباً للمشاكل مع والدتي التي ظلّ سلوكها هو هو من دون أن تعير اهتماماً لطاقتي على التحمّل إذ كان علي أن أبتاع وأحضّر كل ما يحتاج إليه البيت مع السكوت عن كل انتقاداتها حول ما أبتاع وأحضّر. كان علي

أن أتابع أمور المازوت والمولّد وإغلاق باب الدار في المساء وفتحه عندما تجهز هي لاستقبال الناس إذ إنها ترفض كلياً أن يزورها أحدهم إن لم تكن جاهزة لذلك وتبدي أمامه استياءها، وهنا ينهال علي التقريظ لأنني فتحت باب الدار من دون أن أستشيرها وهو باب لم يغلق إطلاقاً في حياة والدي.

«تحملت سطوة والدتي لأنني كنت قد أقنعت نفسي بأنني في إجازة من حالي، إجازة أنسى خلالها ذاتي لأستمتع بالضيعة وبكل ما حرمت منه خلال كل السنين السابقة. قرّرت أن أعيش حياة الضيعة بكل تفاصيلها، والأمر لم يكن سهلاً مع والدتي التي لم تتخلّ يوماً عن مفهوم التميّز. لكنني تمكّنت من تحقيق ما كنت أبغيه حتى على حساب تحمّلي لملاحظاتها التي لا تتوقّف، معللة النفس بأن المرحلة هي انتقالية وستنتهي مهما طال أمدها. وتلك الملاحظات كانت في غالبيتها تدور حول محور واحد وهو أن والدتي لم تكن تتقبّل سلوكي المنسجم كلياً مع من كنت أعاشر من أصدقاء وأقارب وتردّد على مسمعي: «لا كأنك متعلمة أو أستاذة جامعة ودكتورة، ولّي براقب سلوكك وحكيك وحتى ملابسك بقول إنك متل كل أهل الضيعة». كانت، بكل بساطة، ترفض أن نكون مثل غيرنا؛ نحن القدوة وعلى الآخرين أن يتبعونا. وإن حدث وتشبه بنا أحد نعتته بالغيرة وبعدم معرفة حدوده.

«تفهّمي لعقلية والدتي مكّنني من التغاضي عن كل ما كانت تقوم به، لا بل تحمّلته على أمل الخلاص القريب، وقد ساعدني في ذلك انسجامي مع الآخرين، وبخاصة الأقارب، الذين منحوني ثقتهم وتعاملوا معي بكل بساطة متجاهلين ملاحظات والدتي التي

كانت في أغلب الأحيان جارحة لهم ولي. وأكثر ما كان يزعجها هو اختيار الملابس. كانت ترفض أن آتيها بثوب يمكن أن ترتدي مثله إحدى نساء الضيعة، وهو أمر كان يصعب تحقيقه في الشروط التي وُضعنا فيها حيث محلات الثياب قليلة وكل النساء يبتعن ما توفّر. لهذا السبب كنت أقصد مدينة زحله كي أتمكن من تلبية رغبتها بينما كانت النساء، في بلدتي، يتوجهن إلى مدينة حمص القريبة منا، لشراء احتياجاتهن بأفضل الأثمان. أما بالنسبة لي فكنت أكتفي بما أجده مما جعلني لا أختلف عن كل نساء الضيعة الأخريات على الرغم من تأنيب والدتي التي كانت في كل مرة تعيد على مسمعي رواية أبيها الذي كان يأتيها بأفخم الأقمشة من بيروت، تلك الأقمشة التي لم ترتد مثلها أية واحدة من نساء الضيعة. لقد ترعرعتْ وفي ذهنها أنها مميزة وقد ساهم وضع والدها الاجتماعي والمادي ووضع والدي من بعده في ذلك، واستمرّت على موقفها هذا من دون أي تنازل حتى في أشد المراحل خطورة حيث لا يعود المرء العادي يهتم إلا بالنجاة من الموت. لم تنتبه أننا نعيش حرباً ضارية وأن الأهم هو أن نستمر في العيش وليس الملبس أو المأكل أو... لم تغيرها الحرب ولم تثنها عن المحافظة على كل ما كانت تنعم به قبلها.

ـ وهذه نعمة إذ إن الكثير من الناس انهاروا خلال الحرب ولجأوا إلى المهدئات. أجبت هبى كي تخفّف من حدّة نقدها لوالدتها. لكنها أجابت:

«لا، والدتي لم تنهر وحافظت على كل تماسكها وبخاصة أننا، في تلك المرحلة، في الضيعة، كنا بعيدين عن جو الحرب التي أنهكت المنطقة التي كنا نسكنها في المدينة. أما الآن فسأعود

إلى تلك المرحلة لأخبرك كيف كان حكمها على الآخرين؛ كان، بكل بساطة، من خلال سلوكه معها؛ إن سايرها وأثنى على كل ما تقوم به أو تقوله وبخاصة إذا امتدح جمالها واستمرار شبابها فهو إنسان فهيم وإن تجاهل هذه الناحية من شخصيتها نعتته بالبهيم. المقياس هي وما يتعلّق بها، وحكمها هو دائماً من خلال هذا المقياس الذي لا تتناساه أبداً ولا حتى في أحلك الظروف. غريب ذلك العنفوان المفرط الذي يسيّر كل حياة والدتي، غريبة تلك الأنوية التي ترفض رفضاً كلياً أن يشاركها فيها أحد. والأهم من ذلك صعوبة وغرابة العيش معها مع المحافظة على رضاها. أن يتفهم المرء نفسية شخص ما فهو من الأمور السهلة إذا لجأ إلى التحليل الموضوعي، أما أن يتقبل تلك الشخصية وأن يقولب حياته وفقاً لها فهنا تكمن الصعوبة. كنت أفهم كل سلوك والدتي وأجد له مبررات من خلال نشأتها وتربيتها و... لكن كان من الصعب جداً أن أجاريها وأنصاع لرغباتها وتسلّطها من دون شعور بالقهر، هذا الشعور الذي كان ينفجر أحياناً، حين يطفح الكيل. وحين كان يحصل ذلك كانت هي من يغتاظ ويقلب الأمور بشكل يستوجب مني الاعتذار عما قمت به فأعود لمسايرتها من جديد وتعود، هي، إلى ما كانت عليه من دون أيّة محاسبة للذات، من دون أن تشعر ولو للحظة أنها مخطئة. المخطئ، بنظرها هو دائماً الآخر. إنها لا تعرف معنى التكيّف إذ كان على الغير أن يتكيّف مع شروطها وليس العكس حتى ولو كانت على خطأ، وهو أمر لا تعترف به إطلاقاً.

«أن نتحمل شخصية على هذا التكوين ولمدة قصيرة فهو أمر مقبول وليس صعباً، أما أن نتحملها كل الوقت فهو أمر مضنٍ ومتلف للأعصاب، أظن أن والدي الذي عايش والدتي لحوالي

خمسين سنة قد رحل منهكاً وهو بالفعل قد أصيب بمرض نادر يطاول الأعصاب. رحمه الله كم تحمل منها. لكن المصيبة أنها تمارس الآن معي ما كانت تمارسه معه، ولهذا السبب كنت أفكر بأنني سأصاب بمرض والدي وفي الوقت نفسه كنت أعزّي نفسي وأستبعد الفكرة لأنني كنت مصمّمة على ألا أعايشها كل الوقت كما كان مفروضاً عليه. مسكين والدي كم عانى، بصمت، من تجبرها واستبدادها.

ـ من الواضح جداً أنك منحازة إلى والدك. قلت لها.

ـ أنا منحازة للحق ووالدي كان صبوراً جداً لأنه استطاع أن يتعايش مع طباعها الصعبة كل هذه السنين. لكنه ارتاح الآن ولا أدري متى سأرتاح بدوري.

ـ هل هذا يعني أنك تتمنين موتها؟

فاجأها سؤالي ولم تجبني بل عادت إلى متابعة الكلام عن تلك المرحلة التي قضتها مع والدتها في الضيعة وتركتَها تفعل لأنني أعلم جيداً أن الإجابة عن سؤال كهذا صعبة جداً، وسمعتها تقول:

«مضنية كانت تلك السنة التي قضيتها برفقة والدتي في الضيعة. تحمّلتها على أمل الخلاص منها عمّا قريب، لكن هذا القريب لم يأت وتتالت فصول مأساتي معها وهي مأساة فُرضت علي كالقدر الذي لا فكاك منه، مما حوّل علاقتي بالله، إن كان موجوداً، علاقة حقد عليه لأنه لا يعرف الرحمة ولا العدل، وكلما تأزّمت حالتي كنت أكيل له الشتائم والسباب. توزع أخوتي كل مع عائلته وفي عمله وتركوا الحمل الثقيل علي وحدي. وهكذا

وضعت في دوامة أنهكت حياتي بين التمرّد عليها والسلوك معها كما يسلك أخوتي وبين الشفقة عليها لأنها عاجزة عن متابعة الحياة وحدها. وهكذا كانت معايشتها مصيبة والابتعاد عنها مصيبة. والابتعاد لم يكن سهلاً إذ كانت تطاردني أينما توجّهت لتشكو لي همومها التي هي غالباً ما تكون هموماً صحّية، إذ يكفي أن أهملها يوماً واحداً لتصاب بآلام مفاجئة ترغمني على العودة إلى الاهتمام بها، فتشفى من أوجاعها وتعاود الكرة من جديد من دون أن تعي، ربما، أنها تسلبني حياتي وكل مستقبلي وتطلعاتي.

توقفت هبى عن الكلام وهي شاردة النظر في الأفق البعيد، انتظرتها قليلاً ثم سألتها: «ألا تودين إخباري كيف انتهت تلك المرحلة في الضيعة؟».

نظرت إلي، ابتسمت وقالت سأخبرك:

«خلال تلك السنة التي قضيناها في الضيعة كنت أتابع الأخبار السياسية والأمنية باستمرار لعلّي أتبيّن متى تدقّ ساعة الفرج وأعود إلى بيتي وعالمي. كنت أتابع أخبار التلفزيون وأقرأ الصحف. لكن إن تزامن وقت الأخبار المتلفزة مع مسلسل تتابعه والدتي، قطعتْ الأخبار مهما كانت لكي لا يفوتها أي شيء من المسلسل وكان علي الرضوخ لمشيئتها معلّلة النفس إنني سأقرأ الصحف في الغد. لكن حتى قراءة الصحف لم تنج من ملاحظاتها إذ كانت تتقصّد مقاطعتي، وإن لم ألبِّ رغبتها كانت تصيح: «شو في بهالجرايد هلقد مهم حتى بضّلّي ساعتين تقري فيها؟». حتى قراءة الصحف اليومية كانت، بنظرها، نوعاً من إهمالنا لها، هي المركز الذي علينا الدوران في فلكه باستمرار ومن دون انقطاع.

«هذا المركز الذي علينا الدوران في فلكه لا يعرف معنى العطاء فهو مشغول بالأخذ دائماً من دون أن يعي مقدار متطلباته التي تطاول كل المعطيات المعنوية والمادية على السواء. وهذا التكوين النفسي يعمي بصيرة صاحبه إلى درجة أنه يعتقد أنه مظلوم دائماً ويطالب برفع الظلم عنه من دون أن يدري أنه هو الظالم وأن الآخرين هم ضحاياه مما يدفعني إلى القول أحياناً «محظوظ هو الذي ليس له أم». وأندفع في تخطئة المنحى العلمي الذي يحاول إطالة العمر إذ ما معنى إطالته إن تحوّل طويل العمر عبئاً على نفسه وعلى الآخرين من حوله، وما معنى الحياة إن لم يتمكّن المرء من الإفادة منها والتمتّع بمعطياتها؟

«والدتي هذه التي يتملّكها الإحساس المفرط بالذات إلى الدرجة المرضية، منحها الله وتقدم العلاجات الطبّية عمراً مديداً حوّل حياتي معها إلى جحيم كم تمنّيت وأتمنى الخلاص منه إما بموتي أنا أو بموتها هي، وجعلني أحسد كل النساء اللواتي فقدن أمهاتهن قبل أن يتحولن إلى عبء لا يحتمل. لكن المشكلة ليست في إطالة العمر بل في الشخصية نفسها إذ إن نفسية والدتي لم تتغيّر إلا بالدرجة وليس بالنوعية، وأنانيتها التي تحمّلها والدي ومات ضحيتها والتي أتحملُها من بعده هي هي منذ البداية والذي تغير هو قدرتي على التحمل والقدرة طاقة ولها حدود، إن تخطتها انفجرت وهذا ما أخشاه أحياناً حين يبلغ شعورها بتملّكي حداً لا يطاق وهو حدّ تبلغه دائماً إذ إنها تعتبر أنه ليس لي حياة سوى عملي الذي أعتاش منه واهتمامي بها الذي تفترض أن يكون كلياً ومن دون منازع؛ لا من أصدقاء ولا من حياة خاصة ولا من تمتّع بالحياة، هي، وفقط هي وعلي الانشغال بها وبهمومها الوهمية، في أغلب الأحيان، كي أكرّس أيامي أو ما تبقى لي من

أيام لخدمتها وحضنها كطفل صغير غير قادر على القيام بأي شيء سوى الاتكال على أمّه. وأردد دائماً بيني وبين نفسي: لقد تحرّرت من الزوج ومن الإنجاب كي أكون حرّة ومن دون أي قيد فابتليت بعبء لا فكاك منه إلا بحكمته تعالى، بتلك الحكمة التي بتّ لا أفهمها».

صمتت هبى بعد هذا التدفق الانفعالي الذي تفهمته جيداً، ولم أعلق على ما قالت وتركتها شاردة لا أعلم بما تفكر إلى أن قالت: «اتركيني أنصرف». هل ندمتْ على ما قالته؟ افترقنا ولم أسمع صوتها إلا بعد فترة طويلة إذ اتصلت بي وقالت: «هل نلتقي؟» سألتني وهي تعرف أنني دائماً جاهزة لملاقاتها.

ـ بكل تأكيد، قلت لها أراك غداً، كالمعتاد حوالي الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر في المقهى القريب من عيادتي.

6

حين التقينا بادرت هبى إلى القول:

«كان قراري حاسماً بعدم البوح بما بحت به أمامك إلا بعد وفاة والدتي، هذا إذا توفاها الله قبل أن يتوفاني. لكن ما حدث أخيراً طرح عندي سؤالاً كبيراً حول إمكانية البوح في المطلق؛ فإن رفضتُ البوح الآن وهي حية لأتلافى جرحها وإحراج الآخرين وإحراجي أمامها، هل بإمكاني البوح بعد مماتها، بعد غيابها وغياب عذابي معها؟ أليس للموت حرمة تدفعنا إلى نسيان كل سيئات الميت والاحتفاظ فقط بذكر حسناته؟ اقتراب والدتي من الموت في الفترة الأخيرة أبعدني عن ذاتي وأنانيتي إذ بدأت أشعر بالتحرّر الذي أبحث عنه والذي سينهي معاناتي معها، لكن هذا الشعور ترافق مع شفقة عليها وألم كبير لفقدانها. هذا التناقض في المشاعر شل قدرتي على البوح، ولهذا السبب لم أتصل بك كل

هذه الفترة، ليرميني في دوامة الاهتمام بها على حساب كل اهتماماتي الأخرى. لكن الأمر طال وعدت إلى التأرجح بين الشفقة والتمرد، وهذا التأرجح دفعني إلى الاتصال بك من جديد كي أفرغ ما يتخبّط في داخلي لأن الكلام معك هو الحيّز الوحيد الذي يعيد لي توازني المفقود بفضلها.

ـ ماذا حدث خلال كل هذه الفترة التي طالت جداً؟ لقد حدستُ بأمر ما غير مريح لك أو ربما كان مريحاً، ولهذا السبب لم أتصل بك تاركة لك الحرية في أن تفعلي إذا رغبت في ذلك.

ـ تذكرين اللقاء الأخير بيننا، افترقنا وذهبت لزيارة والدتي كالمعتاد وتركت بيتها ذلك النهار حوالي الساعة السادسة مساءً وعدت إلى بيتي لأرتاح من التوتر الذي يصيبني بسبب «نقها» الدائم وأوجاعها التي لا تنتهي. عدت إلى بيتي لأنصرف ولو ليلاً إلى ما أتمتّع بالقيام به وهو الكتابة والقراءة. تمدّدت على المقعد أمام التلفاز وفتحت رواية «روب غرييه» «المرآة التي تعود». بدأت بالقراءة وما كدت أقلب الصفحة الثالثة حتى رنّ جرس الهاتف وقرأت على شاشته رقم بيت والدتي. «الله يستر» قلت لنفسي وأنا أرفع السماعة.

ـ والدتك ليست بخير. قالت لي المرأة التي تؤانس والدتي.

ـ ما بها وماذا جد في هذا الوقت القصير؟ سألتها.

ـ إنها تشكو من ألم شديد في بطنها و«تستفرغ» كل ما تأكله وحالتها سيئة.

ـ إنني آتية، قلت لها وأنا أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها.

«ما إن أقفلت الخط حتى انفجرت غيظاً وكلت السباب والشتائم لوالدتي التي لا ترحمني والتي تسلب كل أوقاتي وتعتبر أن ليس لي حياة سوى الاهتمام بها والاستمرار برفقتها ليلاًو نهاراً. كنت أقذفُ السباب وأنا أرتدي ملابسي وأشتم حظّي السيئ مع هذا المخلوق الذي لا يرتاح له بال إلا وأنا ألبي طلباته كعبد مأمور ومسلوب الإرادة. قبل مغادرتي البيت اتصلت بابن أختي الطبيب وسألته عما يجب علينا أن نفعل إذا استمرّت جدته بالتقيؤ.

ـ انقلوها إلى المستشفى ليعطوها مصلاً. أتاني جوابه.

«أقفلت الخط واتصلت مباشرة بأحد أخوتي لكي يوافيني إلى بيت الوالدة كي لا أتحمّل وحدي مسؤولية نقلها إلى المستشفى، وأتاني جوابه أنه آتٍ فوراً.

«وصلت إلى بيت والدتي وكانت في حالة سيئة وهي تصرخ من الألم. في تلك اللحظات تذكرت جدّتها التي توفاها الله بعد نوبة تقيؤ دامت لمدة يوم كامل. تذكرت الجدة وخطر ببالي أن والدتي ستموت مثلها، فرقّ قلبي عليها، وأمسكت يديها وحاولت مواساتها والتخفيف عنها وهي لا تهدأ من شدة الألم. وما هي إلا دقائق حتى وصل أخي، وفوراً نقلناها إلى الطوارئ في مستشفى سيدة لبنان القريب من منزلها. عاينها الطبيب المناوب وعلّق لها المصل ونصحنا بإبقائها في المستشفى تلك الليلة لأنها بحاجة إلى المصل لمدة طويلة. نقلوها إلى غرفة في الطابق السابع وحقنوها بدواء ضد الألم، فاسترخت ونامت وتمكنت من العودة إلى البيت بانتظار الصباح الذي ما إن بزغ حتى وجدت نفسي أمامها في غرفتها والطبيب المختص، الذي طلبناه، يعاينها وهي لا تتوقّف عن التقيؤ.

«أنهى الطبيب معاينته وأخذ يطرح علي الأسئلة حول الأمراض التي تعاني منها وحول العمليات الجراحية التي خضعت لها في حياتها والأدوية التي تتناولها و... ثم قلب شفته السفلى وقال:

ـ أشك بشيء محدّد، لكن علينا إجراء فحوصات شعاعيّة وصوتية ومخبرية كي أتأكّد قبل أن أصف لها أي علاج.

ـ وهل حالتها خطرة؟ سألته.

ـ إذا برهنت الفحوصات صحة تقديري، فالحالة سيئة وتستدعي إجراء عملية بأسرع وقت.

ـ وهل تتحمّل عملية جراحية وهي في التسعين من عمرها؟ سألته.

ـ ننتظر نتائج الفحوصات التي سنباشر إجرائها فوراً، ثم نقرّر. أما الآن فسأتركها على المصل من دون أي طعام. قال الطبيب ذلك وانصرف.

«قبل إدخال والدتي إلى مستشفى سيدة لبنان بمدة لا تقل عن العشرين يوماً كنا قد أدخلناها إلى مستشفى أوتيل ديو حيث أجري لها عدد كبير من الفحوصات وأكّد لنا الطبيب هناك أنها بحاجة إلى عملية جراحية، لكنه لم يشجعنا على إخضاعها لها لأنها لن تتحمّلها، وأنه من الأفضل أن تستمر على حالها مع إعطائها المسكنات عند الحاجة، وهذا ما قمنا به إلى أن استفحل الأمر ولم تعد قادرة على الاحتفاظ بأي طعام في معدتها.

«أجريت لها الفحوصات من جديد في مستشفى السيدة، وحين

اطّلع الطبيب على النتائج جمعنا وقال:

ـ والدتكم حالتها خطرة جداً لأنها تعاني من انسداد في الإمعاء ونحن محكومون بإخضاعها للجراحة.

ـ لكن أطباء أوتيل ديو نصحونا بعدم إجراء أية عملية لأنها لا تتحمّلها. قال له أخي.

ـ نحن أمام خيار من اثنين: إما العملية مع مخاطرها، وإما تركها على حالها فيتسمّم جسمها وتموت خلال بضعة أيام. الخيار لكم مع أنني أنصح بالعملية الجراحية لأن الأمل فيها ليس سيئاً للغاية، هناك أمل ولو ضعيف، أن تنجو. أما الآن فسأترككم لتتداولوا الأمر وأنا جاهز لتلبية أي قرار تتخذونه. قال الطبيب بكل جدية.

«تداولنا الموضوع وأتى القرار سريعاً إذ لا مجال للحيرة أو التردّد: نجري لها العملية بأسرع وقت ما دامت أن العملية هي السبيل الوحيد الذي يعطيها أملاً ولو ضئيلاً بالنجاة. قرّرنا وأبلغنا الطبيب الذي رحّب بقرارنا وحدّد موعد العملية بعد يومين ليتمكّن زميله المختص بمرض السكري من معالجة الموضوع وخفض نسبة السكر في الدم عند والدتي إلى ما يتناسب وإجراء الجراحة. لكن خلال هذين اليومين خضعت والدتي لمعالجات طبية صعبة إذ أدخلوا أنبوباً من أنفها إلى معدتها لسحب كل السوائل التي يفرزها الجسم ولإيقاف التقيؤ مع إعطائها، كل ست ساعات، الأدوية المسكنة للألم. وبما أنها، عادة، لا تتحمل الألم مهما كان خفيفاً، أمضينا تلك الفترة تحت وطأة نقها الدائم وهي في شبه غيبوبة عما يدور حولها وخارج وضعها المتعلق بحالتها التي

كانت مشرفة على الموت مع إدراك والدتي الكامل لهذا الوضع إذ كانت تبادر كل من يزورها بالقول: «جايي تودعني؟» وهكذا وعلى الرغم من تدهور حالتها الصحية ظلت محافظة على كامل وعيها وهو أمر أتعبها وأتعبنا معها.

«العملية الجراحية لم تستغرق أكثر من نصف ساعة أبلغنا بعدها الطبيب الجراح بأن العملية كانت ناجحة تماماً وتابع: «انشاء اللّه ما يصير مضاعفات نظراً لسنها». نقلوها إلى غرفتها من جديد وركبوا لها ميلاً لسحب البول كي لا تضطر إلى التحرك والذهاب إلى الحمام. وبعد يومين بدأت إمعاؤها بالعمل بشكل طبيعي مما دفعهم إلى استعمال الحفاض لأنها كانت عاجزة كلياً عن النهوض. استبشرنا خيراً واطمأن بالنا بخاصة أن الطبيب قد أكّد لنا أنها ستستعيد كل قواها خلال فترة قصيرة وستعود إلى البيت وإلى وضعها السابق، لكن من دون آلام، وهذا يعني بالنسبة لي، من دون نق، أي أنها بعودتها إلى البيت ستكون أفضل من السابق وستفسح لي في المجال كي أتحرّر قليلاً وأتابع نشاطي بشكل مريح.

«ارتحت لما سمعته من الطبيب وعدت تلك الليلة إلى بيتي وأنا مطمئنة وكلي أمل بأن الآتي سيكون أفضل من الماضي. لكن تلك الليلة لم تمرّ على خير، إذ أيقظني رنين الهاتف وسماع صوت الممرضة في المستشفى يقول: «أصيبت والدتك بوعكة صحية وغابت عن الوعي ممّا دفعنا لنقلها إلى العناية الفائقة كي يعالجها طبيب القلب الذي يقول إنها أصيبت بذبحة قلبية وحالتها حرجة». أقفلت الخط وأنا أتخبط بين شعورين متناقضين إذ كنت أتمزق بين رغبتي في نجاتها من الموت وتلك الرغبة الدفينة التي

لا أجسر على البوح بها والتي تعني نجاتي أنا من العذاب معها.

«نفضت تلك الأفكار من رأسي وتوجّهت إلى المستشفى بعدما أعلمت إخوتي بالأمر المستجد. أدخلوني جناح العناية الفائقة حيث كان يوجد عدد من المرضى، ووجدت والدتي في إحدى الزوايا وهي تصيح بأعلى صوتها: «وين حاطيني بغرفة الموتى؟» وصل أخوتي وحاول أخي البكر أن يفهمها أنها أصبحت بخير وما وضعها في هذه الغرفة إلا للاهتمام بها أكثر. لكنها لم تهدأ مما دفعهم في المستشفى، وبناءً على طلبنا، إلى نقلها إلى غرفة منفردة في الجناح نفسه. حين أصبحت في تلك الغرفة المجهّزة بكل أنواع المراقبة الصحية هدأت قليلاً وبدأنا معها بنوبة ثانية من المعاناة إذ باتت عاجزة عن البلع إلا السوائل فقط وقد امتلأت رئتاها ماءً وانتقل العلاج من المعدة والإمعاء إلى الرئتين والقلب وقد بدأ يظهر عليها الضعف والإنهاك مما دفع أخي الطبيب إلى القول: «إنها لن تعيش طويلاً إذا استمرت على هذه الحالة». وهذا الوضع أدخلنا في نقاش حول معنى الضراوة العلاجية في حالات كحالة والدتي شبه الميئوس منها، وهي كانت كل يوم تستعيد شريط حياتها الماضية وتحاول الاعتذار ممن أساءت إليهم ولم تنسَ من تعتبر أنه أساء إليها وبخاصة من زوجات أبنائها وتطلب من الله أن يسامحه، وفي نهاية التذكر هذا كانت تتوجّه إلي لتطلب مني أن أساعد الفقراء بعد موتها وتقول: «أنا كنت بخيلة مع الفقراء، أما أنت فساعديهم وأعطيهم المال عن روحي. وبس موت عملولي عزا كبير، إنعو كل المنطقة، ما تروّحوني فطيس». كنا نستمع إليها ونحاول طمأنتها إلى أنها ستعيش وهي تهزّ برأسها كأنها تقول: «أعرف أنكم تكذبون». لكننا تابعنا العلاج على أحسن وجه لمدة عشرين يوماً نُقلت بعدها إلى غرفتها العادية

وقد بدأت تتعافى مع عجز كلي عن الوقوف والسير مما دفعنا إلى اتخاذ القرار بإبقائها في المستشفى إلى أن تستعيد كل قواها وتصبح قادرة على السير وقضاء حاجاتها بمفردها. وبقاؤها في المستشفى حرّر لياليّ إذ ارتحت من اتصالاتها الهاتفية، هذا من جهة، أما من جهة ثانية فكنت مطمئنة لأنها بأمان من حيث العناية إذا أصابها أي مكروه.

«خلال وجودها في المستشفى أخذت تتعافى وباتت قادرة على البلع مما أوقع على عاتقي مهمة إعداد الطعام لها لأنها كانت ترفض كل ما يقدّم لها في المستشفى ولأنها لا تأكل الطعام إلا طازجاً وساخناً، وهكذا بت مضطرة لزيارتها مرتين في اليوم مما شلني عن إمكانية القيام بأي عمل آخر، من دون أي عرفان بالجميل من جهتها وكأن من واجبي الحتمي أن أهتم بها وألبّي كل رغباتها وأن أخضع لكل مزاجيتها، ومع ذلك فهي دائماً غير مكتفية؛ ندخل عليها وفي كل مرة تبادر إلى القول: «ماني منيحة اليوم». مما دفع أخي البكر مرة إلى تعنيفها والطلب منها أن تشكر ربها على ما هي عليه وقال لها: لن أخرجك من المستشفى قبل أن أسمعك تقولين: «كتر خير الله». فأسرعتُ إلى إجابته: «لقد حكمتَ عليها بالمؤبد في هذا المستشفى، لأنها لن تتلفظ بما طلبته منها إطلاقاً». بالفعل لم نسمع هذه العبارة منها ولا مرة واحدة، بل على العكس كانت دائماً تعاتب وتتذمّر مما يدفع بنا إلى الهروب منها وإنهاء زياراتنا لها بأسرع ما يمكن؛ ندخل عليها فنُعاتب ونخرج من عندها بقرف لأنها عادت إلى ما كانت عليه من اعتبار نفسها مركز الكون كله مانعة عنا أي كلام غير الكلام عنها وعن حالتها. غريبة هذه الإنسى التي تحاصر نفسها في دائرة لا تتخطى حدود جسدها وإحساسها به لاغية من حسابها كل ما عداهما.

«المهم أنها بدأت تتعافى، ومع مرور الوقت استطاعت أن تقف على رجليها وأن تسير لكن بمساعدة أحد إلى جانبها. وبعد مضي أكثر من شهر بادرتني يوماً حين دخلت عليها بالقول: «رح إرمي حالي من البلكون إذا ما أخدتوني عالبيت». اتصلت بإخوتي واتفقنا على إخراجها من المستشفى في اليوم التالي وتأمين ممرضة تكون معها كل الوقت إلى جانب الخادمة. نقلناها إلى البيت صبيحة اليوم الثاني لنعود إلى سابق حالنا معها.

ـ وكيف حالها الآن هل استعادت عافيتها؟ سألت هبى بعدما استمعت إلى سردها الطويل.

ـ أمست أحسن من قبل مع فارق بسيط وهو أنها باتت بحاجة إلى عكاز تتكئ عليه لتتنقل داخل البيت. وقد أوصيتُ الخادمة أن تكون دائماً إلى جانبها حين ترغب في السير. والأهم من ذلك أنها ارتاحت من الأوجاع التي كانت تعاني منها عصر كل يوم.

ـ إذاً آلامها لم تكن مفتعلة كما كنت تظنين. قلت لهبى كي أستفزها.

ـ كنت أظن ذلك لأنها لم تكن تشعر بالألم إلا حين أستعد لمغادرتها حوالي الساعة السادسة مساءً، ويبدو، كما شرح لنا الطبيب، أن هذا الوقت بين فترة الظهر والساعة السادسة تقريباً هو الذي كانت تحتاج إليه وجبة الغداء كي تصل، في إمعائها إلى المكان الذي كان ضيقاً قبل أن يُسد نهائياً. وهنا أعترف إنني كنت أظلمها لأن الألم كان حقيقياً. على كل حال أقر بأنها لم تشك مرة من ألم معيّن إلا ويكون له سبب محدد وأكيد. لكن الآن عادت الأمور إلى ما كانت عليه وعدت إلى معاناتي معها من جديد.

ـ يعني أنك، الآن، عدت إلى الدوامة التي كنت تتخبطين فيها قبل مرضها؟

ـ الآن الوضع أصعب لأنها علمت أنني تقاعدت عن الوظيفة وهذا يعني بالنسبة لها أنني بتّ لها كلياً ولهذا السبب أضحت تطاردني في كل الأوقات وليس فقط ابتداءً من الساعة الثانية بعد الظهر كما في المرحلة السابقة. تعلمين أنني كنت أنتظر إنهاء العمل كي أتفرّغ كلياً للكتابة والرسم، لكن، يبدو أن هذا التفرّغ لن يأتي ما دامت لا تتفهّم وضعي وهي لا تتفهمه ولا تعتبره، كل ما يهمها هو أن أبقى معها ليلاً ونهاراً.

ـ لماذا أخبرتها أنك تقاعدت؟ فمجرد إعلامها به يدفعها إلى التفكير بأنك تحرّرت من كل ارتباط وهذا يسمح لها بأن تتمادى في طلبها منك بالاهتمام بها أكثر من قبل.

ـ تسألينني لماذا أخبرتها؟ مسكينة أنت لأنك لا تعلمين كم أن والدتي ذكية وواعية لكل الأمور، فأنا لم أخبرها بل هي التي فعلت إذ قالت لي، مرة، السنة الماضية بعدما تذمّرت أمامها، من روتينية العمل الذي لم أعد أتحمّله، قالت: «السنة القادمة ترتاحين». وتابعت: «انتبهي، طالبي بمعاش تقاعدي لا بتعويض فهو أضمن لك». هل تتخيلين أن إنسى في مثل سنها تنتبه إلى كل هذه الأمور؟

ـ وهذا دليل واضح على اهتمامها الشديد بك. قلت لها، لكنها سارعت إلى القول:

ـ ألا تعتقدين أن هذا الاهتمام هو من باب الرغبة في التماهي بي، لا بل من باب التوحد معي وكأنها تعتبر أننا شخص واحد.

ـ هل تقصدين أنها تود إعادتك إلى رحمها؟ سألتُ هبى.

ـ ما أقصده هو أنها هي التي تود أن تدخل رحمي لتخرج منه ابنةً لي لا أماً. أجابتني وهي تضحك.

ـ إنها تقوم بهذا الدور، وما تعلقها بك إلا تعلق طفلة بأمها، وتعرفين جيداً أن الطفل لا يغفر لأمه أي غياب عنه.

ـ بالفعل إنها مأساة حين تنقلب الأدوار.

لم نكمل جلستنا كما خططنا لها، إذ رن هاتف هبى لتخبرها الخادمة في بيت والدتها أن هذه الأخيرة تعثرت وهي تتوجه إلى غرفتها فوقعت وجرحت كوع يدها وهي الآن تشكو من الألم. وسمعت هبى تصيح: «أين كنت أنت؟» إني آتية فوراً.

استودعتني بعدما شرحت لي الوضع وانصرفت.

«مسكينة هبى، لكنها هي أيضاً مسؤولة عن الوضع الذي تعاني منه». قلت لنفسي قبل أن أنصرف بدوري.

7

مرّ أكثر من أسبوعين ولم تتصل بي هبى، استغربت الأمر واتصلت أنا بها، فسارعت إلى القول: «كنت مشغولة كل هذا الوقت، لكنني مشتاقة إليك، هل نلتقي اليوم؟».

ـ بالطبع فأنا مستعدة لتأجيل كل مشاغلي كي نلتقي. أجبتها وأنا، بالفعل كنت مشتاقة إليها.

ـ إذاً نلتقي حالاً، وافيني إلى المقهى قرب عيادتك، سآتي فوراً.

بعد أقل من نصف ساعة أتت هبى وتعانقنا بحرارة قبل أن نجلس إلى الطاولة ونطلب القهوة، فبادرتُ إلى سؤالها: «لماذا كل هذا الجفاء؟ أين كنت كل هذا الوقت؟».

ـ كنت خارج ذاتي، أما الآن فسأعود إليها.

ـ هيا أخبريني، ما هو جديدك؟

ـ لقد قرّرت أن أنقل والدتي إلى بيتي لتعيش معي.

ـ ولماذا هذا القرار الآن؟ سألتها مستغربة.

ـ لأنني تعبت من الوضع الذي أنا فيه الآن.

ـ.....

أمام صمتي تابعت: «سأروي لك باختصار كل ما مررت به خلال السنوات الأخيرة، هل ما زلت تذكرين ما أخبرتك به عن انتقالنا إلى الضيعة بعد وفاة والدي؟

ـ طبعاً أذكر، لكن مرض والدتك الأخير وانشغالاتك الراهنة، أبعدانا عن متابعة الموضوع.

ـ سأتابعه الآن إن كنت توافقين؛ أنا في حاجة إلى أن أستعيد أمامك كل ما مررت به، فأنا أعلم جيداً أن ما سأبوح به أمامك سيظل بيننا وكأنني أكلم نفسي. ولا أسمح لك بالبوح به إن أردتِ، إلا في رواية تغيرين فيها كل الأسماء الحقيقية.

ـ ثقتك في محلها وأنت أدرى بذلك. أجبتها بكل صدق. هيا تابعي وأنا جاهزة للاستماع.

تنحنحت هبى وبعد صمت قصير قالت:

«في تلك المرحلة كنا في الضيعة كما تعلمين، كنا في الضيعة ننتظر الفرج كي نعود إلى بيوتنا في المدينة وتسلك حياتنا مجراها

الطبيعي. أمضيت ذلك الشتاء برفقة والدتي خاضعة لكل أوامرها معلّلة النفس بأن الأمور ستسوى عمّا قريب. لكن هذا القريب تأخّر إلى ما بعد الثالث عشر من تشرين الأول من تلك السنة، حين أنهت الدولة، بمساعدة الجيش السوري، ما سمي في حينه التمرد العوني. أُنهي التمرد ممهداً لمسيرة السلم الأهلي وبدأ الناس يعودون إلى بيوتهم وفتحت المدارس والجامعات أبوابها وأخذت الحياة بالانتظام من جديد. بعد هذا التاريخ بقليل هيّأت نفسي لمغادرة الضيعة ولأعود إلى عملي في الجامعة ولقاء الأصحاب ومعاودة نمط الحياة السابقة من اجتماعات وتدريس وسهرات و... كنت أخطّط لمسار أمارس فيه حريتي التي ناضلت طوال حياتي للحصول عليها. هل نجحت في تنفيذ مخططي هذا؟

«استيقظنا باكراً ذلك النهار وتوجهنا إلى المدينة بعدما ملأت والدتي صندوق السيارة الصغيرة بكل ما كانت قد أحضرته من مؤونة للشتاء ومن الخضار والفاكهة مما ألزمنا وضع حقائب ملابسنا على المقعد الخلفي بالقرب من الخادمة التي لم يبق لها إلا مساحة جد ضيقة. كنت مصمّمة على أن أوصل والدتي إلى بيتها وأن أعود وحدي إلى بيتي، لكن حساباتي لم تكن صائبة إذ كانت والدتي كانت تخطّط لأمر آخر مختلف جداً عما كنت قد خططت له. وهذا ما أبلغتني به ونحن في الطريق:

ـ حين نصل إلى المدينة نمر أولاً على بيتي لننزل بعض الأغراض ثم أذهب معك إلى بيتك لأنني لا أجسر على البقاء وحدي في البيت. قالت.

ـ لكنك لست وحدك، معك الخادمة. سارعت إلى الإجابة.

ـ أخاف من وجودها معي، «بركي خنقتني بالليل».

«قالت ذلك واستفاضت بإخباري عما فعلته خادمة إحدى جاراتها التي أتت بصديقها إلى البيت في الليل وأخرى سرقت معلمتها وأخرى وأخرى، وختمت قولها حاسمة الموضوع: «لن أمكث وحدي على الإطلاق، إما أن تسكني معي أو خذيني إلى بيتك». «وأضافت لتسهّل الموضوع وتبرّره: «بوجود الخادمة ستستغنين عن هذا السوداني الذي يأتيك مرة في الأسبوع لتنظيف البيت الذي سيظل نظيفاً ومرتّباً، وأنا أتكفّل بتهيئة الطعام لك ولنا، عوض أن تأكلي كيفما كان وفي المطاعم. لماذا نفتح بيتين ما دمنا أنت وحدك وأنا وحدي؟».

«سقط كلامها علي كالماء الغالي واحترت بأمري وبكيفية ثنيها عن قرارها الذي يعني، بالنسبة لي، فقدان الحرية والاستقلالية اللتين فنيت حياتي في سبيل تحقيقهما. فقلت لها:

ـ تعرفين أن بيتي صغير وليس لدي سوى غرفة نوم واحدة والثانية هي مكتبي ومحل عملي و...

لم تتركني أتابع وقالت: «أنت تبقين في غرفتك وأنا أنام في الصالون على الكنبة التي تتحوّل إلى سرير».

ـ وهكذا يتحول الصالون إلى غرفة نوم ولا يعود بإمكاني استقبال أحد. أجبتها.

ـ ربما كان من الأفضل أن تنتقلي أنت إلى العيش معي في بيتي لأنه أكبر من بيتك ويكون لك فيه غرفة مستقلة. أجابتني.

ـ لا أستطيع لأنني في عملي أحتاج إلى مكتبتي التي من غير الممكن نقلها. لا أرتاح إلا في بيتي وبين كتبي.

ـ وأنا لا أرتاح إلا في بيتي لكني غير مستعدة للعيش وحدي وأنت عليك ألا تعيشي وحدك، لازم يكون حدا معك بالليل.

ـ عشتُ سنين طويلة وحدي ولم أحتج إلى أحد. حين كنت تعيشين مع والدي لم تفكري بي وبوحدتي فلماذا الآن تفكرين بها؟ أم أنك تفكرين بنفسك؟ سألتها.

ـ لم أعش يوماً واحداً، طوال حياتي، بمفردي، بدك بهل آخره إبقى وحدي؟

«حاولت المستحيل خلال الرحلة من الضيعة إلى المدينة، لثنيها عن رغبتها وقرارها بالعيش معي ولم أفلح. وحين وصلنا إلى بيتها رتّبت الخادمة الأغراض والثياب وأمرتها والدتي بإحضار حقيبة صغيرة وضعت فيها لباس النوم وفرشاة الأسنان وعدّة الماكياج التي لا تستغني عنها وقالت: «هيا بنا، لن أكثر من الملابس لأن بيتك ليس بعيداً ونستطيع المجيء إلى بيتي وأخذ ما نريده منه في كل لحظة».

«أسقط في يدي ورافقتني والدتي إلى بيتي لتقيم معي ونبدأ نمطاً جديداً من العيش الذي لم أكن قد خبرته من قبل مع اقتناعي بأن الأمر لن يكون سهلاً. صحيح أنني عايشتها لمدة تفوق السنة لكن خلال تلك المدة كنت في إجازة من حالي لكي أتمتّع بكل ما تقدمه الحياة في الضيعة. كنت واضعة ذاتي الداخلية الحقيقية بين قوسين لكي أتمكن من تقبّل والدتي وكل نزواتها، أما وقد عدنا إلى حياتنا العادية حيث أبرمج للقاء مع الذات والتوحّد معها

وتحقيقها في الكتابة التي بدأت أشعر بإلحاحها علي، فإن العيش مع شخص آخر سيعكر أجوائي، فكيف إذا كان هذا الآخر هو والدتي وأنا لا أطيق أن يقاسمني فضائي أحد على الإطلاق؟

«في الضيعة كنا نعيش في بيت كبير مؤلف من طابقين وأمامه حديقة واسعة، مما أشعرني بأن في الإمكان أن يكون لي حيّز خاص ولو لوقت قصير، أما في بيتي الضيق في المدينة فسأحاصر بوجودها الذي سيطغى على كل الفضاء، وهذا لا قدرة لي على تحمّله وسيحرمني من إمكانية تحقيق ما كنت أخطط له من كتابة وقراءة وغيرهما. كنت أهجس بهذه الأفكار وأنا أقود السيارة من بيت والدتي إلى بيتي وهي تهجس بأمور أخرى ظهرت في سؤالها لي عما سنحضره للغداء وقد اقترب وقت الظهر.

ـ آخر همي، أجبتها وأنا مدركة تماماً لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لها.

ـ شو بتبقى بلا أكل يعني؟

ـ لا، لكن أحضري ما ترينه مناسباً، لا فرق عندي بين طبق وآخر. أجبتها كي أترك لها القرار.

ـ لوبية الضيعة طيبة، رح أطبخ لوبيه ورز.

ـ كما تريدين، كان جوابي قبل أن أوقف السيارة ونترجّل منها.

«وصلنا إلى البيت وتكوّمت الأغراض في أرض المطبخ وسارعت الخادمة إلى ترتيبها وتوزيعها على الرفوف والخزائن ووالدتي تستعجلها كي تبدأ في عملية الطبخ بعدما رتّبت أمتعتها في غرفة

نومي التي تحوّلت إلى نوع من المستودع. تركتهما يقومان بما يلزم لإعداد الطعام وغيره وبدأت اتصالاتي بأصحابي. كنت كلما انتهيت من مكالمة تسألني والدتي مع من تكلمت وتبدي رأيها فيه إن كانت تعرفه، وتستهجن مكالماتي مع أشخاص لا تعرفهم وكيف لي أن أعرفهم أنا وحدي.

«بعد الغداء دخلتُ غرفتي للقيلولة التي أتمتّع بها جداً وتركتها وحدها في الصالون. وبما أنها لا تحب النوم في النهار شغّلت التلفاز بصوت عالٍ وجلستُ قبالته، مما اضطرّني إلى إقفال باب غرفتي، لكن من دون نتيجة لأن الصوت ظل يزعجني. هببت من سريري وخرجت إلى الصالون لأخفّف من صوت التلفاز، لكنها اعترضت وقالت: «شو هالنوم بالنهار بقصّر العمر. وإذا بدك تنامي شو بدك ياني إقعد وجي وج الحيط، لا تلفزيون ولا شي؟».

ـ حاولي أن تقرئي كتاباً أو مجلة إن كنت تكرهين النوم في النهار ودعيني أرتاح قليلاً. صرخت بها.

«استجابت لطلبي ودخلت غرفتي من جديد. وما كدت أغفو وأستمتع بالراحة حتى دخلتْ علي وهي تقول: «قومي بكفيكِ نوم». نظرتُ إلى ساعتي فوجدت أنني لم أنم أكثر من نصف ساعة. حين رأتني أنظر إلى الساعة قالت: «أنا ضجرت لوحدي، قومي».

«كلت لها السباب والشتائم بصمت وخرجت من سريري كي أجالسها في الصالون وطلبت من الخادمة أن تعدّ لي القهوة التي بدأت بارتشافها بعدما أشعلتُ سيجارة، فما كان من والدتي إلا أن اشمأزّت وقالت غاضبة: «ريحة الدخان بتزعجني، بطليها متل

ما أنا عملت». كانت في السابق تدخّن أكثر من علبتين في النهار وحين مرضت أختي بذلك المرض الخبيث بسبب التدخين، توقفت عنه والدتي بقرار حاسم وباتت تؤنب كل من يقوم به أمامها. ملاحظتها تلك لم تتركني أتلذّذ بفنجان القهوة والسيجارة. في الضيعة كانت تتفوه بالملاحظة نفسها لكني كنت أستطيع الهرب منها إلى الحديقة أو إلى غرفة ثانية، أما في بيتي لم أعد قادرة على التهرّب من وجودها الدائم قبالتي.

«شعرت تلك الليلة بأن وجودها يحاصرني. حيث ثيابها وأمتعتها اجتاحت غرفة نومي وهي احتلّت الصالون ووجودها الطاغي هيمن على كل البيت ولم يبقَ لي سوى غرفة المكتب الذي كنت في ما بعد ألوذ إليها كي أنعم ولو قليلاً بوحدتي. لكنها لم تتركني مرة واحدة أتمتّع بهذه العزلة فكانت دائماً تدخل علي لتسألني عن أشياء تخطر ببالها من دون أن تراعي حرمة لعمل أو لأي شيء آخر.

«حين أقول إنها احتلت الصالون فهذا يعني أنني بتّ لا أستطيع استقبال أي شخص في بيتي من دون أن تكون حاضرة وحاضرة معها كل ملاحظاتها التي هي غالباً سلبية. فإن زارتني جارة أو إحدى الصديقات تصدّرت والدتي الحديث وكأن الزيارة لها هي وليست لي. أما الأنكى من ذلك فهو أنني بتّ غير قادرة على دعوة أحد إلى بيتي في الليل، أنا التي كان بيتها لا يخلو من تجمع الأصدقاء والسهر فيه حتى الصباح.

«نمط حياتها هو التالي: تستيقظ باكراً وتوقظني ثم تشغل التلفاز الذي لا يتوقف إلا حين تنام ليلاً. بعد أن تتناول الفطور تفكر مباشرة بما سنعدّه لوجبة الغداء مع كل ما يتطلّبه ذلك من ذهاب

إلى السوبر ماركت، ووالدتي لا تقبل إلا أن تختار هي ما نحن بحاجة إليه مما يرتّب علي اصطحابها إلى المحال والدكاكين لأن كل ما أقوم به وحدي في هذا المجال يكون عرضة لنقدها تماماً كما كان يحدث مع والدي. نعود إلى البيت وأحاول أن أعزل نفسي في غرفة مكتبي، لكنها تجد دائماً سبباً لمقاطعتي عما أقوم به. نتناول وجبة الغداء في المطبخ وننتقل إلى الصالون بعد أن تسكب هي بنفسها للخادمة كي تأكل لأنها لا تريدها أن تمدّ يدها إلى الإناء الذي فيه الطعام. ننتقل إلى الصالون حيث أدخن سيجارة على الرغم من ملاحظاتها ثم أدخل غرفة نومي لتعود الكرة من جديد؛ توقظني من النوم لأجالسها ثم آخذها في نزهة كي تفسّح عن نفسها ونعود إلى البيت حيث نتناول العشاء ونجلس أمام التلفاز حتى يحين وقت نومها، فأدخل غرفتي من جديد وتتمدّد هي على الكنبة حتى الصباح لتعود الدوامة هي هي.

«من حسن حظي أن هذا النمط من العيش لم يدم طويلاً إذ باشرت عملي في الجامعة والذي كان يخرجني من البيت لساعات أرتاح خلالها من ثقل وجودها معي. بت أترك البيت صباحاً، حين يكون لدي عمل، وأعود إليه في المساء لأجدها مستنفرة لتوبيخي ومساءلتي عن تأخري: «هل عملك في الجامعة يتطلّب كل هذا الوقت؟» كانت تسألني دائماً.

ـ التقيت مع بعض الأصدقاء وأمضينا الوقت معاً. كنت أجيبها.

ـ بتزربيني بالبيت وبتغيبي كل النهار، أنا رح طق من هالحالة. كانت تجيبني.

ـ وهل تريدين مني أن أتوقّف عن العمل؟ وإذا توقفت عنه فمن أين أؤمن عيشي؟

ـ لا، بس العمل مش كل النهار.

ـ أتغيب فقط ثلاثة أيام والباقي أنا موجودة معك ليلاً ونهاراً. ألا يكفيك ذلك؟

ـ صحيح بتكوني بالبيت بس كل وقتك قاعدة تقري أو تكتبي.

ـ التدريس في الجامعة يتطلب إعداداً جدياً وإلا أفشل في عملي. هل تريدين لي أن أفشل؟ أسألها.

ـ لا، بس شي ومنو، لا طخّو ولا كسور مخّو. كانت تجيبني.

«هذا النمط من العيش ألغاني نهائياً إذ بتّ غير قادرة على ممارسة رغباتي وحتى تلبية حاجاتي، وبدأت أخطّط لطريقة تعيد والدتي إلى بيتها. وبعد مرور شهر على هذه الحالة التي كادت أن تقضي علي، لم أجد سوى الاستنجاد بخالتي والطلب منها، بعدما شرحت لها الوضع، أن تزورنا وتقيم معنا وهكذا أتمكن من إقناع والدتي بأن تستقبلها في بيتها وبأنها لن تكون وحدها بوجود شقيقتها معها. استجابت خالتي لدعوتي وتركت الضيعة في نيّة تمضية الشتاء مع أختها في المدينة.

«وصلت خالتي إلى بيتي قبل ظهر اليوم التالي لاتصالي بها، فاستقبلتها بالترحاب على عكس والدتي التي استهجنت قدومها وعبّرت عن استهجانها بأن سألتها: «كيف تركتي زوجك لوحدو؟».

ـ إنه ليس وحده فما زالت وفاء، وهي ابنة خالتي الصغرى، في البيت وهي صبية وقادرة على القيام بكل ما يحتاج إليه والدها من مأكل ومشرب وغسيل وغيره، وإن اشتاق لها فسيأتي لزيارتها هنا، سارعتُ إلى إجابتها، وتابعتُ: «أهكذا يكون ترحيبك بأختك؟».

ـ أهلاً بها لكن...؟

«فهمت قصدها الذي يعني أن لا مكان لها في بيتي الصغير وكأنها مستبعدة كلياً فكرة أن تعود إلى بيتها، وأجبتها:

ـ اليوم بعد الظهر سأوصلكما إلى بيتك وهكذا لن تكوني وحدك.

ـ أنا جايي زور أختي وإبقى معها هالشتوية، مش جايي لعندك. أجابتني خالتي.

«أسقط في يد والدتي التي لم تتلفّظ بأية كلمة. لكنني قرأت التوتّر والرفض في عينيها، هي التي خطّطت لتمضية بقية حياتها معي. قبلت على مضض ما اقترحته، وبعد تناول الغداء طلبتْ من الخادمة بنبرة حادة أن توضّب الأغراض وتنزلها إلى السيارة. ولكي أبرهن لها أنني لست مستعجلة على إعادتها إلى بيتها، طلبت منها أن تنتظر حتى أستيقظ من قيلولتي وقلت لها:

ـ لا زال الوقت باكراً وسأوصلكما إلى البيت عند الغروب، لشو العجلة؟

ـ لا، خدينا هلق، قالت بصوت مرتفع كأنها تصيح، لتظهر لي استياءها.

ـ عشو مستعجلة؛ تركيها تنام نتفه وبعدين بتاخدنا، قالت خالتي.

ـ الحق معك، أجبتها وتركتهما في الصالون ودخلت غرفتي وأنا مرتاحة لسير الأمور كما خطّطت لها.

«خالتي إنسى مختلفة جداً عن أختها، والدتي؛ هي مرحة ومقبلة على الحياة وتحب الناس والاجتماع بهم ولا تتذمّر إن وجدت وحدها، فهي تعرف كيف تدير أحوالها من دون أن تلجأ إلى أحد. هل علاقتها الجيدة مع والدتها منحتها هذه الطباع السهلة، على عكس أختها التي لم تكن على وفاق مع أمها؟ يقول المثل الدارج إن البطن بستان ينبت أصنافاً مختلفة من الأشجار، وهو قول صحيح إذ إن البطن الواحد قد أنجب هذين النموذجين المختلفين حتى التناقض: والدتي وخالتي. لكن والدتي وعلى الرغم من كل مساوئها لم تكن خبيثة حتى ولو حاولت لأن كل ما تشعر به يبان على وجهها مباشرة، لكنها صعبة المراس والذي يعايشها، عليه أن يظل تحت سطوتها وأن يلبّي كل أوامرها. لهذا السبب كنت أتوقّع ألّا تطيل خالتي المكوث معها. لكن لا بد من المحاولة حتى ولو استمرّت وقتاً قصيراً.

«لم أتمكن من النوم بعد ظهر ذلك اليوم لأنني كنت فرحة بقرب الفرج، وبعد أقل من ساعة خرجت إلى الصالون لأجد الشقيقتين تلعبان بالورق، فطلبت القهوة وجلست قبالتهما سائلة: «من هي الرابحة؟».

ـ أمك ما بتطيق الغلب، بدها تضل هي ربحانة. قالت خالتي.

ـ وأنت ما بتعرفي تلعبي، أجابتها والدتي.

ـ المهم هو تمضية الوقت، أتى تعليقي المقتضب قبل أن أقدّم لخالتي سيجارة وأشعل سيجارتي على الرغم من تذمّر والدتي التي علّقت بالقول: «أنت وياها متل المشاحر، طلعو دخنو بر».

«أوصلتهما إلى بيت والدتي وعدت إلى فضائي لأتمتّع به وألتقي بوحدتي التي افتقدتها لأكثر من سنة، تلك الوحدة التي من خلالها وبها أعود إلى ذاتي وأتمتع برفقتها. لقد اشتقت إلى أن أغور في أعماقي بحثاً عن أناي الذي استلب خلال كل تلك الفترة من إقامتي في الضيعة برفقة والدتي. عدت إلى بيتي ورأسي يضج بالبرامج والنشاطات التي سأنفذها. وأول عمل قمت به هو أنني فردت أدوات الرسم التي كادت أن تتيبّس. فردتها في الصالون الذي تحوّل بعد أسبوع إلى محترف جدي وبدأت بالرسم مرفقاً بالقراءة النهمة لكل ما فاتني خلال الحرب، وأنا تجتاحني رغبة عارمة للكتابة، لكني أسكت رغبتي هذه وطلبت منها أن تستمهلني إلى ما بعد إشباع نفسي بالقراءة. لكن هل كانت تلك النشاطات سهلة التنفيذ؟ بالطبع لا، لأن والدتي كانت تلاحقني عبر الهاتف لتزفّ إلي أخبارها السيئة وشكواها المستمرة من أوجاعها التي باتت لا تنقطع، وكنت أزورها كل يوم بعد الظهر لأقف على حالها ولتلبية كل متطلباتها التي لا تنتهي والتي توردها بالتقسيط كي تشغلني بها كل الوقت.

«بعد أسبوع باشرت خالتي التذمر وقالت لي:

ـ والدتك لا تطاق وعلى من معها أن يكون بإمرتها في كل شيء حتى في الأكل، وأنا لست معتادة على من يراقب ويتحكم بكل تحركاتي، أظن أنني لن أستمر طويلاً معها وعليك أن تدبّري أمورك. أعانك الله عليها.

«حاولت أن أخفّف عنها وطلبت منها أن تتصرّف بكل حرية في بيت أختها متجاهلة ملاحظاتها ومراقبتها، لكنها رفضت وقالت:

ـ الحكي هيّن وأنت أدرى الناس بوالدتك وبطباعها الشرسة. أرجوك اعفيني من هذه المهمّة الصعبة. سأبقى معها إلى أن تجدي حلاً لإقامتها وحدها مع الخادمة في بيتها، لكن لا تتأخّري لأن صبري بدأ ينفد.

«بعد ظهر ذلك اليوم اصطحبت والدتي وخالتي إلى بيتي لأريهما وضع البيت وأنه أصبح غير قابل لاستقبال أحد. حين دخلت والدتي إلى الصالون الذي كان غرفة نومها، تجمدت مكانها وصاحت:

ـ «هادا بيت ولا زريبة؟ شو هلفوضى وشو هلريحا؟ ما بينقعد عندك ولا دقيقة.

«كانت رائحة التنر ومواد الرسم تفوح في كل أرجاء البيت وسرتني ملاحظة والدتي التي أتت كما كنت أتوقّع. أما خالتي فكانت تبتسم بصمت ولم تنبس بأي كلمة تاركة أختها تعبّر عن ازدرائها وامتعاضها من حالة البيت الذي كان قد تغيّر كلياً ليصبح محترفاً وليس مكاناً للسكن.

لكن فرحتي لم تدم إذ سرعان ما قالت والدتي وهي لا تزال واقفة:

ـ كيف عبتنامي بهلريحا؟ شي بيخنق، حتى مقعدة ما بينقعد.

ـ تعودت على الرائحة وما عادت تزعجني. أجبتها.

ـ بس هادا ضرر، لازم تصيري تنامي عندي. قالت بكل جدية.

«هل فكرتْ حقاً بالضرر أم أنها وجدت حجّة لكي أقيم معها ولو في الليل؟ نظرتُ إلى خالتي فوجدتها تضحك وتهزّ برأسها كأنها فهمت ما تقصده شقيقتها وما تقصده هو واضح جداً وهو التالي: أنا ما عدت أستطيع النوم عندك فعليك أن تنتقلي أنت إلى بيتي وهكذا أتخلّص من وجود خالتك الدائم معي.

«فكرت في الموضوع بسرعة ووجدت أن الحل الذي تقترحه والدتي ليس سيئاً جداً، فإن كان الحل أن أبيت عندها وأن أتحرّر من وجودها طوال النهار برفقتي، فلا بأس به. وهو حل يمكّنني من أن أتخلّص منه رويداً رويداً. فأجبتها:

ـ سأجرّب حين ترحل خالتي.

ـ أنا سأرحل غداً إن أردتِ، قالت خالتي بكل جدّية وحماسة، وتابعت أمام صمت والدتي: لو كنت أستطيع الرحيل اليوم لما قصّرت.

«صمتت والدتي ولم تطلب من شقيقتها أن تبقى بضيافتها، وصمتها هذا دليل على أنها تود أن ترحل وتستبدلها بي، وخالتي شديدة الذكاء ولها عزة نفسها وكبرياؤها وهي ترفض أن تمكث في مكان غير مرحّب بها فيه. أمام هذا الوضع سارعت إلى القول، متوجهة إلى خالتي:

ـ لم أقصد من كلامي السابق أن تسرّعي رحيلك بل أن أؤخر التزامي بالنوم عند والدتي.

هنا تدخلت والدتي وقالت مصلحة الوضع:

ـ خالتك تنام في غرفة الضيوف، أما أنت فستنامين في غرفتي على سرير والدك.

ـ سنرى، قلت لأقفل الموضوع، وتابعت سائلة: هل نشرب القهوة؟

ـ لا، أجابت والدتي بسرعة، فأنا لا أقدر على تحمل هذه الرائحة. خذينا في نزهة أو أعيدينا إلى بيتي.

ـ الوقت لا زال باكراً للعودة وأقترح عليكما زيارة السيدة في حريصا. قلت لهما.

ـ السلام لاسمها، قالت والدتي، خدينا نزورها.

«نظرت إلى خالتي فوجدتها غارقة في ذاتها كأنها لم تسمع اقتراحي وترحيب والدتي به. كانت تخطّط ليوم الغد وقالت متوجّهة إلي وهي تخرج من حقيبة يدها ورقة صغيرة:

ـ طلبيلي هلرقم من فضلك.

ـ رقم من هذا؟ سألتها.

ـ رقم صاحب سيارة التكسي، رح إلّو يجي عبكرا بكير حتى إرجع عبيتي.

«حاولت إقناع خالتي بالعدول عن قرارها، لكنها رفضت وكرّرت طلبها، وأمام صمت والدتي ألحّت علي بأن أنفذ ما طلبته مني،

ففعلتُ واتفقتْ خالتي مع السائق على موعد حدّد في تمام الساعة الثامنة من صبيحة اليوم التالي.

«رحلت خالتي وباشرت نمطاً جديداً في الحياة إذ بت أمضي النهار في بيتي وفي عملي في الجامعة، وأبيت مساءً عند والدتي. لكنها لم تكن لتتركني أستفيد من خلوتي النهارية حين أكون في البيت، بل كانت تقاطعني باتصالاتها الهاتفية المتكرّرة لتطلب شيئاً ما خطر في بالها أو لتسألني عن موعد قدومي إلى بيتها أو، ربما، لتتأكد أنني موجودة في بيتي لأنها لا تتحمّل أن أقوم بتنفيذ مشروع ما من دون علمها. تظل تلاحقني إلى حين ذهابي إليها فتستكين وتطلب مني أن أعدّ لها التبولة أو غيرها من أصناف الطعام الخفيف لوجبة العشاء رافضة أن تقوم الخادمة بهذه المهمّة لأنها «تقرف» منها، فالخادمة للتنظيف فقط ولا تسمح لها إطلاقاً بأن تمد يدها لكل ما يتعلق بالطعام.

«أنفّذ أوامرها ونجلس قبالة التلفاز لنستمع إلى الأخبار ونحن نتناول العشاء في غرفة الجلوس حيث لوالدتي فيها مقعد لا تتخلى عنه أبداً، وهو مقعد على كنبة كبيرة قبالة الكنبة التي كانت مخصّصة لوالدي الذي أتخيّله فيه كل ليلة وهو يحتسي كأس الوسكي متجاهلاً ملاحظات والدتي التي لا تتوقّف.

«بعد العشاء أتمدّد على مقعد والدي لمتابعة البرامج التي تختارها والدتي وكنت أفكر: هل هذه المخلوقة التي اسمها والدتي تبغي أن أكون أنا محل والدي الراحل؟ بالأرجح أنها تود ذلك لأنها تعاملني كما كانت تعامله وتطلب مني كل ما كانت تطلب منه وهو باختصار، أن يظل تحت سيطرتها، ينفذ كل أوامرها. مسكين والدي كم تحمّل منها ليتلافى شرها وشراستها وعدم خوفها من

الفضيحة التي حاول الابتعاد عنها كل حياته فاسحاً في المجال، هكذا، لوالدتي أن تمارس كل أنانيتها ونزقها.

«والدتي تحب السهر ومتابعة البرامج التلفزيونية حتى ساعة متأخرة من الليل، فهي لا تأوي إلى فراشها إلا وتكون قد استنفدت كل المحطات. توقف التلفاز وتقول: «صار وقت النوم». ثم تنهض من مكانها وتدعوني لأتبعها إلى غرفتها، وإن تمنّعت متحجّجة برغبتي في القراءة، تستاء وتقول: «شو طلعلك من هالكتب إلي مجمعتيها في مكتبتك ولّي آكلة كل الحيطان في بيتك؟» لا أجيبها وأتركها تدخل وحدها غرفة النوم وأقوم بقراءة ما أكون قد جلبته معي لتمضية السهرة ولا أتبعها إلا بعد ساعة أو ساعتين حين أشعر فعلاً بالنعاس. لكن النوم بجوار والدتي غير مريح أبداً إذ إنها تشخر، وهو أمر خبرته خلال إقامتي معها في الضيعة، ولهذا السبب نقلت، بعد عدة أيام وبعد مناقشة الموضوع معها، نومي إلى غرفة الضيوف وتمكّنت من الاستقلال عنها لساعات النوم على الأقل. وهي لم تعترض، يكفيها أنني معها وتحت نظرها. لكني كنت أستيقظ باكراً وأترك بيتها قبل أن تستفيق، وكثيراً ما كنت أصل بيتي وأسمع رنين الهاتف يسبقني، أفتح الباب وأرد عليها وأسمع تأنيبها على مغادرة بيتها باكراً وتقول: «بركي مت أنا بالليل ما بتستفقديني قبل ما تروحي؟» وأردّد في داخلي: «رح تموتيني قبلك». لكني أجيبها بأنني مشغولة وأنني أفضّل العمل باكراً إن كان في الكتابة أو في الرسم. أقول لها ذلك لكنها لا تسمعني وتظل تلاحقني طول النهار إلى أن يحين وقت ذهابي إليها.

«استمررت على هذه الحالة لمدة سنة، شعرت بعدها بالإرهاق لم تعد والدتي تكتفي بوجودي معها في الليل بل أخذت تقنعني

بتناول الغداء معها لأنها تطبخ كل يوم و: «الطبخة تكفي لي ولها وللخادمة، وهيك هيك عمنكب نصها». قالت.

«حاولت إقناعها بأنني لا أكترث للموضوع وأن عملي أهم من تناول وجبة غداء ساخنة، لكنها لم تقتنع وظلّت تتصل بي كل يوم ظهراً كي أتناول الغداء معها لأنها لم تعد تتحمّل أن تجلس «متل البومة وحدي على الطاولة وجّي وج الحيط». وهذا يعني أنها تريدني معها كل الوقت ولا تسمح بغيابي إلا ساعات التدريس في الجامعة، غير مبالية بما أحتاج إليه من وقت لتنفيذ بعض مشاريعي التي لم تعترف يوماً بجدواها ومشاريعي كانت أن أبدأ بكتابة الرواية التي أخذت تلح علي، وأن أستعدّ لمعرض رسم، وكلاهما يتطلّب، كي ينجح، التفرغ والعزلة وعدم إضاعة الوقت، وكنت قد باشرت كتابة أول رواية حين أتت خالتي لتسكن مع والدتي وكنت آمل أن تطول هذه المساكنة. لكن رحيل خالتي أوقف نشاطي وبت أبحث عن كل دقيقة تنساني فيها والدتي، كي أتابع ما بدأته. لكن تواجدي معها في الليل أضاع مني فرصة العمل، أنا التي تفضل عمل الليل على عمل النهار بخاصة أن عملي النهاري كان متقطعاً بسبب اتصالات والدتي المتكرر بي.

«هذا الواقع الذي ألغاني نهائياً كرمى لعيون والدتي التي لا ترتوي ولا تحسب لغير مصالحها أي حساب أشعرني بالاختناق والإحباط وبلا جدوى حياتي، مما دفعني إلى التمرّد ووضع حدٍ لمتطلبات والدتي التي كادت أن تنهيني كإنسان له حياته وطموحاته الخاصة وجعلت مني عبدة تلبي كل نزواتها، إذ تحولتُ بالنسبة إليها إلى كائن فارغ تشكله على هواها ووفقاً

لمزاجها ومتطلباتها واستبدادها الذي لا يكترث بالآخر ولا يعتبره إنساناً مستقلاً له حياته وخصوصيته التي تختلف عن حياتها وخصوصيتها. والأنكى من كل ذلك أنها اختزلت بي كل الآخرين وكأن ليس لها أبناء غيري، إذ أصبحت أنا كل أولادها وزوجها معاً. نسيت كل الآخرين وركّزت عليّ وحدي. صرت أمثل، بالنسبة إليها، كل الحياة، فهي تحيا بي وتموت من دوني وقد عبّرت لي عن ذلك كي تضعني أمام مسؤولية لا طاقة لي على تحمّلها ولا رغبة إذ وُضعت أمام خيارين؛ إما أن أحقّق ذاتي كما أرغب وأستطيع، وإما أن أدفن ذاتي وألغيها نزولاً عند رغبة والدتي. هل هي مدركة وواعية لما تفعله بي؟ أم أن قوة شخصيتها أعمتها عن كل من حولها؟ وكيف لي أن أزاوج بين الخيارين اللذين بت أتأرجح بينهما؟ هل من مجال للتوفيق بينهما؟ بالتأكيد لا، وعلي أن أختار حيث لا مجال للتردّد؛ أختار ذاتي لأنني مقتنعة بأن «الدنيا نزول» كما تقول حكمة الحياة. أما مع والدتي فالدنيا يجب أن تكون «طلوع» إذ إنها تطلب مني التضحية من أجلها عوض أن تضحي هي من أجلي وأن تساعدني على تحقيق كل ما أسعى إليه.

«تداولت مع إخوتي بالموضوع وطلبت منهم أن نتقاسم المهمة، فأتى ردهم أن أختار ما يناسبني وأنهم غير مستعدين لتلبية كل نزوات والدتي، إذ قالوا: «عليها أن تفهم أن لكل منا حياته الخاصة. نحن مستعدون لأن نقدم لها كل ما تحتاج إليه من الناحية المادية ولنؤمن لها كل أساليب الراحة كي تتركنا نعيش حياتنا بأمان. لقد عودتها أنت على نمط معين من الحياة وعليك أنت أن تغيّريها وتجعليها تقبل بأن تزوريها حين تتمكّنين من ذلك وليس كفرض واجب عليك القيام به كل الأوقات». تفهّمت

قولهم هذا وموقفهم من القضية التي أعاني منها لأن والدتي لا تتصل بهم إطلاقاً ولا تطلب منهم أي شيء مركّزة كل اتصالاتها عليّ أنا وحدي واضعة كل ما تشكو منه على عاتقي من دون أن تجعل الآخرين يشعرون به. فعدم معرفتهم بما أتحمل دفعهم إلى قول ما قالوه، وفهمت منهم أن علي أن أتصرّف. لقد تركوني لارتباكي وتخبّطي بين خيارين كلاهما متعب بالنسبة لي؛ فإذا اخترت أن ألبّي متطلبات والدتي، قضي علي نهائياً، وإن اخترت أن أسلك كما إخوتي، أنبني ضميري وشعرت بالشفقة على والدتي لأنها تخاف الوحدة وهو أمر أفهمه جيداً. لكن ما لا أفهمه هو أنها تحمّلني وحدي معرفة هذا الخوف وهذا ما وضعني في دوامة من الشفقة عليها والغضب من كثرة إلحاحها علي بأن أكون كل الوقت رهن إشارتها، ألبي كل ما يخطر في بالها. بات علي أن أوفّق بين متطلباتها وحياتي من دون أن آمل أن أحداً من أخوتي سيشاركني همي.

«هذه الحالة وضعتني أمام ضرورة برمجة أوقاتي بما يلبي حاجات والدتي ولا يعكّر، إلّا جزئياً، صفو ما أصبو إليه من تحقيق لمشاريعي إن كان في الكتابة أو في الرسم. كان علي في البداية أن أحرّر نفسي من المبيت عندها كي أتمكن من تحرير لياليّ والإفادة منها. بدأت أولاً بمغادرة بيتها ساعة تأوي إلى فراشها؛ أنتظر حتى أسمع شخيرها فأنهض من سريري وأرحل إلى بيتي ويكون الوقت قد تجاوز الساعة الحادية عشرة. في البداية لم تنتبه والدتي لهذا التغيير لكنها سرعان ما اكتشفت ما أقوم به وعاتبتني على سلوكي: «بركي مت بالليل هيك بتتركيني وحدي وبتروحي؟!».

ـ لا أتركك وحدك فالخادمة معك وهي تعرف رقم هاتفي، فإن جد عليك شيء في الليل أكون عندك بأقل من عشر دقائق.

ـ البنت بتنام في أوضتها حد المطبخ وما بتسمعني إذا عزت شي بالليل.

«ناديت الخادمة وطلبت منها أن تنقل سريرها إلى الغرفة المجاورة لغرفة والدتي، وهي التي كنت أنام فيها، وطلبت منها أن تكون متنبّهة لما تطلبه والدتي في الليل. لم تعجب والدتي الفكرة لكنني أصررت على موقفي وأخذت أقلّص وقت وجودي معها، في الليل، تدريجياً حتى تمكنت أخيراً من مغادرتها قبل الساعة الثامنة. وهكذا بت أستفيد من فترة الصباح وفترة المساء مما مكّنني من كتابة أول رواية وإنجاز بعض اللوحات المائية والزيتية. لكن والدتي لم تصدق أنني أكتب في الليل حتى رأت الرواية وطلبت مني نسخة منها لتقرأها. كنت أفضل ألا تقرأ والدتي الرواية لما فيها من جرأة في التعري، لكنها أصرّت على طلبها وقرأت الرواية وأتى رأيها كما كنت أتوقع إذ قالت لي حين انتهت منها: «شو هالفضيحه، واحد بيكتب عن حالو متل ما كتبتي؟».

«لم تتطرق إلا لهذه الناحية في الرواية ولم تلمّح إطلاقاً إلى دورها فيها حيث جعلتُ منها ابنتي الصغيرة التي ليس لها أحد والتي علي رعايتها والاعتناء بها. لكنها باتت تصرّح أمام الآخرين حين يسألونها عني فتقول: «كنت أمها، فصارت أمي، بلاها ما فيي عيش». استمرأت هذا الدور وأخذت تلعبه بمهارة فائقة إذ باتت تتصرف كأنني مسؤولة عنها نهائياً. تحولت إلى طفلة صعبة المراس ويصعب التعامل معها؛ فلو كان لي ابنة لتصرّفت معها بقسوة إن تمادت في طلباتها، لكن الأمر يختلف مع والدتي إذ

إنني لا أستطيع زجرها ولا حتى تأنيبها أو لومها على ما تقوم به، وإن تجرأت مرة وانتقدت سلوكها معي، انتفضت وبدأت بندب حظها وانتهت بالبكاء أو بالشكوى من ألم ما في معدتها أو بطنها أو... مما يرغمني على الاعتذار منها كأن أنا المخطئة. إنها تتقن فن الابتزاز إتقاناً عالياً، فهي تعلم جيداً أنني ضعيفة أمام ألمها أو بكائها، فتلجأ إليهما كي تمنعني من اتخاذ أي قرار في الابتعاد عنها ولو لفترات قصيرة.

«في بداية كل سنة كانت تستعلم عن ساعات تدريسي في الجامعة وعن الأيام التي علي فيها الذهاب إلى العاصمة حيث الفرع الأول لكلية الآداب في الجامعة اللبنانية. تستعلم كي تبرمج أوقاتها معي؛ وأيام مكوثي في البيت كان يفاجئها المرض فتتصل بي لتقول: «أنا مني منيحة، أو ضايق صدري أو بطني بيوجعني أو...» فأجيبها بحسب كل حالة وأطلب منها أن تأخذ الدواء المناسب. تقفل الخط وهي تقول: «طيب طيب تركيني موت وحدي». وإذا لم ألب رغبتها بأن أذهب إليها، أعادت الكرّة، لكن هذه المرة بصوت منخفض ومتقطع لتقول لي إنها أخذت كل الأدوية ولم يتحسّن وضعها. أحتار في أمري وأتساءل هل ما تشكو منه والدتي هو حقيقي أم تمثيل كي ترغمني على أن أكون معها؟ أرتبك وأحاول «التطنيش» لكن ضميري يبدأ بتأنيبي: ماذا لو كان ما تشكو منه والدتي هو حقيقي؟ وهكذا أرى نفسي أركب سيارتي لأذهب إليها وأمكث عندها أو لآتي بها إلى بيتي. في الحالتين كانت تستمر بشكواها لفترة ثم تعود إلى وضعها الطبيعي بعد أن تكون قد تأكدت أنني لن أتركها.

«هذا الوضع دام لأكثر من ثمانية عشرة سنة بشتائها وربيعها

وصيفها وخريفها ولياليها ونهاراتها وعدد ثواني ساعاتها، دام ليسلب مني أفضل سنين حياتي؛ كنت قد خططت لذاتي برنامجاً يقوم على الكتابة والرسم والقراءة والسفر والترفيه، وبفضلها لم أنجز ما كنت قد رسمته لنفسي كي أحقق ذاتي، لكني لم أيأس، كنت أحاول وأحاول كي لا تنتصر علي وتمحوني لتحولني إلى مجرد صورة عنها أو إلى مرآة ترى نفسها فيها هي التي تناست فارق السن بيننا وفارق التطلعات والأهداف. دام الصراع بيننا طويلاً لكني تمكنت من سرقة بعض الوقت كي أنظر إلى نفسي وأداريها من طغيانها الذي لا يرتوي مهما قدمنا له هي التي لم تتمكّن من أن تجد لنفسها رفيقة أو صاحبة طوال حياتها؛ كلهن «بضاعة خر» كما كانت تردّد أمامي كي تفهمني أنها لا تثق إلا بي أنا وأنه يجب علي أن أكون رفيقتها وصديقتها وابنتها وأمها وأختها وطبيبها في الوقت نفسه.

«حاولت كثيراً أن أتفهم حالتها وما يدور في داخلها من خلال ما عانته في طفولتها من كره أمها لها، كما تدّعي، لكن تفهمي هذا كان يتوقف عند حدود قدرتي على التحمل وأنا من الأشخاص الذين يتحملون الكثير قبل الانفجار الذي كان يأتي أحياناً مدوياً، إذ كنت في داخلي أتمنى لها الموت كي أرتاح. لكن هذا التمني كان يدفع بضميري إلى تأنيبي فأعود وأطلب من الله أن يختار واحدة منا ويأخذها إليه. كنت في تلك الحالة كمن يسخر من الله ومن نفسه ويتكاذب عليهما ويخادعهما إذ إن رغبتي الحقيقية كانت في أن يأخذها الله هي لا أنا. وبعد عذاب مرير فكّرت أن أجد لها صديقة تقاسمني الوقت معها، فزرت إحدى جاراتها، وهي إنسى في سن والدتي تقريباً، وطلبت منها أن تتبادل الزيارات مع والدتي من وقت لآخر، لكنها أجابتني بأنها تتمنى لو تزورها

والدتي لأنها لا تستطيع أن تترك زوجها المقعد وهي مستعدّة أن تتسلى معها بلعب الورق كل يوم بعد الظهر. أقنعت والدتي بالأمر ومن حسن حظي أنها انسجمت مع تلك السيدة الفاضلة وباتت تقضي معها بضع ساعات بعد ظهر كل يوم حتى الساعة الخامسة أو السادسة مساءً ثم تعاود الاتصال بي وتنغّص سهرتي وتستمر بالاتصال بي إلى أن آتيها وأبقى معها حتى خلودها إلى النوم الذي لا يكون إلا في ساعة متأخرة من الليل ولا أعود إلى بيتي إلا وأنا منهكة.

«لكن هذه الحالة وعلى الرغم من أنها لم تحل المشكلة إلا لساعات قليلة يومياً لم تدم إلا أشهراً معدودة لأن زوج الجارة توفاه الله واضطرت إلى الانتقال للعيش مع أحد أبنائها. رحلت الجارة وعدنا إلى سابق عهدنا فعاودتُ الكرة مع جارة ثانية وكانت أرملة تعيش مع بيت أخيها في الطابق الذي يعلو الطابق الذي تسكنه والدتي. الجارة الجديدة إنسى طيبة ولديها ابنة وحيدة تعمل ممرضة في أحد المستشفيات في بيروت ولا تزور أمها إلا يوم الأحد، تزورها وتمضي النهار معها وتبيت عندها في بيت خالها. طلبت من تلك السيدة أن تزور والدتي كل يوم بعد الظهر وتتسلى معها بلعب الورق، وافقت على طلبي لكنها قالت إنها لا تستطيع المجيء إلى بيت والدتي إلا حوالي الساعة السادسة مساءً وتمكث معها حتى الساعة التاسعة. تفهّمتُ وضعها وتفهمتْ وضعي وباتت تزور والدتي كل يوم بحسب توقيتها مما رتّب علي أن أتواجد مع والدتي كل يوم من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى السادسة حيث كنت أتحرّر منها وأعود إلى بيتي وعالمي. لكن تحرري هذا كان ينتهي عند الساعة التاسعة حيث يرنّ جرس الهاتف ليأتيني صوت والدتي شاكياً لي آلامها

وأوجاعها. كنت أحياناً أتصل بالجارة وأسألها كيف تركت والدتي، وكان جوابها الدائم أنها تركتها بأحسن حال وأنها أمضت السهرة بلعب الورق من دون أي تذمر أو ألم. كنت أطمئن وأتصل بوالدتي لأطلب منها أن تخلد إلى النوم وأني سأكون عندها في اليوم التالي، لكنها ما كانت تقتنع من كلامي وتتلاعب بصوتها كي تبرهن لي أنها تتألم وأن وجودي إلى جانبها ضروري، وكنت أحياناً ألبي رغبتها وأحياناً أرفض وفي الحالتين كانت تنام ولا تصحو طوال الليل، كما كانت تخبرني الخادمة الفيليبينية التي ترافق والدتي ليلاً ونهاراً.

«دام هذا الوضع أكثر من سنة حيث كنت أمضي كل يوم بعد الظهر مع والدتي من دون أن ترحمني وتغفر لي غيابي ولو ليوم واحد. وأتت نهاية تلك الفترة بسبب زواج ابنة الجارة وانتقالها للعيش في بيروت وطلبها من والدتها أن تسكن معها. انتهت تلك المرحلة واضطررت إلى نقل والدتي إلى بيتي. لكن وجودها معي لم يكن مريحاً على الإطلاق لأنها تتدخّل في كل شاردة وواردة؛ إذا اتصل بي أحد أو اتصلت بأحد عبر الهاتف تسأل «من، وماذا يريد؟ وماذا قال؟» وإذ أجبتها بإنها لا تعرفه أو لا تعرفها تستاء وتغضب إذ كيف لي أن أعرف شخصاً ما هي لا تعرفه. وإذ زارني أحد تصدرت هي الجلسة وسلبته مني وكأنه آتٍ لزيارتها هي، وإن تجاهلها وتوجه إلي غضبت وأظهرت غضبها وامتعاضها، وغالباً ما كان الزائر أو الزائرة من أصدقائي يُدفعون إلى المغادرة قائلين لي: «في المرة الثانية نلتقي خارج بيتك». وحين كان ينصرف الزائر تبدأ بتقييمه بحسب مقاييسها؛ فإن سايرها كان جيداً وإن تجاهلها نعتته بأشنع النعوت ونصحتني بعدم معاشرته لأنه يريد لي الشر.

«أما الطامة الكبرى فكانت عند استعدادي للخروج من البيت؛ فإن كنت ذاهبة إلى الجامعة رضيت وسألتني عن ساعة عودتي لتبدأ مطاردتها لي بعد هذه الساعة إن لم أعد مباشرة إليها، أما خارج هذا الإطار فكان ممنوعاً علي أن أتركها وحدها مع الخادمتين في البيت وتطلب مني أن ترافقني، وإن رفضت «برمت بوزها» وحاولت استبقائي إلى جانبها لأن نوبة ألم مفاجئة انتابتها. أكفر لربي وأحاول مداواتها، ولا تستكين إلا حين تتأكد أنني عدلت عن مشروع الخروج من البيت.

«وفي ما يتعلق بأمر الطعام كانت صعبة جداً إذ إنها لا تقبل أن تأكل «من إيد الصانعة» وتطلب مني أن أعدّ بنفسي وجبة الغداء أو العشاء أو سواهما وأقول لها:

ـ أنا دربت الخادمة وهي تعرف الآن أن تحعدّ كل أصناف الطعام وأنا ما عدت أهتم لهذا الموضوع. وتجيبني:

ـ أنا بقرف، وإذا ما إنت عملت الغدا بقعد بلا أكل.

«أما برامج التلفزيون فيجب أن تكون على مزاجها، ولا تتقبّل أي برنامج أحاول حضوره من دون موافقتها، ولا تنتقل إلى سريرها الذي هو سريري إلا حين تتأكد أنني أويت إلى النوم في الغرفة الثانية التي كنت قد جهزت فيها سريراً صغيراً لا أرتاح عليه جيداً. ومحاولة منها لإطالة إقامتها عندي جرّبت مرة أن تردّ لي غرفتي وسريري، وحين تمدّدت على السرير الصغير نهضت مسرعة وهي تقول: «ما فيي نام عليه بيعقرلي ظهري». وهكذا عادت إلى النوم في سريري تاركة السرير الذي «يعقر الظهر» لي أنا من دون أي تردد. ودام الوضع على ما هو عليه إلى أن طفح الكيل وأخذت

أفكر بطريقة تعيدها إلى بيتها. فكرت في الموضوع وتشاورت في الأمر مع إخوتي الذين وافقوني الرأي على ضرورة عودتها إلى بيتها، لكن مع تأمين مرافقة لها بالإضافة إلى الخادمة، مرافقة تأتيها في النهار وفي الليل حتى مبيتها.

«فكرتُ في الموضوع عدة أيام ووجدت إمكانية الحل باللجوء إلى إحدى جارات والدتي وهي إنسى غير متزوجة في الستين من عمرها وتعيش مع أخيها. فكرت أن أغريها بالمال الذي لا يبخل به إخوتي وأن أطلب منها أن تعدّ مرافقتها لوالدتي وظيفة. لم أتردّد وذهبتُ أولاً إلى جيران هذه الإنسى أستشيرهم في الأمر وطلبت منهم أن يفاتحوها في الموضوع بطريقة غير مباشرة لمعرفة مدى رغبتها أو رفضها لمهمة كهذه. وفي اليوم نفسه اتصل بي الجار وأبلغني أن «يولا» وهو اسم تلك الإنسى، تقبل بما عرضه عليها، لكن علي أنا أن أبحث موضوع الأجر معها. فرحت بهذا الخبر ووافق إخوتي على أن يقاضوها الأجر الذي تطلبه هي. وهكذا أسرعت إلى ملاقاة تلك الجارة واتفقت معها على كل شروطها المادية ووافقتْ هي أن تتواجد مع والدتي في الصباح بين الساعة الثامنة والثانية عشرة، وبعد الظهر من الساعة الخامسة حتى التاسعة أو العاشرة، وبقي علي تأمين دوام بعد ظهر كل يوم كما في السابق. قبلت بهذا الحل المزعج وقلت لنفسي: «على الأقل أستفيد من فترتي الصباح والليل». لم يبق إلا ابتكار طريقة إقناعها بالعودة إلى بيتها وقد تولّت شقيقتي المهمّة وأقنعت والدتي بعد شرح طويل أن إقامتها في بيتها أفضل لها ولي. قبلت والدتي على مضض وأسمعتني التأنيب المنتظر واتهمتني: «استتقلتي مني وأنا وحده الله يساعدني».

«المهم أنها انتقلت من جديد إلى بيتها، وانتظم توقيت دوام الجارة، وبتّ أزورها كل يوم بعد الظهر مع ملاحقتها لي بواسطة الهاتف كل فترة غيابي عنها لتشكو لي عن ألم ما أصابها أو لتستوضح عن ساعة عودتي إليها أو لألف سبب وسبب. أزورها فتنسى كل آلامها إلى قرابة الساعة الرابعة والنصف حيث يعاودها الوجع في بطنها أو معدتها أو... مما يضطرني للبقاء عندها بعد مجيء الجارة إلى أكثر من ساعتين أتحرّر بعدهما لأعود إلى بيتي لألاحق من جديد باتصالاتها الشاكية والتي كانت غالباً ما ترغمني على العودة إليها مساءً والبقاء معها حتى ساعة نومها، والجارة تردّد على مسمعي: «لن تتركك ترتاحين فهي إنسى لا تحب إلا ذاتها ولو على حساب راحة كل الناس وبخاصة راحتك أنت، وإن جاريتها في كل ما تطلبه منك فستقضي على حياتك لأنها إنسى صعبة جداً ولا يعجبها أحد».

«هذه الحالة المأساوية التي لم ترحمني خلالها ولا يوماً واحداً دامت لأكثر من سنة قبل أن يتأزم وضعها وننقلها إلى المستشفى حيث أبقيناها فيها مدة شهرين ونصف الشهر وأنا أزورها كل يوم مرتين، صباحاً وبعد الظهر، قبل أن تلح علينا بنقلها إلى بيتها من جديد لنعاود الكرة مع دوام الجارة ودوامي معها مع، الإشارة إلى أنها باتت لا تستطيع السير من دون مساعدة مما دعانا إلى الطلب من الخادمة ملازمتها كل الوقت كي لا تقع وتصاب بكسور. وعلى الرغم من ذلك كانت تستغيب الخادمة لدقائق وتحاول السير وحدها فتقع وتتصل بي الخادمة وآتيها مسرعة تاركة أي عمل مهما كانت أهميته. آتيها وأنا أشتم حظي وأشتم الساعة التي ولدت فيها من تلك التي اسمها والدتي والتي لا يهنأ لها عيش إلا وأنا قبالتها. أقيم عندها وأنا بحالة توتر وغيظ ونقمة عليها وعلى

إخوتي وحظي في هذه الحياة التي حرمتني من مساعدي الأساسي وهو والدي. أثور وأغضب وأغادرها لأعود إلى ملجئي وبيتي لكي أتمكّن من متابعة ما أقوم به من كتابة أو غيره. لكن بعد أن أرتاح قليلاً أتهاوى في حالة من تأنيب الضمير وبالشعور بالشفقة على تلك الإنسى التي ليس لها سواي ولا تأنس إلا إليّ؟ هذا الشعور كان يؤلمني، فلا أشعر بالاطمئنان ولا للحظة واحدة مما حوّل حياتي إلى جحيم لا أدري كيف الخروج منه.

«في تلك المرحلة عاد أخي الطبيب من الولايات المتحدة، عاد ليمكث بيننا بضعة أسابيع. وبما أنه شديد التعلق بي ويودّ أن أكون برفقته خلال إقامته في لبنان فأنا ألبي رغبته دائماً، فهو لا يقيم بيننا إلا لفترة قصيرة كل سنة ولأنني أشعر بنوع من الأمومة نحوه، هو صغير العائلة وكان قضى حياته في الغربة بعدما فرّ من هول الحرب ومخاطرها والتي كادت أن تودي بحياته في يوم من الأيام هو الذي سمي «السبت الأسود». يومها نجا بأعجوبة مما دفعه إلى اتخاذ قراره بمغادرة البلد وبخاصة أنه كان في مرحلة التخصّص في الطب فاختار الولايات المتحدة حيث أقام وتزوج وأنجب. لكنه لم ينسجم يوماً مع العقلية الأميركية وما عودته في هذه المرحلة إلا ليبحث موضوع إنهاء غربته وإكمال حياته بين أهله وربعه. لهذا السبب كان لزيارته لبنان هذه المرّة طعم مختلف وهو أمر دفعني إلى الاعتناء به أكثر من زياراته السابقة كي أشجّعه على حسم أمره بالعودة.

«لكن اهتمامي بأخي خلق لي مشكلة مع الوالدة إذ باتت محاصرتها لي أكثر إلحاحاً فتلاحقني بالهاتف أينما وجدت لتخبرني أنها ليست بخير، وبدأت تتهمني بأنني أتركها لأنه أصبح

لي عشيق يأخذني منها وعاتبتني مرة إذ قالت:

ـ بتتركيني وبتروحي عند هادا لي عشقانتيه من جديد؟؟ هادا أملي فيكي؟

ـ من هو عشيقي الجديد؟ سألتها.

ـ هونيك خرا من بيت... بعد ناقصنا بيت...

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ خيك الأمير كاني. أجابتني بكل جدية وتابعت: عادتن الشب هوي ليبيلفي عالبنت، مش عيب عليك أنت تلفي عالشب؟ كل الناس عمتحكي عليك.

«أمام هذا الهذيان تمالكني الضحك لكنّني أسفت لوضعها الذي بدأ يتدهور وتفقد وعيها. أخبرت أخي بالموضوع فضحك وقال: «خلص خوتت إمك».

«لكن هذا الفقدان للوعي عند والدتي طرح علي أسئلة عديد؛ لماذا أتى خرفها على هذه الناحية ولماذا تتهمني بأني أتركها من أجل عشيق جديد؟ لماذا لم تقبل بأن أتركها لساعات لأتواجد مع أخي؟ هل أصبحت تغار من ابنها الذي يأخذني منها ولهذا السبب حولته إلى عشيق من مستوى رديء جداً كي تذلّني وتدفعني إلى الاهتمام بها من جديد؟ أم أنها تغار مني وتتهمني بما لم تستطع اتهامي به حين كنت فعلاً عاشقة وهي كانت لا زالت تملك كل قواها؟ كنت ألاحظ أنها تغار من علاقاتي وتعبر عن تلك الغيرة بالمكابرة إذ تقول: «أنا ما كان حدا يسترجي يحكي معي، كنت

حطو عند حدو، كتار لي حاولو بس أنا أطهر من مريم العدرا». وهذه العبارة الأخيرة ردّدتها مرات عديدة على مسمعي مما دفعني إلى محاولة تحليلها لفهم ما هو قصد والدتي الحقيقي. هل كانت تعني أنها لم تعرف إلا زوجها أم أن الأمر أعمق من ذلك؟ أظنه أعمق وهو مرتبط بأنها لم تعرف النشوة الجنسية إطلاقاً، فما كانت تقوم به مع والدي من علاقات جنسية كان من باب الواجب وللإنجاب فقط وليس للمتعة كما هو الدور الحقيقي للجنس. إنها فعلاً أطهر من مريم العذراء بهذا المعنى؛ فإن حملت وأنجبت مريم من دون دنس فهي أيضاً حملت وأنجبت من دون أي شعور بالدنس لأنها لم تتمتّع. وهنا أراني أميل إلى اعتبار أن ما يسمى بالدنس ليس العلاقة الجسدية بل بما توفره هذه العلاقة من شعور وإحساس، ولهذا السبب أستطيع أن أجزم أن غالبية النساء من جيل والدتي هن طاهرات ويضاهين أمنا مريم بطهارتها. لكن السؤال يطرح: هل الشعور باللذة هو الدنس؟ بالتأكيد لا، لكنه دنس عند المغفلات اللواتي لا يعرفن أجسادهن ولا يردن التعرّف إلي حقيقته واللواتي هنّ ضحايا الأعراف والتقاليد البالية والتربية الطهرانية الدينية وبخاصة المسيحية منها والتي ترى أن الجسد هو الفاسد وبالتالي كل ما يتصل به هو أيضاً فاسد وعلينا قمعه كي نحظى بما يسمى القيمة الحقيقية».

ـ لكن إذا وافقنا على هذا التحليل تصبح غالبية المومسات طاهرات ولو أنهن يتعاطين الجنس مع كل أصناف الرجال. أتى تعليقي المقتضب. لكنها لم تعره اهتماماً وتابعت:

ـ الطهارة التي تتغنى بها والدتي لا تقتصر على طهارتها هي فقط، بل على كل ما يتعلق بها وبخاصة بناتها اللواتي تريدهن

طاهرات مثلها ولهذا السبب كانت، طوال حياتها، ترفض علاقاتي ولم تسامحني على طلاقي من زوجي لأن الزواج بنظرها هو العلاقة الشريفة الوحيدة، وكل ما عداه هو من باب البغاء أو العيب. لكنها لم تجسر يوماً على مناقشتي وكانت تسلك كالنعامة التي تطمر رأسها في التراب. لكن في هذه المرحلة المتأخرة من حياتها عبّرت عن رأيها بأن اتهمتني أنني عاشقة وهو اتهام لإذلالي، وكل ذلك لأنني ابتعدت عنها قليلاً في فترة وجود أخي في لبنان. ففي نظرها لا أبتعد عنها إلا بسبب العشق، هذا ما تريده ولو لم يكن الحقيقة إذ إنها تعتبر، بهذا الاتهام، أنها تتمكن من استعادتي إليها لأنه، بنظرها، اتهام مذل يمكن أن يردعني.

«لكن ما غيّر المعادلة هو أنه، في يوم من تلك المرحلة، حاولتْ، كعادتها أن تسير من دون مساعدة أحد، فسقطت على وجهها وجُرحت جبهتها. وحين أعلمتنا الخادمة بما حصل، هرولنا إليها لنجدها بحالة سيئة جداً، كان وجهها منفوخاً وعيناها غائرتين، قرّرت أن أنقلها إلى بيتي لتكون تحت نظري دائماً. لكني أجّلت تنفيذ هذا القرار إلى ما بعد رحيل أخي. وهذا ما حصل بعد أسبوع. ويوم قرّرنا نقلها إلى بيتي أتى أخي المقيم في لبنان ليساعدني في عملية النقل، لكنها فاجأتنا بأنها لن تبقى لحظة واحدة برفقة خادمتها التي اتهمتها بكل النعوت: «هذه الشر... لن أبقى معها دقيقة واحدة. إما هي وإما أنا، دعوها ترحل. هي التي دفشتني فوقعت». ووالدتي، وعلى الرغم من كل سيئاتها، فهي لا تكذب. لكن للضرورة أحكام، وكنت بحاجة إلى تلك الخادمة فحاولت إقناع والدتي بأن الخادمة ضرورية لها لأن خادمتي لا تستطيع، وحدها، أن تقوم بالواجب، لكنها تشبثت بموقفها

واضطررنا إلى نقل والدتي وحدها إلى بيتي ورحّلنا الخادمة الفيليبينية.

«بالفعل كان من المستحيل أن تتمكّن جوها، خادمتي، من تلبية كل حاجات والدتي واضطررت إلى مساعدتها وهو أمر أرهقني إذ إنه استهلك كل أوقاتي. ولحل المشكلة اتصلنا بأحد المكاتب الذي يؤمن خادمات بسرعة وأرسل إلينا واحدة، لكنها لم تستمر أكثر من يوم واحد. حاولنا مع مكتب آخر وأتتنا خادمة إثيوبية أمضت برفقتنا أسبوعاً كاملاً. لكن ذلك الأسبوع حفل بتطورات غريبة:

«طيلة ذلك الأسبوع كانت والدتي في حالة توتر عالية وأخرجت كل مكنوناتها السلبية وهي ترفض كل ما نقدمه لها وتتهمنا بأشنع الصفات التي تصب كلها في ادعاء كرهنا لها. وبلغت قمة التوتر هذا آخر الأسبوع حين زارني أخي كعادته فنعتته بأشنع التهم ودعت علينا، نحن أولادها لأننا لا نصدق أقوالها، وأنهت كلامها بأنني أرغمتها على المجيء إلى بيتي، هي التي لا تود أن تفارق بيتها. كلامها هذا كان كذباً لأن أمنيتها كانت ولا زالت أن تعيش معي، لكن ربما صدقت في قولها أنني أرغمتها على الانتقال إلى بيتي لأنها كانت ترغب في أن أنتقل أنا إلى العيش في بيتها لكي تحتفظ بكل سطوتها إذ أكون أنا معها وليست هي معي. أفرغتْ في ذلك اليوم كل ما عندها وهي تصرخ بأعلى صوتها، وحين اقترب منها أخي ليواسيها أبعدته، لكنه أصرّ وحاول تقبيلها على جبهتها كي تهدأ، لكنها رفضت، لا بل أخرجت كلاماً بشعاً جداً إذ قالت له: «إنها بوسة الشياطين». صمت أخي ولم يجبها لأنه أدرك أنها، بالفعل، فقدت كل عقلها، ابتعد عنها

وعاد إلى مكانه وهو يهز برأسه ألماً عليها وغضباً منها، وقبل أن يتركنا وينصرف توجه إليّ وقال: «أالله يحمل معك».

«بالفعل طلبتُ العون من الله كي أتمكّن من تحمّل وضع والدتي الدائم التوتّر وخاصة أنها صبّت جام غضبها على خادمتي «جوها» التي رافقتني منذ عشر سنوات ولم تتركني أبداً؛ باتت تلك المرافقة الأمينة أكثر الناس شراً بنظر والدتي التي أخذت تحرّضني على صرفها وترحيلها إلى بلادها سريلنكا. وهنا ثارت ثائرتي ووقفت بوجه والدتي وعنّفتها بالكلام وحاولت أن أفهم منها ماذا تريد بالفعل، لكنها كانت تستنفر وتصرخ بأعلى صوتها: «هدي مش منيحة، بعتيها عبلادها، رح تجنني، شو بدك فيها؟»

ـ إنها ممتازة وهي رافقتني منذ عشر سنوات ولن أتخلى عنها بسبب نزواتك التي ما عادت تحتمل. كنت أجيبها.

«لكنها لم تعر إجاباتي أي اهتمام وأخذت تعنّف «جوها» وتشتمها وتنعتها بأشنع النعوت حتى يئست خادمتي من الوضع وطلبت مني أن أرحّلها إلى بلادها لأنها لا تتحمّل مزاج والدتي وكلماتها وشتائمها. حاولت أن أهدئ جوها وأقول لها إن والدتي فاقدة الوعي وأن لا تعير اهتماماً لما تسمعه منها، لكنها أصرّت على الرحيل وهو أمر لم أكن لأتحمله في تلك المرحلة، فوقفت بحزم بوجه والدتي التي، في آخر المطاف، طلبت مني أن اختار بينها وبين جوها: «أنا ما بقعد ولا دقيقة مع هذه الشر...» قالت لي، فما كان مني إلا أن أجبتها:

ـ سأعيدك إلى بيتك وتدبري أمورك وحدك.

«وقفتُ هذا الموقف الحازم لأنني فهمت مقصد والدتي، كانت

تريد أن تبعد كل الناس عنها كي أتكفّل وحدي، بخدمتها وهكذا تضمن أنني لن أغادرها أبداً حتى ولو لساعة واحدة. كان هذا مخطّط والدتي التي لم تع أنها أصبحت عاجزة كلياً وأنها بحاجة إلى أكثر من شخص للعناية بها. وبسبب عدم وعيها هذا وإصرارها على إبعاد كل مساعدة، هدّدتها: «إما أن تتقبّلي وجود جوها ومساعدة لها، أو ننقلك إلى مأوى للعجزة ونرميك هناك وحدك». بعد تهديدي هذا لم تتغيّر لأنها تعلم جيداً أننا لن نضعها في مأوى، بل قالت لي: «انقليني إلى دير للراهبات، أحلى عليي من هالعيشة الخرا مع جوها إلّي بدها تستبد فيي، ما خلق إلّي بدو يتحكم فيي».

«خلال هذا الأسبوع الأول الذي أمضته في بيتي، أظهرت والدتي كل بشاعاتها وتحكّمها وتجبّرها واستبدادها، أخرجت كل ما في داخلها من مكبوتات وبانت على حقيقتها السافرة التي لا ترحم أحداً ولا تحسب لغيرها أي حساب، وكان يوم الأحد قمة التصعيد الفجوري وقد أرغمت أخي وأختي على مغادرتها وهما مستاءان جداً من حالتها التي، بنظرهما، باتت لا تطاق وفكّرا في إمكانية نقلها إلى أحد الأماكن الخاصة بمثل حالتها كي يرتاحا ويريحاني من حمل هذا الوزر الذي، بالفعل، ما عاد يحتمل. انصرفا وتركاني مع جوها والمساعدة الثانية لنمضي ليلة من أصعب الليالي حيث لم تكنّ والدتي ولم تهدأ من النقّ والصراخ ونعتنا بأحطّ النعوت لأننا، بنظرها، لا نهتم بها كما ينبغي وكما تستحق».

صمتت هبى لدقائق كي ترتاح من السرد الذي يبدو أنه لا ينتهي، ثم تابعت والتعب بادٍ عليها:

«ما تحمّلته البارحة كان أفظع ما عانيته معها وكدت أفقد أعصابي ولم أعرف كيف أتى الصباح كي أستعدّ لمغادرة البيت بعد أن أتصل بك، لكنك سبقتني واتصلت أنت وكأن بيننا موعداً. وما أن أقفلت الخط حتى غادرت البيت ملقية همها على عاتق الخادمتين وحسن تدبيرهما.

ـ تركتك تفرغين كل ما عندك من دون تدخّل، لكن اسمحي لي الآن أن أبدي رأيي ببعض ما سمعته منك؛ أولاً أرى أنك ارتكبت خطأً بنقل والدتك إلى بيتك.

لم تتركني أتابع وسارعت إلى القول: «التنظير عن بعد سهل جداً، لكنني أنهكت من التنقل بين بيتي وبيتها طول الوقت، نهاراً وليلاً. أتيت بها إلى بيتي كي أرتاح».

ـ وهل سترتاحين فعلاً؟ سألتها وتابعتُ: الأعمار بيد الله، هل تعلمين كم ستعيش والدتك؟ هل أنت قادرة على شل حياتك لسنين؟

أطرقت هبى قليلاً ثم قالت: «تقولين لي أنت الآن ما سمعته من شقيقتي قبلك، لكنكما لم تعيشا ما عشته في المدة الأخيرة. على كل حال إذا تحسّن وضعها فسأعيدها إلى بيتها».

ـ وضعها لن يتحسن بعد الآن وحالتها ستكون من سيئ إلى أسوأ وستتحملين وحدك الوضع الآتي.

ـ في كل الأحوال أنا من يتحمل. أجابتني.

ـ لكن لو أبقيتها في بيتها لكنت تمتّعت بأوقات قصيرة تكون

ملكك وحدك. أما الآن فهي تحتل المكان كلّه ولم يبقَ لك حيّز تنعمين فيه بوحدتك التي تقولين إنك تعشقينها.

ـ صحيح لقد احتلّت كل البيت، فهي تنام ليلاً في الغرفة المجاورة لغرفة نومي، وفي النهار ننقلها إلى الصالون فتمكث فيه حتى ساعة نومها.

ـ وهذا يعني أنك ما عدت تملكين إلا حيّزاً صغيراً من بيتك وهو غرفة نومك.

ـ بالكاد بقي لي سريري، قالت وهي تضحك.

ـ وهذا ما تريدينه؟ سألتها.

ـ وماذا أفعل؟ صرخت بي.

ـ لا أدري، لكني أنبهك إلى الواقع.

ـ هل تعتقدين أنني لا أرى هذا الواقع؟ لكن لم يعد أمامي حلّ آخر. على كل حال فهي ما عادت تطاردني أينما كنت كما في السابق لأنها أضحت مطمئنة أنني سأعود إلى البيت وسأكون إلى جانبها مهما تأخّرت في الخارج. ألم تلاحظي أنها لم تتصل بي كل هذا الوقت الذي أمضيته معك؟ على الأقل بت أملك حرية الخروج من البيت ساعة أشاء من دون أن ألاحق.

ـ أنت، في حلّك هذا، كمن يركض إلى الأمام ويستبق الأمور، كأنك تودين تسريعها و...

لم تتركني أتابع وقالت: «إنها تتسارع من دون تدخلي. أتفهم

رأيك لكن لا أحد يتمكّن من وضع نفسه في مكان الآخر بشكل صحيح، ولهذا السبب الحكي من بعيد سهل، بينما الذي في يده نار ليس كمن في يده ماء كما يقول المثل».

وجدتها هبى مقتنعة كلياً بما قامت به فتوقّفتُ عن الكلام ونظرت إلى ساعتي، فقالت: «لقد اقتربت مواعيد مرضاك في العيادة، سأتركك وأعود إلى والدتي لأقف على جديدها بعد ليلة البارحة التي أمضتها من دون نوم».

قالت ذلك وهي تنهض من مكانها، ثم استودعتني ورحلت وهي تقول: «سنظل على اتصال».

تركتني وانصرفت ووجدت نفسي أقرّر ألّا أتدخل في أمورها بعد الآن: «سأتركها تتصرّف كما تشاء ولن أتصل بها بل سأنتظر اتصالها هي وأنا واثقة أنها ستفعل عما قريب فهي لا تستطيع الابتعاد عن ذاتها لوقت طويل، أنا مرآتها، كلانا يعرف ذلك».

مرّ أسبوعان وهبى لم تتصل بي، من المؤكد أنها تتخبّط وحدها بمشاكلها ومن المؤكد أيضاً أن هذه المشاكل ليست بسيطة ولم تتركها تفكر بذاتها. لن أتركها وحدها، سأبادر أنا لأعرف ماذا يجري معها. لم أتردّد، اتصلت بها. ردّت على الهاتف وقالت: «أنا في المستشفى مع والدتي، وحالها ليست على ما يرام».

لم أتركها تتابع وقلت: «إني آتية إليك» بعدما سألتها عن اسم المستشفى والذي كان مستشفى مار جورجس في الأشرفية.

8

دخلت الغرفة فوجدت هبى جالسة على كنبة بقرب إنسى لا أعرفها ووالدتها شبه مسجاة على السرير ومجموعة من الأنابيب البلاستيكية تخرج من أماكن متعددة من جسدها. نهضتْ حين رأتني، عانقتني وهي تبكي، فخفّفت عنها وحاولت أن أعرف منها ماذا حدث في تلك الفترة فقالت: «نذهب إلى مقهى المستشفى وأخبرك».

ـ بات الوضع صعباً جداً، بادرتْ إلى القول بعدما جلسنا إلى الطاولة.

ـ لماذا تدهور الوضع بهذه السرعة؟ وماذا يقول الطبيب؟ سألتها.

ـ من أين أبدأ؟ لا أدري.

ـ ابدئي من حيث أردتِ، لكن دعيني أعرف ما أوصلكم إلى هنا.

صمتت هبى قليلاً كأنها تستعيد الأحداث في رأسها ثم قالت:

«تذكرين منذ أسبوعين حين التقينا؟ كان الوضع ممتازاً جداً على الرغم من أن والدتي كانت تردّد دائماً أنني أرفض أن آتي بها إلى بيتي لأنني أريد الذهاب حيثما يحلو لي من دون أن تعرف وخاصة أن آتي بـ«زبوناتي» إلى البيت في المساء. طمأنتها إلى أنني أتيت بها إلى بيتي بكل طيبة خاطر وأنني لن أتركها بعد الآن. اطمأنت وارتاحت وبتنا بألف خير إلى ذلك اليوم الذي التقيتك فيه»

«كان يوم الاثنين منذ أسبوعين تماماً، دخلت إلى البيت ووجدت والدتي جالسة على كنبة ليست مكانها العادي، ووجدت الخادمتين قبالتها واقفتين وبادرت جوها، خادمتي، إلى القول: «ماما مش منيحا».

ـ ما بها ولماذا لا تجلس مكانها؟ سألتها. فأجابتني أن والدتي، في ذلك اليوم تناولت فطورها كالمعتاد وزيّنت وجهها كما تفعل كل يوم صباحاً، لكن سرعان ما وقفت متكئة على عكازها وتوجّهت نحو الشرفة وأخذت تتكلم كأنها تخاطب أحداً ما وتدعوه إلى الدخول وهي تشير بيديها.

«هنا تدخّلت والدتي وقالت: «كان هون، فات من الشباك، شب حلو ولابس كويّس».

ـ من هو هل تعريفنه؟ سألتها.

ـ ما بعرفو ولمّا عزمتو ليفوت، مشي لجوا وانبطح إدّامي عالطاولة هيدي، قالت ذلك وهي تشير بيدها إلى الطاولة المستطيلة التي كانت أمام مقعدها المعتاد. وتابعت: «صرت حكّيه وإلّو: شوبدّك يا عيني نحنا جماعة أوادم، قول شوبدّك منّا، بس هوّ غطّا وجّو وما جاوب، صرت إسألو وهوّ ساكت، بعد شوي نزل وتخبّا تحت الكنباية وهو بعدو تحتا، بيبّن راسو شوي ويتخبّا.

«ذهلت من هذا الهذيان وانتابتني موجة من الضحك والبكاء معاً وما عدت أدري ماذا أفعل وقلت لها: «عودي إلى مكانك، لا يوجد أحد تحته». قلت ذلك آملة أن أردها إلى رشدها. لكنها رفضت وقالت: «حرام بيفطس إذا قعدت فوقه».

ـ لا يوجد أحد أطمئنك.

ـ مش شايفتيه عم يمد راسو؟ سألتني بكل جدية. ورفضت أن تعود إلى مكانها.

«نظرتُ إلى الخادمتين فوجدتهما تضحكان، استأت، نهرتهما وطلبت منهما أن يدخلا إلى المطبخ وتعدّ وجبة الغداء لوالدتي التي عبّرت عن جوعها إذ قالت: «تاركيتّي بلا أكل».

«حاولت ردّها إلى الواقع ولم أفلح فقلبتُ الآية ودخلت أنا عالمها وأظهرت لها أنني أصدّق كل ما تقوله فارتاحت وقبلت أن تعود إلى مكانها حيث تناولت وجبة الغداء من دون أن تسأل، هذه المرة من أعدّها. في العادة كانت تسأل لتتأكد أنني أنا من أعدّ لها الطعام وليس الخادمة. لكن عزّ عليها أن يبقى المختبئ تحت الكنبة من دون طعام: «حرام هلّأ بيموت الجوع». قالت بعدما أكملت طعامها.

ـ سأطعمه وأطلب منه أن يغادر. قلت لها.

«يبدو أنها اقتنعت بكلامي لأنها بعد الغداء لم تعد تسأل عنه وانتقلت إلى الضيعة متأكدة أنها هناك وليس في بيتي في المدينة وسألتها: «أين نحن؟» وأجابتني: «عند أهلي بالضيعة». عادت إلى بيت أهلها وليس إلى بيتنا نحن.

ـ نحن في بيتي ولسنا في الضيعة. قلت لها محاولة، من جديد، ردّها إلى الواقع.

نظرت حولها إلى أثاث البيت وقالت: «فرش بيتك حلو، كلّو سجاد بس ماني شايفتو من قبل، جبتيه جديد؟».

ـ لم آت بشيء جديد وهذا ما ترينه كل يوم. أجبتها وأنا أتحرّق ألماً لما آلت إليه من فقدان لعقلها. لكنني ثابرت على المحاولة وطلبت منها أن تنام كي ترتاح قليلاً معلّلة النفس بأنها إذا ارتاحت، ربما ساعدها ذلك على العودة من حيث هي إلى الواقع. لكنها أجابتني:

ـ كيف بدي نام والهرج والمرج قايم ورابي؟

ـ أي هرج؟ سألتها.

«أشارت بيدها إلى الشرفة وراء مقعدها وهي تقول: «هون علمصطبة عمبيغنّو».

ـ ماذا يغنون؟ سألتها.

ـ عتابا وميجنا وعلى دلعونا والهوارة وال... صواتهن حلوه.

ـ سأطلب منهم أن يتوقفوا عن الغناء كي تنامي. قلت لها. فأجابتني:

ـ هود ما بيسمعو من حدا، عندن عرس.

ـ سأقفل الباب ولا تعودين تسمعي أصواتهم. قلت ذلك وأقفلت الباب وراءها. ثم سألتها: «والآن ألم تصمت الأصوات؟».

ـ خفّت كتير، بس بعدن عمبيغنّو.

«أعطيتها حبة منوّم وطلبت منها أن تستلقي. قلت: «نامي الآن وأنا سأنام ثم آخذك في نزهة».

ـ خديني زور السيدة السلام عإسمها.

ـ أية سيدة؟ سألتها لأتأكد هل ما زالت في الضيعة.

ـ ليش كم في سيدة في الضيعة. قالت وهي تضحك.

«ساعدتها على التمدّد وطلبت من إحدى الخادمتين أن تظل معها في الصالون ودخلت غرفتي كي أرتاح قليلاً كعادتي بعد الغداء. لكن من أين للراحة أن تأتي؟ تمدّدت في سريري أفكر وأنا حزينة جداً ومتهيّبة من الآتي. بعد قليل نهضت من مكاني قائلة لنفسي: «لماذا أتحمّل وحدي هذا العبء سأطلع أخوتي على ما جدّ مع الوالدة. رفعت سماعة الهاتف وطلبت شقيقتي أولاً وأخبرتها عما حصل وعن هذيان أمها، فضحكت وقالت: «دب فيها الخرف».

ـ أنا لا أمازحك الأمر خطير، هل أصابها الألزهايمر؟ سألتها.

ـ لا، أجابتني شقيقتي، الألزهايمر لا يأتي فجأة هكذا، ما تخبرينني عنه هو دليل الخرف الذي يأتي في أواخر العمر حيث يعود المرء إلى مرحلة الطفولة أو الشباب. هل سألتها إن كانت تعرف من أنتِ؟

ـ لم يخطر ببالي هذا السؤال، لأنني متأكدة أنها تعرف من أنا.

ـ اسأليها، لأن المصاب بالألزهايمر لا يعود يعرف حتى أولاده. قالت ذلك وتابعت: «على كل حال علينا استشارة طبيب متخصّص كي لا يتفاقم الوضع».

«أقفلت الخط معها وخرجت إلى الصالون فوجدت والدتي ما زالت مستلقية لكنها غير نائمة. حين رأتني صاحت «وين كنتي؟ تركتيني لوحدي مع هالبهيم؟». قالت ذلك وهي تشير إلى الخادمة. فسألتها»:

ـ ألا تعرفينها؟ إنها جوها، خادمتي.

ـ مش جوها هيدا رجال غريب فات وأنا نايمه وما خلاني نام، بدو يسرقا كعريه لبرا قبل ما ينهبنا.

«طلبت من جوها أن تخرج وجلست بالقرب من والدتي وأنا أضمها إلي وأسألها: «من أنا؟».

ـ أنت هبى، بس لا تتركيني لوحدي مع هالقرود.

ـ أنا معك دائماً، لا تخافي، أما الآن فلنذهب لزيارة السيدة.

ـ إجربي يبوجعوني خديني بالسيارة. قالت وهي تتلمس ساقيها.

ـ طبعاً سآخذك بالسيارة، فالمكان بعيد، سنزور سيدة حريصا.

ـ شو بدو ياخدنا عحريصة، ما السيدة فشخه هون، قالت وهي تشير بيدها إلى الخلف.

«إنها ما زالت في الضيعة، قلت لنفسي، وربما كان إخراجها من البيت ودفعها إلى رؤية العالم الخارجي يساعدان في عودتها إلى حيث هي فعلاً. ألبستها ما اختارت هي وأتيتها بالعكاز كي تتكئ عليها، لكنها رفضت أن تستعين بها وقالت: «بمشي لوحدي». كانت ترفض أن يراها أحد وهي مع عكازها. فرحتُ لرفضها إذ قد يكون بداية عودتها إلى حاضرها، وطلبتُ من الخادمتين أن يساعدانها كي نصل إلى السيارة. تقبّلت مساعدتهما وتوجّهنا نحو حريصا، لكنها بقيت صامتة، غارقة في ذاتها ولا تنظر إلى الخارج. حاولت محادثتها ودفعها إلى التمتع بجمال الطبيعة، لكنها اكتفت بالقول: «الدنيه حلوه».

«زرنا سيدة حريصا، وفي طريق العودة بدأت تخبرني عن قصص قديمة وعن أشخاص متوفين كانوا يزوروننا في الماضي، تخبرني وتعلّق وتمزح إلى أن وصلنا إلى البيت. أجلسناها في مقعدها وطلبت من جوها أن تحضر لها العشاء وجلست قبالتها أراقب تصرفاتها؛ نظراتها إلى ما حولَها لم تكن طبيعية وسرعان ما قالت وهي تشير بيدها إلى إحدى النواحي في الغرفة: «ليش عم تطبخو بالصالون؟ طفي هالنار عم تغلي الطبخة».

ـ سأطفئ النار وأنقل كل شيء إلى المطبخ. قلت لها.

ـ وحدة حمارة بتشعل النار بالدار؟ أجابتني.

ـ من هي؟ سألتها.

ـ هيدي إلي بالمطبخ عبتخفئ. قالت وهي تدل باتجاه المطبخ.

«نهضت من مكاني وذهبت إلى حيث أشارت أن «الطبخة عم تغلي» وقمت بحركات توحي أنني أطفئ النار وأنقل أغراضاً إلى المطبخ، فصمتت وهي تتلفّت حولها وتبتسم وتهز برأسها. ثم نظرت إلى طرف الكنبة حيث تجلس وسألتني: «لمين هالولد الصغير؟ وين أهلو؟» عميبكي وما حدا برد عليه. صريخو طوشني».

ـ سيأتي والداه ويأخذانه. قلت لها.

ـ وين مقبورين وتارکينو بلا أكل؟ رح يفحّش. قالت وهي تخبط يديها ببعضهما.

«انتقلت إلى حيث أشارت وقلت لها: «سأعيده إلى أهله، لقد أتوا. رفعت الهواء بين يدي وتوجّهت نحو المدخل وأنا أردّد: «يلّلا راح، أخدوه».

«أتت الخادمة بالبيض المقلي بالسمنة الحموية كما طلبت والدتي ووضعت الطبق أمامها على الطاولة وعادت إلى المطبخ، فأشارت لي والدتي أن أقترب منها، وحين فعلت أسرّت في أذني: «هيدا لي فات علمطبخ هلأ عم يتلصص عليّي وأنا بالحمام». فأجبتها:

ـ سأعيده إلى بيته ولن ترينه بعد الآن.

ـ كحْشيه، واحد عكروت. كان تعليقها.

«تناولت العشاء بكل شهية على غير عادة وما أن انتهت منه حتى

زارتني جارتي، وهي سيدة متقدمة في السن وكنتُ قد طلبت منها أن تأتي كل مساء لأن والدتي تأنس لوجودها وتعرف أولادها. دخلت تلك الجارة ولم ترحّب بها والدتي كما كانت تفعل من قبل وغرقت في صمتها كأنها ليست معنا. حاولت الجارة أن تسايرها وتسألها عن حالها فأتت أجوبة والدتي مقتضبة مما دفع بالجارة إلى الاستئذان والانصراف قائلة: «مزاجها ليس على ما يرام هذه الليلة، ربما تود أن تنام باكراً». وافقتها الرأي وسررت لمغادرتها كي لا تشاهد وتسمع هذيان والدتي.

«ما أن عدت إلى والدتي بعدما أقفلت الباب وراء الجارة، حتى بادرتني إلى القول: «شوجاب ورده لعنا؟»».

ـ من هي ورده؟ إنها جارتي صونيا التي تزورك كل ليلة. أجبتها. لكنها ضحكت وقالت: «عمتستحمريني ما هيدي وردة بنت... وما إلها بالعادة تزورنا شو جد ما جد ومن أيمتا إنت صحبه معها؟؟».

«حاولت أن أتذكّر تلك الإنسى التي تكلّمت عنها والدتي ووجدت، بالفعل، أنها شبيهة صونيا جداً وهي إنسى مسنّة من الضيعة. وهنا احترت في أمري؛ هل أجاري والدتي أم أحاول إعادتها إلى الحاضر وإقناعها أن هذه الإنسى ليست ورده؟

ـ في مثل هذه الحالات، مجاراة المريض، أفضل من معاكسته. قلت لهبى التي أكدت قولي وأجابتني:

ـ هذا ما فعلته، فصمتت والدتي وهي تلوّح برأسها وتشير بيديها كأنها تحاول أن تجد جواباً لسبب زيارة تلك الإنسى لها. وفي هذا الوقت اتصلت بشقيقتي لأخبرها ما هو جديدنا. كنت أخبرها

وأضحك وهي تضحك، لكن ضحكنا كان تعبيراً عن الألم. وفي النهاية نصحتني شقيقتي أن أعطي والدتي جرعة قوية من المنوم كي ترتاح، على أمل أن تستعيد وعيها في اليوم التالي.

«والدتي تعشق ابتلاع الأدوية ولهذا السبب لم أجد أي صعوبة في إعطائها المنوم الذي ابتلعته من دون أي تساؤل».

هنا استطردت هبى وهي تبتسم وقالت: «تصوري أنني أنا الآن من يحقنها بالإنسولين.

ـ أنت؟ أجبتها، أنت التي لم تمسك حقنة بيدها في يوم من الأيام والتي لا تجرؤ حتى على رؤية الدماء؟

ـ الأيام تعلمك الكثير، أجابتني، أحقنها صباحاً ومساءً بعد أن أفحص نسبة السكر عندها. لقد باتت عاجزة عن حقن نفسها كما كانت تفعل، فما العمل؟ لقد اعتدت ذلك.

ـ وهل نامت بعد جرعة المنوم؟ سألتها.

ضحكت هبى وقالت: «كأننا أعطيناها منبهاً، فبدل أن يتراخى جسدها وتلجأ إلى النوم تهيجت وازداد هذيانها؛ نظرت إلى زاوية في الصالون وصرخت: «النار شاعله رح تحرق البيت جيبي مي». ثم نهضت وحاولت التوجه إلى تلك الزاوية، فركضت الخادمتان وساعدتاها على السير وهي تصرخ: «جيبي مي جيبي مي». توجّهتُ إلى المطبخ وأتيت بزجاجة ماء شبه فارغة كي أوهمها أنها تطفئ النار بها. أخذتها من يدي وحاولت أن ترش الماء في تلك الزاوية، لكن حين وجدتها فارغة، صاحت من جديد: «بدك يحترق البيت، عيبها وجيبيها».

ـ سأطفئ الحريق، قلت لها، عودي إلى مكانك وأنا سأعالج الموضوع.

ـ أنت وحدة غشيانه، أجابتني، جيبيلي مي.

«أحضرت الماء وطلبت من إحدى الخادمتين أن تأتي بالممسحة كي تنظف الأرض بعد رشه. وهذا ما كان وعادت والدتي إلى مكانها وهي تقول: «كنا احترقنا».

«تركت والدتي تهدأ قليلاً ثم اقتربت منها وقلت: «الآن حان وقت النوم سندخلك إلى غرفتك كي تستريحي».

«لم تمانع ونقلناها على الكرسي إلى غرفتها وساعدناها في التمدّد على سريرها ودخلتُ غرفتي وجرعت حبة منوم كي أنام وأنسى كل ما جرى في ذلك اليوم الطويل. لكن ما أن تمدّدت على السرير حتى سمعتها تصرخ: «شخير هالولد ما بيخليني نام خدوه من هون». وسمعت الخادمة التي تنام معها في الغرفة تقول: «يلا نامي ما حدا عميشخر». لكن والدتي لم تصمت مما دفعني إلى النهوض والذهاب إليها لأطمئنها أن لا أحد في الغرفة. لكنها أصرّت على قولها وهي تشير بيدها إلى أسفل السرير. هنا أيضاً جاريتها وقلت: «سآخذ الولد من الغرفة. توجهت إلى حيث تشير ورفعت الهواء بين يدي وقلت: «سأخرجه وأرده إلى أهله».

«خرجت من الغرفة وعدت لأجدها شبه نائمة فارتحت وعدت إلى غرفتي. وما هي إلا دقائق حتى سمعتها تصرخ من جديد: «الدخان رح يخنقني، فتحو الشباك». ركضت إلى غرفتها وفتحت النافذة فوق سريرها وقلت لها: «خرج كل الدخان، هيا اغفي قليلاً». هدأت، وعدت إلى غرفتي على أمل أنها ستغفو وتتركني

أرتاح. لكنها لم تفعل وباتت كل تلك الليلة تنادي أهلها وأقاربها: «وينك يا ببي وينك يا خيي...»، تصمت قليلاً ثم تبدأ بالغناء وبصوت عالٍ وهي تتلو بعض الترانيم الدينية. وهكذا حتى طلع النهار وبدأنا المماحكة من جديد».

ـ متى أتيتم بها إلى المستشفى؟ سألتُ هبى.

ـ منذ ثلاثة أيام، وهي ما زالت تحت المراقبة. لكن...

ـ وهل تحمّلت وحدك معاناة كل هذه الفترة؟ سارعتُ إلى القول.

ـ اليوم التالي لذلك النهار الطويل الذي أخبرتك عن أحداثه بدأناه بأن أخرجنا والدتي من غرفتها وناولتها مع أدويتها المعتادة جرعة من المنوم علّها تنام قليلاً، لكنها ثابرت على ما هي عليه، فاتصلت بإخوتي وأخبرتهم عما يجري معي فسارعوا إلى المجيء إلى بيتي لمعالجة الأمر. حين رأتهم والدتي عرفتهم ونادتهم بأسمائهم وعاتبتهم، كعادتها على عدم زيارتهم لها، وهم لم يغيروا تلك العادة وكانوا يأتون كما هو متفق بيننا. لم يعلّقوا على عتابها لأنهم ألفوه جيداً وانتظروا أن يروا نموذجاً عما أخبرتهم عنه، لكن والدتي سرعان ما استلقت وغفت. يبدو أنها اطمأنت أن كل أولادها حولها، وربما كان بدنها قد انهدّ من سهر اليوم السابق أو ربما أثّر بها المنوم، لا أدري، لكنها غفت ولم تقم بأي أمر مريب أمامهم. تداولنا الأمر واتفقنا أن ننتظر قليلاً قبل اتخاذ أي قرار. استودعوني وانصرفوا. بعد أقل من ساعة استفاقت والدتي وعادت إلى هذيانها الذي تركز حول رؤيتها لأناسٍ يحاولون اقتحام البيت للسرقة وهي تصيح: «اطلبي الدرك، رح يخلعوا الباب...»

«اتصلت بشقيقتي من جديد وأخبرتها بالأمر فأجابتني بأنها ستتصل بطبيب مختص ليرشدنا إلى ما علينا القيام به. بعد قليل اتصلت بي وأخبرتني أن الطبيب وصف لها علاجاً لمدة أسبوع، بعده نقرّر وفقاً لتجاوبها مع الدواء.

«أحضرت العلاج الذي وصفه الطبيب وهو كناية عن جرعة من دواء معين صباحاً وجرعة من دواءٍ آخر مساءً. أعطيت والدتي الجرعة الأولى فوراً وانتظرت النتائج، لكن لا شيء تغيّر، وعند المساء أعطيتها الجرعة الثانية من دون أية نتيجة وأمضينا تلك الليلة كما سابقتها. وفي إحدى الليالي اضطررت إلى حقنها بمهدئ قوي جداً وكانت هي المرة الأولى التي أحقن أحداً في العضل وهو أمر يتطلّب خبرة ومعرفة، لكنني قمت به من يأسي وعدم قدرتي على تهدئة الوالدة، وهكذا إلى أن انقضى الأسبوع من دون أي تقدّم، وكنا قد أنهكنا من قلة النوم. وما زاد الأمور تعقيداً هو أن الخادمة التي كنا قد أتينا بها مؤقتاً لمساعدتنا قد هربت ولم تعد واتصلت بي قائلة إنها لم تعد قادرة على التحمّل. تفهّمت وضعها، لكنني امتعضت جداً لأن والدتي بحاجة إلى أكثر من واحدة لمساعدتها على التنقل والدخول إلى الحمام وتمديدها على السرير و... ضاقت بي الدنيا كما يقال ولعنت حظي ويوم مولدي ولعنت والدتي التي لم تنجبني إلا لأكون خادمة لها أنفّذ أوامرها وهي بكامل وعيها وأتحمل وحدي عبء مرضها.

ـ أين إخوتك؟ لماذا لم تشركيهم في تحمل المسؤولية؟ سألتها مستاءةً.

ـ اتصلت بأحدهم وأبدى كل اهتمام وقال: «اطلبي من شقيقتنا

هند أن تؤمن للوالدة ممرضة مختصة تلازمها ليلاً ونهاراً ونحن مستعدين لتحمل كل شيء».

ـ لماذا لم تفكروا بنقلها إلى أحد الأماكن المختصة برعاية بالمسنين؟

ـ تداولنا الموضوع لكن عزّ علينا وعليّ خصوصاً أن نبعدها عنا، واتفقنا على أن نؤمن لها كل ما تحتاج إليه وهي في البيت. أجابتني هبى.

ـ دارت الأمور ووقعت عليك من جديد، هذا ما أفهمه من كلامك. قلت لها.

ـ وماذا تريدين أن أفعل؟ أنا أتفهم وضع إخوتي جيداً. هل من المعقول أن تتحمّل زوجاتهم ما أتحمله أنا؟ طبعاً لا، والأمر طبيعي جداً.

ـ ويفرحون لمجيء الصبي. قلت معلقة، فسارعت هبى إلى القول:

ـ والدتي لا ترتاح إلا عندي.

ـ لأنك تنفذين كل أوامرها وتحققين كل رغباتها.

ـ أعرف ذلك، لكن الأمر تخطى تنفيذ الأوامر وتحقيق الرغبات، لقد أصبحنا في مرحلة العلاج والتمريض و...

ـ يعني أنك استسلمت للواقع. وهل أنت قادرة على القيام بهذه المسؤولية؟ سألتها مشككة بذلك.

ـ يبدو أن إخوتي تداولوا الأمر، لأن ابنة شقيقي البكر اتصلت بي وأخبرتني أنه يوجد مكتب يؤمن سيدات متخصصات بالاهتمام بالمسنين. أخذت الرقم منها واتصلت مباشرة بالمكتب وأتاني الجواب بأنهم يؤمنون ما أريد، لكنهم طلبوا أجراً عالياً للسيدة ومبلغاً شهرياً للمكتب. لم أحسم الأمر معهم بل اتصلت بأحد أشقائي وأخبرته بالتفاصيل فأتى جوابه الفوري: «اطلبيها حالاً ونحن مستعدون لكل شيء، المهم أن ترتاحي». وهكذا كان وأتت السيدة نجوى وهي الإنسى التي كانت معي في غرفة الوالدة.

ـ لكن لماذا أتيتم بها إلى المستشفى طالما أمّنتم لها كل ما تحتاج إليه في البيت؟ سألتها.

ـ المهم أن الست نجوى أتت في اليوم التالي وبعدما عرّفتني عن نفسها، قالت: «الآن أنا سأهتم بكل شيء وأنا معتادة على المسنين وبخاصة المصابين منهم بالألزهايمر، أنت ارتاحي، وقولي للخادمة فقط أن تساعدني حين أطلب منها ذلك. سرّني كلامها وأدخلتها إلى كل البيت وعرفتها على أغراض الوالدة وأدويتها و... وقلت لها إنني مستعدة لتأمين كل ما تطلبه شرط أن تحسن معاملة والدتي. لكن حين رأت الكرسي الذي ننقل عليه والدتي قالت وهي تشير إلى الكرسي: «هذا يعني أن الوالدة لا تسير وحدها». وحين أجبتها بالإيجاب شكرت ربها وقالت: «هذا جيد لنا لأن المصابين بالألزهايمر يهشلون من البيت ونضطر إلى الركض وراءهم وأحياناً نطلب النجدة من الدرك لردهم إلى البيت. فإن كانت والدتك عاجزة عن السير وحدها فهذا سيساعدنا كثيراً».

«حاولت أن أقنع نجوى بأن والدتي ليست مصابة بالألزهايمر، لكن هذيان الوالدة المستمر لم يساعدني في ذلك، وفي مساء ذلك اليوم طلبت مني نجوى أن أدخل غرفتي وأن أقفل الباب لأنها ستهتم بكل شيء وحدها. نفّذت ما طلبته مني، لكنني لم أتمكن من النوم لأن الوالدة ظلت تهذي كل الليل وأسمع نجوى تنهرها وتطلب منها أن تنام، وهكذا حتى الصباح الذي ما أن انبلج حتى بدأت الحركة من جديد في البيت؛ أخرجت نجوى والدتي من غرفتها وتركتها على كرسيها وطلبت من الخادمة أن تحضر لها الفطور، بينما كانت هي تفحص لها نسبة السكر في الدم وتحقنها بالأنسولين. وما أن اقتربتُ من والدتي لأقبلها على جبينها كما بت أفعل كل يوم، حتى قالت: «وين كنتي؟ تاركتيني مع هالش...

ـ إنها الممرضة الجديدة وهي ستهتم بك، واسمها نجوى. قلت لها.

أشارت لي أن أقترب منها وسألتني: «مسيحية ولّا مسلمة؟» وحين أجبتها بأنني لا أدري، تابعت بصوت خفيض: «يمكن تكون شي جاسوسة، وين حاطة الصيغة والمصاري؟»

ـ اطمئني لقد خبأت كل شيء. أجبتها، فقالت: «انتبهي، ما حدا بيعرف».

«تناولتْ والدتي الفطور وجرعات الأدوية مع المنوم وبدأنا نهاراً ثانياً كسابقه، واستمرّت الحالة على هذا المنوال من الهذيان وقلّة النوم لأكثر من أسبوع وتبيّن لنا أن العلاج الذي وصفه الطبيب لم يفد إطلاقاً في تغيير الوضع.

«استبشرت شقيقتي عارضة عليها ما نمر به من عذاب وقلة نوم مع الوالدة، فقرّرت أن تطلب من الطبيب معاينة الوالدة في البيت ليرشدنا إلى ما يجب القيام به، وهو مسؤول عن قسم المسنين في أحد المستشفيات.

«بعد ظهر ذلك اليوم زارنا الطبيب وعاين الوالدة وطلب منا نقلها إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات لأنه وجد أن رئتيها مليئتان بالبلغم وحالتها خطرة، وتابع: «إذا استمرت على حالها فمن الأفضل أن تحجزوا لها مكاناً في بيت المسنين التابع للمستشفى وأنا سأهتم بها».

ـ يعني أن تقيم في ذلك البيت؟ سألته.

ـ طبعاً، أجابني، وتابع: أتفهم ما تشعرين به، لكن أكبر شخصيات في هذا البلد تركوا أهلهم في هذا البيت. قال ذلك وعدّد أسماء بعض الوزراء وغيرهم من المعروفين بمالهم أو مراكزهم.

ـ هم أحرار، أجبته، سأنقل والدتي إلى المستشفى لعلاج رئتيها ثم لكل حادث حديث.

ـ كما تريدين، سأحجز لها غرفة بأقرب وقت. أجابني قبل أن يغادر.

«قبيل مساء ذلك اليوم اتصل بي الطبيب مجدداً وأخبرني أنه تمكن من حجز غرفة لليوم التالي. وفي صبيحة اليوم التالي طلبت الصليب الأحمر ونقلنا الوالدة.

ـ منذ متى أنتم هنا؟ سألت هبى.

ـ هذا يومنا الثالث وقد تبيّن من الفحوصات وصور الأشعة وغيرهما أن رئتي والدتي محتقنتان كلياً.

ـ وما رأي الطبيب في ذلك؟

ـ باشر في علاجها وهو يؤكد لي أن هذيانها هو بسبب ذلك الاحتقان لأن الأكسيجين لا يصل إلى الدماغ. آمل أن يصح تشخيصه، لكن وعلى الرغم من تشخيصه هذا طلبنا لها طبيباً مختصاً بالأمراض النفسية والذهنية و... . لنتأكد من صحتها العقلية، ونحن ننتظر النتائج.

ـ علّها تكون جيدة كما تتوقعين، أجبتها، لكن لماذا ترفضين وضعها في البيت الذي تكلم عنه الطبيب؟

ـ كلنا نرفض، أجابتني، ثم تابعت: أحياناً يتقبل إخوتي هذا الاقتراح ويناقشونه، لكنني أعرف جيداً أنهم لا يريدونه فعلاً بل يريدون إراحتي، ولهذا السبب أشعر بأني أنا المسؤولة الوحيدة عن قرار كهذا، وقراري أن تبقى والدتي معزّزة مكرّمة مهما حصل معها من تدهور صحي أو عقلي. أما الآن فلنعد إليها، ربما تكون قد استفاقت.

دخلنا غرفة والدة هبى وكانت بالفعل قد استفاقت، وحين اقتربت منها لأسألها عن حالها، عرفتني وسألتني عن زوجي وأولادي. فرحت هبى بذلك وقالت: «إنها تستعيد وعيها، الطبيب على حق، ربما بدأ الأكسيجين بالوصول إلى الدماغ».

ـ إلى متى ستبقينها في المستشفى؟ سألتُ هبى قبل أن أغادر وأجابتني:

ـ سنبقيها إلى أن تستعيد صحتها كاملة، وسأعيدها إلى بيتي، وليس إلى بيتها أو أي مكان آخر، مهما كان وضعها الذهني أو النفسي.

ـ أتفهم رفضك لنقلها إلى أي مكان آخر، لكن لماذا لا تعيدينها إلى بيتها ما دام لديها خادمة بالإضافة إلى الممرضة؟ هكذا ستتحررين في بيتك وتتمكنين من عيش حياتك الخاصة. قلت لها وأنا مقتنعة تماماً بما أقول.

ـ فكرت في الموضوع ووجدت أن إقامتها معي في بيتي تخفف عني عناء التنقل المستمر بين بيتي وبيتها والذي أنهكني في المرحلة السابقة، وفي هذه المرحلة ربما تطلّب مني الوضع الإقامة معها أكثر لأنه لا يهدأ لها بال إلا وأنا معها وأنا متأكدة أنها «ستهشّل» الخادمة والممرضة إن كانت وحدها معهما.

ـ وهذا يعني استقالتك من ممارسة حياتك كما ترغبين، أو كما كنت ترغبين.

ـ إنني، ومنذ أشهر مستقيلة فعلاً، فحياتي الخاصة واهتماماتي الثقافية وغيرها موضوعة الآن في الثلاجة إلى... .

ـ إلى متى؟ سألتها، هل فكرت بذلك؟

ـ ولا أريد أن أفكر، فأنا أمام وضع لا خيار لي فيه إلا ما أنا مقتنعة به الآن، لن أتركها مهما تعطّل من مشاريعي الخاصة.

ـ وما رأي إخوتك؟ سألتها.

ـ رأيهم من رأيي أي أنهم مستعدون لتنفيذ كل ما أطلبه، وأنا متأكدة أنهم مرتاحون لخياري هذا، لأنهم، هم أيضاً، يرفضون أن نضعها في أي مكان، مهما كان هذا المكان مميزاً أو للنخبة من أبناء البلد.

ـ ماذا كانوا سيفعلون لو أنك غير موجودة؟

ضحكت هبى وفهمت ما أقصد من سؤالي، لكنها أجابت: «الواقع أنني موجودة وهذا هو المهم».

ـ لكنني متأكدة أن ما تعانينه الآن سيكون مادة خصبة لكتاباتك في المستقبل، ونصيحتي لك أن تسجّلي، ولو بسرعة، ما تمرين به.

ابتسمت هبى ولم تجب، فاستودعتها وانصرفت.

تركت هبى وأنا أفكر بطبيعة هذه العلاقة التي تربط بينها وبين والدتها؛ إنها بالفعل علاقة ملتبسة، وأحياناً كثيرة متناقضة وما يهمني من الموضوع هو هذا التخبّط الذي تمر به هبى بين أن تختار مصلحتها وما ناضلت من أجله كل حياتها، أي حريتها، وبين أن تتخلّى عن ذاتها وتضعها في الثلاجة، كما قالت. هل فكرتْ كم ستدوم هذه الحالة وهل هي قادرة على تحملها على المدى الطويل وخاصة أنها تتقدم في العمر والزمن يهرب من بين يديها إلى غير رجعة؟ هل اختيارها هذا هو وليد حريتها أم هو أمر فرض عليها؟ هل لأنها تعيش وحدها فُرض عليها أن تكون هي المخوّلة بتحمّل وضع والدتها الذي هو إلى تعقد أكثر فأكثر؟ لقد

مرّت بظروف صعبة جداً حتى أنها تمنت في يوم من الأيام موت والدتها وإن عبّرت عن ذلك بصيغة مختلفة إذ قالت: «أتمنى أن يأخذ الله واحدة منا كي أرتاح». قالت ذلك لاستهوالها الصيغة المباشرة والتهرب منها ومن شعورها بالذنب إن تلفظت بها بصراحة. لكنني فهمت قصدها وقلت لها في حينه، ستندمين يوماً ما على هذا القول. لم تجبني مباشرة، لكنها قالت: «منذ عشرين عاماً، أي بعد وفاة والدي، وأنا أتحمل وحدي هذه الإنسى الصعبة المراس، لقد تعبتُ وهي لا ترحم. تصوري أنني لم أنعم بالتمتع بيوم عطلة وحدي، كل أيام الآحاد والأعياد كانت لها وبرفقتها». هل غيّرت رأيها الآن؟ ألمس تغيراً جذرياً، هل هو من باب الرضوخ للواقع أم أنه من باب القبول بهذا الواقع؟ لا أستطيع أن أجزم لكن النتيجة واحدة.

9

غرقت في مشاغلي ونسيت هبى لمدة أسبوع وهي لم تتصل بي، وهذا يعني أنها لا تعاني أو أنّ وضع والدتها جيّد. بالفعل بعد انقضاء هذا الأسبوع اتصلت هي بي وأخبرتني أن والدتها تتحسّن. أقفلت خط الهاتف بعدما تأكدت منها أنها في المستشفى وذهبت إليها من دون أن أعلمها بمجيئي. وجدتها تتمشى في الكوريدور أمام غرفة والدتها. رحّبت بي وأدخلتني إلى الغرفة كي تريني كيف أن والدتها باتت في وضع جيد. بالفعل كانت والسيدة أم وائل جالسة إلى كرسي هزاز وإلى جانبها نجوى. ابتسمت حين رأتني ومدّت يديها تريد أن أقترب منها. قبّلتني وفرحت بي وسألتني عن حالي وتمنت لي دوام الصحة والتوفيق كما كانت تفعل سابقاً، وأجابتني حين سألتها عن حالها: «أنا صرت أحسن، بس هلإجرين رخوين، ما عم فيي إمشي».

هنا تدخلت هبى وقالت لها: «أنت بألف خير وستتمكنين من السير على قدميك، أما الآن فسأذهب مع هدى لتناول الغداء ثم أعود إليك».

ـ لا تتركيني، أجابتها والدتها.

ـ فقط ساعة من الوقت ثم أعود. قالت هبى ووضعت يدها على كتفي وتابعت: هيا بنا.

خرجنا من الغرفة وسمعنا الوالدة تقول: «رجعي أوام، وجيبي معك هدى، أنا بحبا».

حين ركبنا السيارة، قالت هبى:

ـ سنذهب إلى مطعم... لكي نتناول وجبة محترمة، منذ أسبوع وأنا أتناول الـ«سندويشات» في المستشفى، نشّفت معدتي.

وما أن جلسنا إلى الطاولة حتى بادرت هبى إلى القول:

ـ يبدو أننا سننتقل إلى مرحلة جديدة مع الوالدة، صحيح أنها استعادت عافيتها الصحية والعقلية، لكنها باتت عاجزة كلياً عن المشي وحتى عن الوقوف مما سيرتب علينا تجهيز البيت بمعدات جديدة وقد بدأنا بذلك. طلبتْ منا نجوى أن نعدّ للوالدة سريراً كأسرة المستشفى وقالت إنها جاهزة لتلبية كل حاجاتها وهي في السرير، وطلبت أيضاً «حفاضات» والأهم من ذلك أن نهيئ فراش ماء كي لا تعقر الوالدة، وقد باشرتُ بجلب كل ما طلبته نجوى، وحين ننتقل إلى البيت كل شيء سيكون جاهزاً.

ـ هل والدتك ستقبل أن تبقى طول النهار والليل في غرفتها؟ سألتُ هبى.

ـ من المؤكد أنها لن تقبل، أعلم ذلك، وسننقلها كل صباح إلى الصالون ونعيدها إلى غرفتها في المساء، كما نفعل الآن. فكرنا بذلك وبناءً على طلب نجوى أيضاً سنضع لها سريراً صغيراً مع فراش ماء في الصالون.

ـ يعني أن بيتك تحوّل إلى مستشفى، وأنه احتل نهائياً. أين أنت من كل ذلك؟ سألت هبى.

ـ لم يبق لي سوى غرفتي، أجابت وهي تضحك، وتابعت: الوضع هو هو منذ أن نقلت والدتي إلى بيتي، لن يتغير شيء سوى بعض التجهيزات الجديدة.

ـ ومكتبك؟ سألتها.

ـ بح مكتب، لقد أقفلته إلى أن يفرجها الله.

لم أجبها وغرقت في ذاتي أفكر بهذه الظروف التي تمر بها هبى، وما استوقفني هو لامبالاتها كأنها استقالت نهائياً من ذاتها. هل استسلمت؟ هل تتهرّب من المواجهة؟ هل هي مدركة أن الوضع يمكن أن يطول جداً؟

نظرتْ إلي هبى كأنها قرأت ما يمر في ذهني وقالت: «لن أفكر في الغد، لكن، ربما نقلت مكتبي إلى مكان آخر خارج البيت، المهم أن تتركني أستفيد من بعض الوقت، لكني أشعر بأنها باتت شديدة التعلق بي ولا يهنأ لها عيش إلا وأنا إلى جانبها.

ـ الأمر ليس جديداً. قلت لها.

ـ صحيح، لكن ماذا تريدين أن أفعل؟

ـ لا شيء، أجبتها، ما أطلبه هو أن تفكري بنفسك أكثر وأن لا تستسلمي كما هو بادٍ عليك.

ـ الموضوع يؤلمني جداً وأفضل عدم التفكير به. أما الآن فلنعد إليها، هل ترافقينني؟ سألت وهي تنهض من مكانها.

ـ سأعود إلى عملي على أمل أن نلتقي بأقرب وقت.

استودعتها وانصرفت لكن فكري ظل معها محاولة إيجاد حل لما تعانيه حتى ولو عبّرت عنه بالمزاح والضحك. بالفعل أن شر البلية ما يضحك. هل تدرك هبى ماذا سيحل بها حين ستدوم هذه الحالة؟ من المؤكد أن لا، فهي الآن أمام الحدث وأمام ضرورة إنقاذ والدتها من الضياع وإعادة الصحة إليها. تحاول أن تستغرق كلياً في الراهن كي تتهرّب من التفكير في الآتي. لم تكن هكذا، ما الذي غيّرها؟ هل أضحى الواقع أقوى منها هي التي تمرّدت على كل واقعها ورفضته من أجل تحقيق ما تبغي؟ لم يعجبني استسلامها، خفت عليها من الانهيار لأن رضوخها وتقبلها للواقع ما هو إلا دليل على رغبة في الانتحار؛ كأنها تغتال نفسها من أجل إنقاذ والدتها التي تحوّلت إلى كائن عاجز كلياً عن القيام بأي عمل بمفرده. لكن هل أمامها خيار آخر؟ هناك خيارات أخرى، لكنها ترفضها وتنصّب نفسها المسؤولة الوحيدة عما تبقى من حياة والدتها. صحيح أن إخوتها يؤمنون لها كل ما تطلب لكنها هي التي تتحمّل.

وصلت عيادتي واتصلت بهبى وأخبرتني أن الطبيب زار والدتها وعاينها وقرّر أنها باتت جاهزة لمغادرة المستشفى، وأردفت قائلة كأنها تواسي نفسها:

ـ غداً سأطلب الصليب الأحمر وأنقل والدتي إلى البيت، وهكذا سأرتاح من المجيء كل يوم إلى بيروت، وهي ستطمئن وتهدأ لأنها لا تحب أجواء المستشفى إطلاقاً. وقد وعدتني نجوى بأنها ستهتم بكل ما يتعلق بها وبأنني سأتحرر من كل أمورها وأتمكن من ممارسة حياتي كالسابق.

ـ آمل ذلك، أجبتها، سأزورك في البيت.

10

بعد أسبوع، زرت هبى في بيتها فاستقبلتني نجوى ورحبت بي كأنها هي سيدة البيت. دخلتُ الصالون ووجدت هبى جالسة بالقرب من والدتها وقبالتها سيدة لا أعرفها. فرحت هبى بمجيئي وقدمت لي السيدة قائلة: «إنها جارتي التي تزورنا كل يوم لمؤانسة الوالدة التي بات لا يهنأ لها عيش إلا برؤيتها قبل الظهر وفي المساء، وهي لا تخيّب أملنا وتتكرّم بزيارة الوالدة كلما طلبنا ذلك منها».

لكن ما أن جلسنا حتى اعتذرت الجارة وانسحبت وأخذت نجوى الحديث بعدما سألتني كيف أشرب قهوتي وطلبت من الخادمة إحضارها.

نظرتُ إلى هبى مستغربة ما أرى، فضحكتْ ولم تجب. ارتشفنا القهوة ونحن نستمع إلى حكاية نجوى عن حياتها وزواجها

وطلاقها ونعتها الرجال بالعكاريت و... وما أن أنهت قصتها حتى رفعت فنجانها بيدها، لوّحته قليلاً ثم قلبته في صحنه، فقالت هبى: «ستبصّر لنا نجوى بالفنجان، هيا «طبي» فنجانك. «لم أصدق ما أسمع، لكنني نفّذت ما طلبته هبى وانتظرنا لدقائق قبل أن تمسك نجوى بفنجاني وتبدأ بالكلام. تركتها تشرد في ما ترى من رموز داخل الفنجان وأخذت أتأمّل حال الصالون الذي كنت أفرح لدخوله بسبب اهتمام هبى به وبتألقه المتجدد دوماً والذي تحوّل إلى قاعة كبيرة، لا حياة فيها حيث السرير الصغير يتصدره وإلى جانبه رف مليء بكل أصناف الأدوية والقطن والـ«وايبس» ورزمة من «الحفاضات» و... والدتها جالسة محاولة جرّ الحديث إلى حالها وطلباتها التي لا تتوقّف. لكن ما آلمني جداً هو حال مكتبها الذي هو امتداد للصالون نحو الشرفة التي كانت هبى قد أقفلتها وحولتها إلى مكتب أنيق؛ الحاسوب مقفل ومنسي تحت غطاء من القماش الشفاف وأوراق مبعثرة على الطاولة و... إنه جثة هامدة على غير عادته. عاينت الوضع بصمت ولم أفه ببنت شفة كي لا أزعج هبى التي لاحظت الأسى في عيني، لكنها هزّت برأسها ولم تعلّق.

أنهت نجوى التبصير الذي لم أسمع منه كلمة واحدة وطلبتُ من هبى أن نخرج إلى أي مكان، فما كان منها إلا أن استجابت ورحلنا بعدما أوصت نجوى بالاتصال بها إن جد أي شيء.

ركبنا سيارتها بصمت، أدارت المحرك وسألت: «إلى أين؟».

ـ إلى حيث تريدين، فأنا اليوم في إجازة.

ـ سنذهب إلى بيروت حيث نلتقي الأصحاب ولن أعود إلى

البيت إلا في المساء.

ـ كنت دائماً تستعجلين العودة إلى بيتك وعالمك وها أنت الآن تهربين. قلت لها.

ـ صحيح، بت لا أرغب في المكوث في البيت وأنت شهدت وضعه الحالي. لقد تحولت إلى ضيفة في بيتي.

ـ هذا ما أردتِه لنفسك. كان تعليقي.

ـ لكنني مرتاحة أكثر من المرحلة السابقة قبل مجيء نجوى. صحيح أنها هي الآن من يتحكم بكل الأمور، لكنها، على الأقل رفعت عن كاهلي كل ما يتعلّق بوالدتي وبتّ قادرة على التحرّر ولو لوقت قصير من نقها الذي لا يهدأ كما رأيت، والذي يخرجني عن طوري في بعض المرات فيعلو صوتي وأتشاجر مع والدتي التي لا تتوانى عن رشقي بعبارة: «ألله لا يوفقك».

ـ إنها غير مدركة لما تقول، أجبت هبى كي أخفف عنها.

ـ أعرف ذلك، لكن العبارة مؤذية حتى ولو كانت غير مقصودة، ووالدتي تردّدها باستمرار كلما خالفها أحد في الرأي وتوجهها إلى نجوى مرات عديدة في اليوم، وأشعر بأن نجوى تشمئز لكنها تتحمّل وتقول لي إنها معتادة على هذا النمط من المسنين الصعبين المتمردين والمتسلطين وتردّد دائماً: «والدتك صعبة جداً، من الواضح أنه لم يُرفض لها أمر في حياتها، لكنني سأطوّعها». ووالدتي تنسى بسرعة ما تفوهت به، وما أن تلاطفها نجوى قليلاً حتى ترضى عنها وتلاطفها بدورها وتطلب منها أن تجلس إلى جانبها كي تقول لها إنها تحبها وإنها ممتنة لما تقوم به من

أجلها. تنسى نجوى غيظها وتمسّد على شعر والدتي وتضمها إليها وينتهي الموضوع مؤقتاً، وهكذا إلى أن تعاد الكرة من جديد.

ـ لكنني أجد أن صحة والدتك جيدة وأن الأمر سيطول على هذه الحالة وعليك أن تجدي حلاً لما تعانينه.

ـ وإلا ماذا؟ أجابتني بسرعة، هيا اقترحي لي حلاً.

فكرت قليلاً ولذت بالصمت لأنني لم أجد حلاً لكنني قلت لها:

ـ أنا أخاف عليك لأنني أعرف جيداً أنك غير قادرة على المكوث طويلاً خارج ذاتك وعالمك الخاص.

ـ بحثت الموضوع مع شقيقتي فأعطتني مفتاح بيتها وعرضت علي أن أقوم بمتابعة عملي عندها حيث لا يتواجد أحد في البيت إلا الخادمة خلال النهار. ارتحت لاقتراحها لكنني حتى الآن لم أتمكن من تنفيذ أي شيء. يبدو أننا، مع مرور العمر نعتاد على زاوية معينة وعلى طقوس محدّدة يصعب الخروج منها. لقد اعتدت زاويتي في البيت ولا أجد نفسي قادرة على نقل مقرّ عملي إلى مكان آخر.

ـ أعرف ذلك، لكن للضرورة أحكام وعليك أن تحاولي لأن هجرانك للعمل الذي اعتدت عليه سيكون أمرّ من انتقالك إلى مكان آخر حتى ولو بدا الأمر صعباً في البداية.

ـ سأحاول، أجابتني قبل أن نفترق وتعود كل منا إلى عالمها.

تركت هبى مصممة على ملازمتها هذه الفترة لأحثها على الخروج من الشرنقة التي وضعت نفسها داخلها إذ إن كل اهتماماتها باتت

تدور حول والدتها وما يجري في بيتها. أنا أعرف أن هبى هي من النوع الذي يتحمل الكثير قبل أن ينفجر فتفرغ كل غضبها على الظروف التي أتت لغير مصلحتها، تشتم أخواتها وربها وكل من يحيط بها قبل أن تستكين لتعيد الكرة من جديد؛ تحمّل، احتقان، انفجار ثم هدوء. لقد اعتدت هذه الدورة في سلوك هبى الذي يكون هادئاً ومحباً في مرحلة التحمل ثم ينتقل إلى التوتر في مرحلة الاحتقان لينتهي بثورة لا توفّر أحداً. وغالباً ما تتصل بي في المرحلة الأخيرة فأصغي إليها وأراقب تحوّلها من الغضب إلى الهدوء بعد أن تفرغ كل ما في داخلها من حقد على حظها ووالدتها وإخوتها و... أتركها تقول ما تشاء ثم أسألها:

ـ والحل؟ هل ستظلين تدورين في هذه الحلقة المفرغة؟

ـ لا حل إلا بنعمته تعالى.

ـ يعني موت الوالدة؟ سألتها في إحدى المرات.

...ـ

ـ هذا ليس حلاً لأن الأمر قد يطول، وأنت ستنهارين إن لم تخرجي نفسك من هذه الدوامة.

ـ كيف؟ أعطني الحل. صرخت بي.

ـ اخرجي من البيت قدر المستطاع وعيشي حياتك كما في السابق. أجبتها.

ـ وهل أمكث طول النهار خارج البيت لأفعل ماذا؟ أهرب لساعات ثم أعود إلى جحيمي من جديد.

ـ لماذا تسمينه جحيماً؟ اتركي نجوى تتصرّف وارتاحي أنت في غرفتك.

ـ هذا ما أحاول القيام به أحياناً لكنها لا تهدأ إلا إذا بقيت معها وتظل تناديني وتشتم نجوى إلى أن أحضر فتبدأ بشكواها من هذه الإنسى التي لم نأت بها إلا لتعذيبها. تريدني أن أقوم بكل ما تحتاج إليه من مأكل ومشرب وغيار «حفاض» و...

ـ وهل تتصرف هكذا حين تغيبين عن البيت؟

ـ يبدو أنها أكثر طواعية حين تكون وحدها مع نجوى. لكن خادمتي تخبرني أنهما تتشاجران كل الوقت وأن والدتي تسأل دوماً: «أين هبى؟ لماذا تركتني مع هذا الشيطان؟» وحين أعود وتراني، تصيح بأعلى صوتها: «هبى جيتي، دخيلك لا تتركيني». أقترب منها أقبّلها وأمسّد على رأسها فتطلب مني أن أجلس إلى جانبها على السرير وتمسك يدي وتقبلها وتقول: «ما إلي غيرك أنت أمي وبيي وكل شي، دخيلك لا تتركيني وتروحي». أقبلها بدوري ويحن قلبي عليها وعلى الحالة التي وصلت إليها وعلى عجزها عن القيام بأي شيء. يحزنني وضعها وأقرّر ألّا أتركها. لكن الحالة لا تدوم إذ إنها سرعان ما تعود إلى طباعها العادية وإلى نقها الذي لا ينتهي، وإلى نقدها لكل ما نقوم به. وهكذا أدور في حلقة من الحنان ثم التوتر ثم الصياح بوجهها لوضع حدٍ لطلباتها ثم استنفارها ورشقي بكل أنواع السباب والدعاء إلى الله بأن يميتها كي ترتاح: «دخيلك يا ألله خدني وريّحني، ما عادو طايقينيّ». أحنّ عليها من جديد وأطمئنها إلى أننا لسنا منزعجين منها، فتهدأ وتطلب أن نأتيها بالجارة كي تتسلى لأنها ما عادت

تطيق هذا الحبس الذي رميناها فيه: «رح طق بهل قعده»، تقول من دون أن تقر أنها باتت عاجزة؛ ليس وضعها الصحي هو الذي أقعدها بل نحن من يفرض عليها ألا تتحرك، ونحن لا نخرجها من البيت لأننا سيئون وليس لأنها باتت غير قادرة على ذلك. أتفهّم ما تشعر به، لكن ليس من حل أمامي سوى مواساتها ومحاولة التعويض عليها بإلهائها مع الجارة أو بجرها إلى إخباري عن الماضي. هنا تنفرج أساريرها وتقصّ علي بعض ما تتذكّره ويكون والدها وجدتها هما دائماً حاضرين في رواياتها، يحتلان كل مرحلة طفولتها، وحين أسألها عن أمها، تصمت قليلاً ثم تقول: «أمي ما كانت تحبني و... أنا ما كنت حبها». وتنتقل إلى أخبار أخرى.

ـ ألا تعتقدين أنها عاشت مأساة في طفولتها بسبب كره أمها لها كما تقول؟ وهي الآن تحاول أن تعوّض معك عما حرمت منه؟

ـ أعرف ذلك جيداً، وهي تعبّر عنه بكل وضوح، وقد تحوّلت إلى ابنة لي منذ أن رحل والدي، الأمر ليس جديداً، لكن في المراحل السابقة كانت لا تزال قوية، أما الآن فهي طفلة بكل معنى الكلمة ولهذا السبب تعلّقها بي يزداد يوماً بعد يوم.

ـ آمل ألا يطول عذابك و... عذابها. قلت لها بعد تردّد.

11

جرى هذا النوع من الحديث بيني وبين هبى لمرات عديدة من دون جدوى، لكن بعد أكثر من شهر أتتني شبه منكسرة وحزينة وأخبرتني عن تدهور صحة والدتها، فقلت لها:

ـ وماذا كنت تتوقعين؟ الوضع سيتغير من سيئ إلى أسوأ.

ـ أعرف ذلك، لكن انهيارها يؤلمني؛ جسدها بدأ يضمر وما عادت تطلب الطعام وباتت نجوى تطعمها بالقوة وهي تتمنّع وأحياناً تبصق ما في فمها. حتى البوظة التي كانت تحبها جداً ما عادت تطلبها، لكن حين نحضرها تأكلها، لقد باتت غذاءها شبه الوحيد. حتى أنها ما عادت قادرة على الحراك من دون مساعدة؛ تضعها نجوى في السرير على جنب معين وتستمر هكذا حتى الصباح قد طلبت من نجوى أن تغيّر كل ليلة الاتجاه كي لا تعقر ونجوى تطمئنني إلى أن الوالدة تنام على فراش من ماء.

تصمت هبى قليلاً، لكن أمام عجزي عن أي كلام، تتابع وفي صوتها غصة:

«أما قضية التبوّل فهي مشكلة؛ في كل مرة تشعر والدتي بالحاجة إلى التبول تطلب منا أن ننقلها إلى الحمام فترد نجوى عليها: «بوّلي في الكوش ونغيّر لك». لكن والدتي ترفض وتقول: «بدك ياني بوّل بكيلوتي؟» وتجيبها نجوى: «لا بحفاض». لكن والدتي لا تصدقها وتسأل: «وينو؟» فتقترب منها نجوى وترفع لها ثيابها وتمسك يدها وتقودها نحو الحفاض وتقول لها: «دسيه وعملي فيه وأنا بغيّرلك». وبعد مماحكة تدوم لأكثر من ربع ساعة تستسلم والدتي وتبول في الحفاض وما أن تنتهي حتى تصيح: «يلا غيرولي رح شلفط». تحاول نجوى أن تقنعها بأنها ستغيّر لها حين تبول مرة ثانية، لكن والدتي تصر، فأطلب من نجوى ألا تعاندها، فتجيبني بأنه حرام أن نغير لها الحفاض لأنه ما زال يتحمّل المزيد من البول، فأنهرها وأطلب منها أن تغير لها كل دقيقة إن احتاج الأمر، فتلبي طلبي وحين تنتهي تقدم لي الحفاض وتقول: «إنه شبه ناشف وما عليه إلا نقطة واحدة». وأجيبها: «هل أنت من يدفع ثمن الحفاضات؟ غيري لها كلما طلبت حتى ولو من دون بول». تهزّ نجوى برأسها وتتّجه نحو المطبخ وهي تبربر: «واللهّ حرام، لو صار لجدي هيك ما كان مات».

ـ لماذا لا تدخلون والدتك الحمام؟ يبدو أنها لا زالت تشعر بهذه الحاجة، فهي لا تفعل ذلك لا إرادياً كما يحصل مع بعض المسنين، سألت هبى.

ـ الأمر صعب جداً والمشكلة هي أنها ما عادت تتمكّن من السير ولا حتى من الوقوف وحدها. لقد حاولنا مرة، بجهد كبير، أن

نلبّي طلبها وأن ندخلها الحمام، لكننا لم نتمكّن من إيصالها إلى المقعد وبالت في ثيابها واضطررنا إلى تغيير كل ملابسها وغسلها من جديد، لقد تعذّبنا كثيراً في تلك المحاولة التي لم تنجح. المشكلة هي أن والدتي لا تتقبّل عجزها، ترفض أنها باتت عاجزة عن القيام بما كانت تقوم به في السابق، همّتها النفسية لا زالت أقوى من همتها البدنية وهذا ما يسبّب معاناتها ومعاناتنا معها.

ـ وقدراتها العقلية؟ هل هي بكامل وعيها؟

ـ أحياناً تكون بقمة الوعي وتدهشني بقدرتها على التذكر والاستيعاب والتحليل وفهم المواضيع، لكنها تعيد ما تقوله مرات عديدة كأنها تنسى أنها قالته، وأحياناً أخرى تنسى حتى أين هي وتسألني: «وين نحنا، شو جابنا لهون؟ وأجيبها بأنها في بيتي وأني إلى جانبها، فتنظر حولها كأنها ترى الأشياء للمرة الأولى وتهز برأسها كأنها غير مقتنعة بما قلته لها، فأقترب منها وأجلس إلى جانبها وأبدأ بالتمسيد على يديها وجبهتها، فتستكين، تضع رأسها على كتفي وتقول جملتها المعتادة: «ما إلي غيرك، لا تتركيني». أطمئنها وأتركها تتمدّد وتستريح لبعض الوقت تحت تأثير المنوم الذي، وبناءً على طلب الطبيب، بدأنا نعطيها منه جرعتين، واحدة في الصباح وواحدة قبل النوم مساءً. لكن هذا المنوم لا يفعل دائماً كما يجب وأحياناً كثيرة تبقى والدتي صاحية، حتى في الليل مما يضطرنا للسهر معها لأن الأرق يزعجها جداً وتمضي الوقت وهي تناديني وتنهر نجوى وتطلب منها أموراً شتى وكل ذلك بصوت عالٍ جداً. لقد خارت كل قواها الجسدية ما عدا صوتها الذي لا زال يلعلع كما في السابق.

ـ هل تعتقدين أنها تنام تحت تأثير المنوم كما قلت أم تحت

تأثير الحنان الذي تغمرينها به أحياناً؟ سألت هبى.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ والدتك باتت كالطفل الصغير والطفل يحتاج إلى الحنان والحدب عليه كي يستكين ويطمئن ويتوقّف عن الصراخ و... لم تتركني هبى أتابع وقالت:

ـ لقد لاحظت ذلك، فكلما أقترب منها ويلامس جلدي جلدها ترتاح وتسترخي كأنها تحت تأثير مخدر فتبدأ بتقبيل يدي وتتحوّل إلى كائن طيع وسهل المراس. وكلما ابتعدت عنها أو قسوت عليها تحوّلت إلى إنسى شرسة وتعود إلى طبيعتها المتسلطة المعتادة، فهي لا زالت لا تتحمّل المعاندة والاستفزاز. وهذا ما يزعجني أحياناً في سلوك نجوى معها.

ـ هي لا تطلب الحنان من نجوى بل منك أنت.

ـ أعرف، لكن أحياناً يطفح الكيل لأنها من النوع الذي لا يرتوي، وأنا كائن بشري ولقدراته حدود؛ أتحمّل وأستمر بالتحمل إلى أن أنفجر. فما دمت في مرحلة التحمل تكون مستكينة وهادئة، لكن حين أنفجر ينهدم كل شيء وتنعتني بأسوأ النعوت وتلعنني ولا تعود إلى هدوئها إلا بانكساري أمام جبروتها فترضى علي وأصبح ملاذها الوحيد، وأحياناً تعتذر مني وهو أمر يؤلمني لأنني لا أتحمل انكسارها وأفضل عليه انكساري أنا، فأنسى غضبي وأحنو عليها من جديد.

ـ إنها الدوامة التي ارتضيت أن تزجي بنفسك فيها.

تجاهلت هبى ما قلته لها وتابعت:

ـ هناك أمر مستجد الآن؛ فبعدما أخبرتها أن أخي الموجود في الولايات المتحدة الأميركية سيعود إلى لبنان وهي تسألني كل يوم: «مين جايي من أمير كا»؟ وأجيبها: «ابنك». وتتابع: «جايه مع ولادو؟» فأجيبها بالإيجاب وتعود وتسأل: «جايه عطول؟» وحين أؤكد لها ذلك، تقول: «خيييييي». ومرة تابعت: «الغربة مضيّعة الأصول وأنا بنت الرجالي». هذه الأسئلة باتت تتكرّر كل يوم ومرات عديدة في اليوم الواحد حتى أن نجوى قالت لي مرّة: «والدتك تنتظر أن يعود أخوك وبعدها ترحل لأنها أصبحت «جلدة وعضمة»، فهي تعيش بهذا الأمل فقط».

ـ ربما كانت نجوى على حق، فأملها أن ترى ابنها هو الذي يبقيها حية. قلت لهبى التي اغرورقت عيناها بالدموع ولم تجب. لكن بعدما بلعت غصتها قالت:

ـ أعرف أنها انتهت أو بدأت تنتهي يوم نسيت أن تزيّن وجهها وتضع البلاش على خدّيها. كانت كل يوم صباحاً تقف أمام المرآة وتقوم بخط حاجبيها وتلوين خديها وتكحيل عينيها وتسريح شعرها الذي كانت تصبغه كلّما دعت الحاجة. وحين عجزت عن الوقوف أمام المرآة باتت تطلب أن نأتيها بمرآة صغيرة، تضعها على الطاولة أمامها وهي جالسة على سريرها وتقوم بما كانت تقوم به سابقاً. لكن بعد عودتها الأخيرة من المستشفى ما عادت تتزيّن إطلاقاً وكأنها نسيت الموضوع كلياً. هنا أدركت أنها بدأت تنقطع عن الخارج باتت déconnectée منقطعة عن محيطها، وانحسر عالمها إلى حدود جسدها. حتى أنها ما عادت تكترث لزيارات إخوتي لها؛ يأتون في الموعد المحدّد فتعاتبهم قليلاً على

إهمالهم لها ثم تغطّ في النوم، فنتركها ترتاح ونبدأ بتحليل وضعها وغيره من الأمور. وحين يذهبون وتستفيق تنسى أنهم زاروها.

ـ ملاحظتك نافذة جداً وأنا أوافقك الرأي في أنها بدأت تنتهي حين أهملت أو نسيت أن تجمّل صورتها وهو دليل فعلي على عدم اكتراثها بالآخر وبنظرته إليها كما في السابق. لقد بدأ الانغلاق على الذات.

هنا ابتسمت هبى وقالت:

ـ انقطاعها عن الخارج لم ينسها عشقها للملابس الجديدة؛ فحين علمت أن أخي سيعود من أميركا، قالت: «اشتريلي تايور جديد لإستقبلو فيه، خلي هند تنقيلي إياه».

«أعرف أنها تثق بذوق شقيقتي أكثر من ذوقي في اختيار الملابس، وأجبتها بأنني سأفعل، لكنها أصرت وقالت: «اطلبيها هلّق، خلّيها تروح عند... . هنه بيعرفو قياسي». لقد فاتها أن مقاسها قد تغيّر جداً بسبب ضمور جسدها. لم أخالفها الأمر وطلبت من شقيقتي أن تأتيها بتايور جميل، وفي اليوم التالي نُفّذ الطلب وزارتنا شقيقتي وهي تحمل كيساً من محلات... فرحت والدتي بالتايور وساعدناها على ارتدائه، لكنها لم تطلب منا أن ننقلها أمام المرآة لترى نفسها فيه كما في العادة، اكتفت بأن ارتدته لدقائق ثم طلبت منا أن تخلعه وأن نضعه في الخزانة حتى مجيء ابنها. نفّذنا ما طلبته ومن ثم لم تعد تذكره إطلاقاً ولم يعد لديها أي مطلب جديد حتى في مأكلها الذي بتنا نحضره لها من دون أن نسألها ماذا تريد وحتى لو سألناها فجوابها هو: «متل ما بدكن». وحين نحضر لها ما نراه مفيداً لها تستاء وتتمنّع عن

الأكل وغالباً ما كانت تطلب منا أن نقلي لها البيض بالسمنة الحموية، تلك السمنة التي تربّت على مذاقها في بيت أهلها والتي استمرت طوال حياتها على استعمالها.

ـ ماذا أقول لك، إنها النهاية، والحالة مرة وقاسية، أتمنى ألا تطول. قلت لهبى التي أجابتني:

ـ هيا فلنغيّر الموضوع لأنني، صحيح، منزعجة جداً من الحالة الراهنة لكنني أتهيّب من النهاية وكل ما أطلبه من ربي هو ألا أكون في البيت حين تفارق والدتي الحياة. تخيلي أنني أراقب دائماً تنفسها حين تنام لأطمئن إلى أنها ما زالت على قيد الحياة، وأحياناً أقترب منها وأوقظها كي أتأكد أنها حية.

ـ الأمر طبيعي، كلنا نهاب الموت، قلت باقتضاب قبل أن أنصرف لأن الجلسة كادت أن تتحوّل إلى دراما.

12

مر أسبوع ولم تتصل بي هبى فقلت لنفسي إنها بخير وإلا لأعلمتني بحالها، لكن لا بد من أن أمراً ما يستغرقها وعلي أن أسألها عنه. اتصلت بها، فأجابتني بأن أخاها عاد من أميركا وهي الآن مشغولة به.

ـ وكيف كان استقبال والدتك لابنها؟ سألت هبى.

ـ لم يكن كما كنت أتوقّع؛ لم يكن حاراً من جهتها كما عودتنا حين كان يزورنا من قبل؛ عرفته بالتأكيد، لكن ولديه تغيرا عليها وعبّرت عن ذلك بقولها: «اسم الله شو كبرو ما كنت عرفتهن». أشعر بأنها فقدت حماستها المعتادة لكن صوتها ما زال مرتفعاً ولا زالت لهجتها آمرة. وحين غادر أخي مع عائلته قائلاً لها إنه سيزورها باستمرار، لم تجبه بأنها تريد الذهاب إلى بيته كما كانت تقول له دائماً حين كان يزور لبنان من قبل، حتى أنها نسيت

التايور الجديد الذي طلبته لاستقبال ابنها، كل ما قالته هو: «لا تتأخر عليي». حزن أخي جداً لوضعها وبكى، لكنه انصرف مع عائلته وتركني معها وها أنا الآن مشغولة بها وبه، لكني مشتاقة إليك وأود رؤيتك بأقرب وقت.

حين تقول هبى إنها تريد مقابلتي فهذا يعني أنها تودّ أن تخبرني عن حالها أو أن تحلّل وضعها أمامي، لذلك أجبتها بأنني حاضرة والتقينا بعد ظهر اليوم نفسه وباشرتُ بسؤالها: «ما هو جديدك؟»

ـ جديدي مضحك مبكٍ؛ قلت لك في السابق إنني ما عدت أملك من بيتي سوى سريري، يبدو أن وقت احتلاله قد حان.

ـ ماذا تقصدين ومن يريد احتلاله؟

ـ هي، فكل مساء حين نحاول إدخالها إلى غرفتها كي تنام تسأل: «وين بتنام هبى؟» وحين تجيبها نجوى بأنني أنام في غرفتي، تقول: «بدي نام معها في تختها،» وتبدأ بالصراخ والإلحاح في طلبها، ونجوى تحاول إقناعها بأنها تنام على فراش من ماء كي لا تعقر وأن سريري غير مجهّز مثله، فتكيل بعض السباب لنجوى وتنهرها: «شو أنت بدك تتحكّمي فيي». فأقترب منها وأحاول تهدئتها وأفهمها أن غرفتي لصيقة بغرفتها وأنها تنام بالقرب مني. وبعد معالجة وممانعة تتمكن نجوى من تمديدها في سريرها وتظل «تنق» حتى يفعل المنوم فعله فتنام. لكن نومها ما عاد منتظماً، فهي تستفيق مرات عديدة في الليل وتطلب أموراً شتى، أسمع نجوى تنهرها وتقول: «يلا نامي لم يطلع الصباح بعد».

ـ ألم تتساءلي لماذا تريد النوم إلى جانبك؟ سألت هبى.

ـ هي تريد أن تستملكني ليلاً ونهاراً.

هززتُ برأسي ولم أجبها بما كنت أفكر به وطلبت منها أن أرافقها إلى بيتها كي أزور والدتها، رحّبت هبى بالفكرة ونفّذت ما طلبت منها.

دخلنا بيت هبى وتوجّهنا إلى الصالون فوجدنا والدتها ممدّدة على السرير وغافية. اقتربت منها هبى ونادتها، لكنها لم ترد عليها، هزّتها ففتحت عينيها للحظة ثم أغمضتهما. ارتبكت هبى ونظرت إلي كأنها تطلب النجدة، دنوت من والدتها وأمسكت بيدها كي أتأكّد من نبض قلبها وقلت لهبى: «ربما أعطتها نجوى كمية كبيرة من المنوم، لا تخافي فهي تتنفس ونبضها منتظم».

ـ لم أعطها إلا الكمية المعتادة، أجابت نجوى، منذ ساعة تقريباً وهي نائمة، لكنني مطمئنة لأنها تتنفس كالعادة.

حاولت هبى من جديد إيقاظها، لكنها لم تفق وكل ما كانت تقوم به هو أنها تفتح عينيها للحظة ثم تغمضهما كأنها لا ترى بهما.

ـ الوضع غير طبيعي البتة، قالت هبى سأتصل بشقيقتي وأخبرها.

اتصلت هبى بشقيقتها وبعدها بأخيها الطبيب الذي عاد من أميركا، وقالا لها إنهما آتيان. وصلا وعاينها الطبيب وقال إنها في غيبوبة، واختلفت الآراء حول علاجها فارتأت الشقيقة أن نتركها ترحل بأمان ومن دون عذاب لأنها لا تشعر بشيء، وانبرت هبى لتقول: «ما دامت تتنفّس فلن نتركها من دون علاج». وافقها أخوها الرأي واتصلت بالصليب الأحمر ونقلوها إلى المستشفى.

في المستشفى أجريت لها الفحوصات وتبيّن أن نسبة السكر في الدم تتجاوز الثماني مئة وأن هذا الارتفاع في نسبة السكر هو سبب غيبوبتها من دون أن يُعرف لماذا ارتفعت تلك النسبة فجأة. بعد الفحوصات عُلِّق لها المصل مع الأدوية اللازمة وبات علينا انتظار النتيجة. بعد أكثر من ساعة بدأت تفتح عينيها وقال الطبيب إنها تتجاوب مع العلاج وستخرج من غيبوبتها رويداً رويداً وطلب منا الانصراف لأن حالتها تتحسّن وأنه سيسهر على وضعها ولا داعي للخوف. بقيت نجوى معها وانصرفنا. لكن هبى لم تطمئن وطلبت مني أن أرافقها إلى البيت. استجبت لطلبها وعدنا إلى بيتها وكانت الساعة تقارب العاشرة مساءً.

ـ هل تنجو؟ سألتني هبى.

ـ علينا توقّع كل الاحتمالات، فالوالدة تخطت التسعين من عمرها وبدنها بات هزيلاً، كما رأيته اليوم، آمل أن تتخطّى هذه الأزمة، لكن إلى متى؟

ـ يا رب، إن كان لا بد من رحيلها فاجعله في المستشفى وليس في بيتي، لا أتحمل ذلك. قالت هبى، ثم طلبت نجوى وسألتها عن حالة والدتها. وأجابتها نجوى بأن الوالدة نائمة.

أقفلت الخط وسألتني: «هل هي فعلاً نائمة أم أنها لا زالت في غيبوبة؟ سأطلب الطبيب وأستوضح الأمر منه.

ـ انتظري حتى الصباح كي يعطي العلاج مفعوله. أجبتها. لكنها لم تعر كلامي أي اهتمام وطلبت الطبيب وسألته:

ـ هل خرجت من غيبوبتها؟

ـ...

ـ يعني أننا غداً سنجدها بخير؟

ـ...

ـ الله يسمع منك ويوفقّك.

أقفلت هبى الخط وقالت: «يبدو أن وضعها يتحسّن، ويأمل الطبيب أن تستعيد عافيتها سريعاً لأن منسوب السكر بدأ يتضاءل وضغط الدم جيد و...

ـ نأمل خيراً، أجبتها وتهيأت للرحيل.

ـ أراك غداً إذاً. أجابتني.

ـ بكل تأكيد لن أتركك وحدك في هذه المحنة. أما الآن فائوي إلى النوم.

ـ لن أتمكن من النوم هذه الليلة. أجابتني.

ـ خذي حبة منوم وارتاحي.

ـ هذا ما سأقوم به، إلى لغد.

13

صبيحة اليوم التالي اتصلت بهبى وسألتها: «متى ستزورين والدتك؟».

ـ لن أتأخر سأرتدي ملابسي وأذهب إليها، يبدو أنها استفاقت.

ـ الحمد لله على السلامة، سنلتقي في المستشفى إذاً.

توجهت مباشرة إلى المستشفى والتقيت هبى في المرأب المخصّص لسيارات الزوار وصعدنا معاً إلى غرفة والدتها، التي، حين رأتنا ابتسمت ورحّبت بنا. دنت منها هبى وقبّلتها وسألتها عن حالها.

ـ رحت مبارح عفلسطين، رحنا لنزور القدس. أجابتها والدتها.

ـ مع من ذهبت إلى القدس؟ سألتها هبى وهي مذهولة.

ـ كنا كتار، رحنا بالمركب، بس هالمطران واحد لئيم، مانو منيح. قالت ذلك وهي تهز برأسها. فما كان من هبى إلا أن سألتها:

ـ من أنا؟ هل عرفتني؟

ضحكت والدتها وقالت: «أنت هبى، بس ما رحتي معنا».

استدارت هبى نحوي وعلى وجهها سؤال كبير، فقلت:

ـ هل كانت والدتك ترغب في زيارة القدس؟

ـ لا علم لي بذلك، لكن ما هذا الهذيان؟

ـ لا أدري، ربما تكون قد حلمت بذلك في غيبوبتها، لا أحد يعلم.

أتى الطبيب وعاين الوالدة وقال لهبى: «إنها بخير وكل الفحوصات جيدة».

ـ أي خير وهي تهذي؟ سألت هبى.

ـ صحتها جيدة، لكن لا أدري إن كان دماغها تأثّر من ارتفاع نسبة السكر في الدم. علينا أن ننتظر قليلاً كي نتأكّد. أجابها الطبيب.

بعد قليل توافد إلى المستشفى إخوة هبى وسمعوا من والدتهم ما سمعته هبى مع أنها عرفتهم كلهم. فساد جو من القلق بينهم وتساءلوا عما سيفعلونه بها بعد خروجها من المستشفى إذا بقيت

على هذه الحالة، وانقسمت آراؤهم بين من اقترح إعادتها إلى بيتها مع تأمين كل ما تحتاج إليه من خدم وغيره وبين من فكّر جدياً في وضعها في مكان متخصّص بالمسنين أو... استمعتْ إليهم هبى ثم قالت: «فلننتظر ونر ثم نقرّر».

ـ على كل حال سنبقيها في المستشفى حتى تتعافى كلياً على الصعيد الجسدي ثم نقرر. قال أخوها البكر ليقفل الموضوع.

غادر الإخوة الرجال وبقيت هبى مع شقيقتها في غرفة الوالدة فاقترحتُ عليهما أن نشرب القهوة في مقهى المستشفى. قبلتا اقتراحي وتوجهنا بصمت إلى الطابق السفلي. جلسنا حول الطاولة وبادرت الشقيقة إلى القول:

ـ علينا أن نكون واقعيين، فإن ظلت والدتي على حالها من الضياع فمن الأفضل لك يا هبى أن ننقلها إلى بيتها فتتحرّرين قليلاً وتستقلّين في بيتك ولو لبعض الوقت من النهار وتزورينها كما كنت تفعلين سابقاً.

ـ وأنتم ماذا تفعلون؟ ترتاحون وترمون الحمل على ظهري. أجابتها هبى. فما كان من شقيقتها إلا أن انفعلت وقالت:

ـ لسنا مستعدين لخراب حياتنا وإيقاف أعمالنا من أجلها، فلكل منا متاعبه وأولاده و... «الدنيا نزول» ولا أحد يضحّي بذاته من أجل أهله، بل على العكس يضحي الأهل من أجل أولادهم.

انتفضت هبى وقالت بنبرة عالية: «سأنقلها إلى بيتي ولست بحاجة إلى أحد منكم».

ـ الانفعال لا ينفع، والخيار لك، إن أردت أن تنقليها إلى بيتك فافعلي، لكن أنبهك إلى أن الأمر يمكنه أن يطول، أنا أفكر بمصلحتك. قالت شقيقتها.

صمتت هبى ولم تجب، وبعدما غادرت شقيقتها قالت لي: «الأمر أقوى مني، لن أتحمل تركها وحدها حتى ولو كان معها مئات الخدم، سأعيدها إلى بيتي مهما حصل».

ـ لن أقنعك بعكس ما ترغبين به، لكنني أجد أن شقيقتك أكثر واقعية منك وما تقترحه ليس سيئاً لك ولوالدتك.

ـ وإن عادت إلى وعيها ووجدت نفسها في بيتها ألا تشعر أننا تخلينا عنها؟ سألتني هبى.

ـ الأمور ستنجلي عما قريب ولكل حادث حديث. أجبتها قبل أن أتركها وأنصرف.

تركت هبى وأنا أفكر بماهية هذه العلاقة التي تربطها بوالدتها؛ هل هبى مازوشية إلى هذا الحد؟ هل تستمتع بعذابها ولا تود الخروج منه ولو لفترات قصيرة كما اقترحت عليها شقيقتها؟ أشعر كأنها هي وحدها من يتألم لوضع والدتها لأن الآخرين أكثر واقعية منها. هل تتقمّص حالة والدتها إلى درجة التماهي؟ هل ترى مستقبلها من خلال راهن والدتها ولهذا السبب ترفض أن تبتعد عنها كأنها لا ترغب في تفويت أي شيء عليها؟ سأكون صريحة معها وأطرح عليها كل هذه الأسئلة.

14

صبيحة اليوم التالي اتصلت بعيادتي وطلبت من المساعدة أن تؤجّل كل مواعيد هذا النهار وتوجّهت إلى المستشفى حيث والدة هبى متأكدة أنني سأجد صديقتي هناك. دخلت عليهما ووجدت الوالدة بأحسن حال؛ رحّبت بي وأثنت على أناقتي وعبّرت لي عن حبها لي لأنني صديقة بالفعل ولست كغيري من صديقات هبى. تحادثنا بمواضيع شتى واكتشفتُ أنها في قمة الوعي الأمر الذي أسعد هبى. بعد أكثر من ساعة توافد أبناؤها إلى المستشفى لزيارتها وفوجئوا بحالتها المستجدّة وأتى الطبيب وهنأهم بسلامتها، وحين غادر تبعه الابن البكر ليستوضح الأمر وحين عاد قال لوالدته: «ستبقين في المستشفى أياماً قليلة بعد لاستكمال العلاج ثم نعيدك إلى البيت».

ـ أي بيت؟ سألت.

ـ إلى بيتي حيث كنت، أجابتها هبى.

ـ هيك منيح، بس طلّعوني من هون ما بطيق المستشفيات.

صمت الإخوة للحظات ثم باشروا أحاديث في أمور شتى قبل أن ينصرفوا واعدين والدتهم أنهم لن يتأخروا بالعودة إليها.

أتوها بوجبة الغداء، فطلبت منا نجوى أن نخرج كي تطعمها. تركنا الغرفة ودعتني هبى إلى تناول الغداء في مقهى المستشفى. فكرت أن أستوضح من هبى حول الأسئلة التي طرحتها على نفسي البارحة، لكن سعادة هبى بعودة والدتها إلى كامل وعيها دفعتني إلى الصمت والإصغاء إليها إذ قالت:

ـ أتحمّل تدهورها الصحي، لكنني لا أتحمل فقدانها للوعي. ففي هذه الحالة أشعر بالشفقة عليها وهو شعور يؤلمني وبخاصة حيالها، فهي إنسى قوية جداً لا تجوز عليها الشفقة. صحيح أنها لا تطاق حين تكون بكامل وعيها لكنني أفضل ذلك على هذا الشعور الذي يمزقني من الداخل. صمتت لبرهة ثم تابعت: أظن أن وضعها الصحي ليس على ما يرام، ألم تلاحظي انتفاخ ذراعيها؟

ـ لاحظت، لكن ربما كان ذلك بسبب المصل. أجبتها.

ـ سأستوضح الأمر من الطبيب، لا أدري ماذا قال لأخي.

ـ سيزورها مرة ثانية وستتأكّدين بنفسك.

عدنا إلى غرفة الوالدة وأخبرتنا نجوى أنها لم تتناول الغداء فسألتها هبى عن السبب.

ـ أكلهن ما بيتاكل، ما في إبلعو. أجابت الوالدة.

نظرت هبى إلي وقالت: «الأمر ليس جديداً فهي دائماً ترفض أكل المستشفيات». ثم توجهت إلى والدتها وسألتها: «سأجلب لك طعاماً من المطعم، ماذا تريدين؟».

ـ طالع عبالي كفته مشوية بس مش من المطعم.

ـ سأحضرها بنفسي. أجابت هبى وهي تتهيّأ للمغادرة.

رافقت هبى، وقبل أن نصل إلى آخر الممشى التقينا الطبيب، فاستوقفته هبى وسألته عن حالة والدتها الصحية.

ـ صحياً، ليست على ما يرام، رئتاها متعبتان جداً ونحن نعالجها لذلك، لكنني لا أتوقع تحسناً فعلياً، لا تنسي سنها.

ـ وماذا يعني ذلك؟ سألته هبى، هل وضعها خطر؟

ـ لم أقل ذلك، والأعمار بيد الله، لكن وضع القلب جيد حتى الآن وتمكنا من تثبيت نسبة السكر في الدم وضغطها ممتاز، والباقي «عألله».

ـ ومتى تخرجها من المستشفى؟

ـ لن نبقيها طويلاً، يومين أو ثلاثة، ليس أكثر.

شكرت هبى الطبيب وتابعنا سيرنا وأمام المستشفى التقينا شقيقتها التي عادت لزيارة الوالدة بعدما انتهت من عملها.

ـ وضعها الصحي ليس على ما يرام، بادرت هبى إلى القول حين اقتربت من شقيقتها.

ـ أعرف، والحالة من سيئ إلى أسوأ الآن، كما أن من الممكن أن تنجو من احتقان الرئتين كما في السابق، لا أحد يعلم. لكن إلى أين أنت ذاهبة الآن؟ سألت الشقيقة.

ـ سأحضر الكفته المشوية للوالدة. أجابت هبى.

ـ كالعادة، قالت هند وهي تضحك، سأنتظر عودتك، لا تتأخري لأنني مشغولة بعد ساعة.

15

أمضت الوالدة أسبوعاً في المستشفى ثم أعادتها هبى إلى بيتها، وحين زرتها بعد يومين، أخبرتني هبى إن والدتها ما عادت مثل قبل:

ـ هي الآن ممدّدة في السرير طوال اليوم ولا تطلب منا أن ننقلها إلى الصالون، وأكلها تضاءل جداً وهي لا تطلب سوى الماء. حتى أن صوتها قد خبا وما عادت تعاكس نجوى وتأمرها كما في السابق.

ـ اتركيها ترتاح ولنخرج قليلاً. اقترحت على هبى.

وافقتني الرأي ودخلنا غرفة الوالدة كي تقول لها هبى إنها لن تتأخر، فأتى جواب الوالدة بصوت خفيض: «لا تتركيني».

ـ ساعة فقط وأعود. أجابتها هبى.

خرجنا من البيت وجلسنا في مقهى قريب من بيت هبى وحاولت أن أبعدها عن موضوع والدتها وغصنا في أمور شتى قبل أن تطلب هبى العودة.

تركنا المقهى وتوجهت هبى بسيارتها نحو بيتها، دخلت المرأب وصفّت السيارة مكانها. رن حرس هاتفها، أخرجته من محفظتها وقالت: «إنها نجوى، الله يستر». لم تجب على الهاتف وصعدنا إلى البيت وما أن فتحت هبى الباب حتى وجدنا نجوى التي قالت لهبى: «لا تدخلي غرفة الوالدة لقد تسهّلت».

ـ منذ متى؟ سألت هبى.

ـ منذ عشر دقائق.

ـ وهل أنت متأكدة أنها ماتت فعلاً؟

هزّت نجوى برأسها وصمتت، لكن هبى تابعت:

ـ هل كان الأمر صعباً؟ هل تعذّبت؟

ـ لا، أجابت نجوى، بعدما أطعمتها قليلاً وغسلت لها وجهها ويديها، شهقت شهقتين وأسلمت الروح.

ـ ماذا قالت قبل أن ترحل؟

ـ لم تقل شيئاً.

نظرت إلى هبى فوجدتها تترنّح كأنها ستهوي على الأرض، اقتربت منها وساعدتها على الوصول إلى الصالون حيث أجلستها على كنبة وطلبت من الخادمة أن تأتيها بالماء. لم تنفجر بالبكاء، كما كنت أتوقع، كانت مذهولة وتردّد: «مش معقول، مش معقول».

ـ فلنتأكد، قلت لها، تعالي لنراها.

ـ لا، صرخت بي، لست قادرة على رؤيتها، ستبقى في ذاكرتي حية.

دخلتُ غرفة الوالدة ووجدتها ممدّدة على السرير كأنها نائمة، اقتربت منها وجسست نبضها الصامت وتأكدت من عدم تنفسها، فقبلتها وعدت إلى الصالون، لأقول لهبى:

ـ هيا استدعي إخوتك لترتيب المرحلة التالية.

اتصلت هبى أولاً بشقيقتها ثم بأشقائها الذكور. أول الوافدين كانت هند التي دخلت مباشرة إلى غرفة الوالدة ثم خرجت وهي تبكي وتقول: «كأنها غافية». ثم وصل الأخ الطبيب وفعل مثلها، وتوافد الآخرون تباعاً وهبى تسأل كل واحد يخرج من الغرفة: «هل فعلاً ماتت؟» من دون أن تدخل لتراها. رفضت رفضاً كلياً أن ترى والدتها ميتة، بقيت جالسة في الصالون حيث اجتمع الإخوة وبعض الأقارب وقرّروا أن يضعوا الجثة في براد المستشفى ليومين كي يتسنى لهم تهيئة مراسم الدفن وترتيب مأتم يليق بها كما أجمع على ذلك كل الأشقاء.

بعد تداول الموضوع انصرف الإخوة الرجال موكلين أحد الأقارب

بترتيب نقلها إلى المستشفى. بقيت شقيقة هبى معها بانتظار من يأتي لنقل جثة الوالدة. لكن حين أتوا ودخلوا غرفة الوالدة للقيام بما هو مطلوب منهم، خرجت هبى من الصالون إلى مكتبها وانفجرت بالبكاء والعويل وهي تصرخ بأعلى صوتها: «ليش يا ربي ليش؟». طلبت من الخادمة أن تأتيها بماء الزهر، لكنها رفضت أن تتناول أي شيء وهي تلطم وجهها وتصرخ وترتجف كطائر مذبوح. وما أن أقفل الباب وراء الرجلين ومعهم الوالدة حتى صاحت هبى بأختها: «اتصلي بالمستشفى واطلبي منهم أن يجروا كل الفحوصات اللازمة للتأكد من أنها فعلاً قد ماتت، هل ندفنها وهي حية؟».

قامت هند بما طلبته منها هبى ثم قالت لها: «ستذهبين إلى بيتي هذه الليلة، لن أتركك هنا». وافقتُ فوراً على طلب هند وهبى لم تمانع، وخرجنا معاً قبل أن أستودعهما واعدة هبى أنني سأكون عندها صبيحة يوم الغد باكراً.

16

صبيحة اليوم التالي توجهت إلى بيت هبى، دخلت عليها فعانقتني وهي تبكي، ثم توجّهت إلى نجوى تشكرها على كل ما قامت به مع والدتها، دفعتْ لها أجرها وأكرمتها بقيمة إضافية وصرفتها وهي تردّد: «إن احتجتِ إلى أي شيء اتصلي بي».

بعد ذهاب نجوى قالت لي هبى: «لولاها لما عاشت والدتي حتى الآن. لكنني لا أستوعب ما حصل، لا أصدق أنها ماتت».

ـ أمر طبيعي، هذا الشعور، لكنه سيتلاشى مع مرور الأيام.

ـ إنها تملأ البيت وأراها أينما كان.

ـ... .

ـ لكن أصعب لحظة كانت لحظة أخرجوها من البيت، لحظة

اللاعودة، لحظة النهاية. شعرت بأن قلبي ينخلع من مكانه، لم أتحمل أنها لن تعود، أنها انتهت، أنها لن تناديني طوال الوقت لأقترب منها وأمسد على يديها وشعرها وتقول لي جملتها التي لن أنساها: «لا تتركيني، مالي غيرك».

ـ هل ارتحت قليلاً ليلة البارحة؟ سألتها كي أبعدها عن الموضوع.

ـ لم أتمكن من النوم ولو لساعة واحدة؛ كل الوقت كنت أتخيلها في ذلك البراد وفي الظلمة هي التي كانت لا تنام إن أطفأتا النور. كيف تحمّلت تلك العتمة وذلك الصقيع؟ كيف؟ كيف؟ صرخت هبى.

ـ عودي إلى الواقع؛ هي لم تشعر بشيء، أنت تخيلت نفسك في ذلك البراد، أما هي...

ـ ماذا لو أنها لم تمت ووضعناها في البراد؟

ـ لقد عاينها الأطباء وتأكدوا من موتها، هل نسيت ذلك؟

ـ ماذا لو استفاقت ووجدت نفسها في ذلك «الجارور» المظلم والبارد؟

ـ لم يحدث أن استفاق أحد من الموت بعدما توقّف قلبه ودماغه عن العمل. إنك تتعذبين لأنك تتخيلين نفسك مكانها.

ـ صحيح، لكني غير قادرة على تقبل فكرة أنها انتهت.

...ـ

ـ إنها قبالتي وأرى نجوى تطعمها الفطور وستنقلها بعد قليل إلى

هذا السرير. قالت هبى ذلك وهي تشير بيدها إلى السرير الصغير الموجود في الصالون.

ناديت الخادمة وطلبت منها أن تنقل السرير إلى غرفة الوالدة وأن تعيد ترتيب الصالون كما كان في السابق. أردت أن أبعد هبى قليلاً عما يذكّرها بالمرحلة السابقة. لكنها قالت:

ـ الصورة منطبعة هنا في رأسي ولا يفيد تغيير المشهد. كيفما توجّهت في البيت أراها وأسمعها.

ـ ولهذا السبب كنت أعارضك في نقلها إلى بيتك، كنت أعلم أثر ذلك عليك بعد رحيلها.

ـ عانيتُ الكثير من نقلها إلى بيتي، هذا صحيح، وكنت أحياناً أفكر بإرجاعها إلى بيتها كما كانت تنصحني شقيقتي وآخرون لكنني الآن غير نادمة على ما فعلت، لا بل أنا مرتاحة لأن حلم حياتها كان أن تعيش معي، وقد حقّقت لها ذلك ولو لفترة قصيرة لا تتعدّى الستة أشهر. لو علمت أنها ستموت بهذه السرعة لكنت نقلتها من قبل. هذا هو عزائي الوحيد الآن.

ـ لقد قمت بكل واجباتك وأكثر وضميرك مرتاح و...

ـ القضية ليست قضية ضمير وواجبات، القضية هي أنها رحلت إلى الأبد، أنها لن تعود، أنها انتهت، أنها... صرخت بي وهي تجهش بالبكاء.

ـ كلنا على هذه الدرب وكلنا سنموت وننتهي، إنهم السابقون ونحن اللاحقون.

ـ والله أعرف، لكن المعرفة هنا هباء، أمام الفراق يتعطل العقل وتطغى شبكة من الأحاسيس التي تنهش كل كيانك. كل فراق يؤلمني فكيف إن علمت أنه نهائي؟

حاولت المستحيل كي أخرجها من هذه الأفكار واجترارها، لكنني عجزت وقرّرت أن أصدمها بتذكيرها ببعض مواقفها السابقة وقلت:

ـ ألم تتمنّي موتها في وقت من الأوقات؟ نعم، لقد تمنيت ذلك وقد عبّرت عنه ولو بطريقة مواربة. ووالدتك عاشت حياتها وليعطنا الله عمراً كعمرها، وفي النهاية باتت الحياة عذاباً لها، لقد ارتاحت.

ـ كنت أتمنى موتها، أحياناً، في ثورات غضبي وتوتري وعدم قدرتي على التحمل وأنا الآن نادمة على ذلك، لم أكن أقدّر معنى غيابها وما سيفعله بي، لا أتحمل ولا أقبل أنها لم تعد موجودة، لا أصدق، أرفض، ولا أظن أنني سأتقبل لاحقاً. صورتها لا تفارق خيالي، ولن أنسى ما حييت لحظة أخرجوها من البيت وهي ملفوفة بالـ«شرشف» كأنها شيء وليس كائناً بشرياً. هل يعقل أن يتحوّل الإنسان بلحظة إلى شيء إلى مجرد كتلة جامدة؟

ـ إنه الموت، يا عزيزتي، وعلينا تقبّله كما نتقبل الحياة.

ـ وما هي هذه الحياة؟ وما قيمتها إن توقفت على نبض ونفس؟ إنها، بالفعل، مشروع فاشل. نتحارب ونتقاتل ونناضل ونعمل ونجمع المال ونتألّم ونفرح ونعلو ونخفض ونضحك ونبكي و... حتى، في النهاية، نتحول إلى كومة مادية بلا حراك، تنقل إلى براد ثم إلى المقبرة.

ـ الحياة جميلة والبرهان أننا لا نفكر بالموت إلا لحظة حدوثه، وبخاصة إن طاول أحد الأحبة. فلنعش حياتنا كما ينبغي ولننس الموت ولنتبع نصيحة أبيكور الذي قال إن التفكير بالموت معادلة خاطئة، لأننا حين نكون على قيد الحياة فالموت منفي وحين نموت تنتفي الحياة، فهما لا يلتقيان إطلاقاً. ولهذا السبب، يا عزيزتي هبى، عذابك آتٍ من كونك لا تفصلين بينهما.

ـ كيف لا أفصل؟ لكنني أقول لك أنني لا أتحمل هذا التحول السريع ولست قادرة على تقبل أن والدتي انتهت وأنها رحلت إلى غير رجعة. أعرف أنها ماتت، أنا لا أرفض هذه الواقعة لكنني عاجزة عن تقبل ما تعنيه في الواقع.

ـ أتفهم حالتك الآن وأترك للأيام أن تفعل فعلها، وكما يقال، كل شيء يولد صغيراً ويكبر ما عدا المصيبة فهي تولد كبيرة وتصغر. مرور الزمن هو الدواء الوحيد. وأنا مقتنعة أنني لن أتمكن الآن من تغيير أحاسيسك وما يحرك كل كيانك.

ـ أشكر لك مواساتك ووقوفك إلى جانبي في هذا الظرف، لكن أستأذن منك لأننا سنجتمع في بيت أخي البكر كي نخطط لمراسم الدفن والعزاء. وسأتصل بك حين ننتهي.

استودعتها قائلة: «أنا أنتظر اتصالك وقد تحرّرت من كل مسؤولياتي كي أتواجد إلى جانبك في هذه الأيام».

شكرتني وانصرفت.

تركت هبى وأنا أفكر بها وبما تعانيه من غياب والدتها، هذه المعاناة التي لم أكن أتوقعها. هل هو الندم؟ أي ندم تعيشه هبى

الآن؟ أعترف بأنها قامت بكل واجباتها وأكثر وأنها ألغت قسماً كبيراً من حياتها الخاصة من أجل والدتها. هل عذابها الآن ورفضها للواقع هو رد فعل طبيعي أم دليل على مدى تعلق هبى بوالدتها الذي كانت تكابر وترفضه حين كانت الوالدة حية؟ كانت تحاول إظهار الأمور على غير حقيقتها، إذ أوهمت نفسها وأوهمتنا أن والدتها هي شديدة التعلق بها وبأنها هي ليست كذلك. هل كانت تكذب على نفسها؟ ولماذا؟ كان باستطاعتها أن تسلك مع والدتها كما سلك كل إخوتها، فلماذا لم تفعل وجعلت منها همّها شبه الوحيد؟ أليس ذلك دليلاً على تعلق هبى، ربما غير الواعي، بوالدتها والذي ترفضه في وعيها؟ ولماذا كانت ترفضه؟ هل لتظهر قوة غير حقيقية أو لتتباهى باستقلالية ناضلت من أجلها؟ أنا متأكدة الآن أن هبى ليست مازوشية كما وصفتها مرة، بل هي كتلة من المشاعر المحبة حتى ولو أظهرت العكس في ساعات غضبها. وأذهب إلى أبعد من ذلك لأقول إن هبى رفضت الإنجاب لتستمر الابنة، ابنة أمها المدلّلة. حتى أن الوالدة لم تكترث لعدم إنجاب هبى وكأن تواطؤاً خفياً بينهما في الإبقاء على واقع تريدانه معاً. هبى الآن من دون أم، فما عادت الابنة المدللة وليس لديها أبناء تعكس عليهم عاطفتها لتكون أماً، وهنا تكمن معاناتها التي لن تخرج منها بسهولة، إلا إذا تمكّنت من نقل اهتمامها بوالدتها إلى شخص آخر يعوضها الفراغ الذي ستقع فيه. هل أنا مصيبة في تحليلي؟ لست أدري وسأترك للأيام بلورة الأمور.

17

بعد عودتها من الضيعة زرت هبى حسب الاتفاق بيننا. استقبلتني بثيابها السوداء وأخبرتني عن المأتم الذي أقيم لوالدتها، قالت:

ـ كان المأتم يليق بها وكما أرادت؛ وصلتُ مع شقيقتي قبلها إلى الدار التي غصّت بأهالي الضيعة استعداداً لاستقبال الجثمان. وحين علمنا أن الموكب الذي يرافقه إخوتي الذكور، يقترب من الضيعة، نهض الجميع وتوجهوا إلى الطريق العام حيث أنزلوا التابوت من السيارة وحمله الشبان على الراحات حتى أدخلوه حديقة البيت ووضعوه على طاولة كنا قد هيأناها من قبل، وبدأت النسوة بالـ«عدّ» واستذكار مكارم تلك الإنسى التي يحترمها الجميع ويهابونها أيضاً. ذكرن في رثائها هي ابنة من وزوجة من ووالدة من وأتى الكاهن وصلى صلاة الموت وتهيأنا لنقلها إلى الكنيسة فاقترحت بعض النسوة أن نفتح التابوت لإلقاء النظرة الأخيرة عليها.

رفضتُ ورفضت شقيقتي فتح التابوت، رفضنا كي تظل صورتها البهية في أذهان الناس، عزّ علي أن يشهدن على تدهورها، لن أتحمّل أن ينظر إليها أحد بشفقة، وأنا متأكدة أنها هي أيضاً لا ترضى. لم يُفتح التابوت وعادوا وحملوه إلى الكنيسة حيث صلّى المطران وكوكبة من الرهبان على روحها وألقى المطران، وهو ابن الضيعة، كلمة عدّد فيها صفات تلك الإنسى الجبارة التي بتضحياتها وحسن تربيتها أعطت للمجتمع خيرة الشبان والشابات. حين انتهت المراسم الكنسية حُمل النعش من جديد إلى جبانة الضيعة حيث وضع في مقبرة العائلة. لم أرافق النعش إلى مثواه الأخير لأن التقاليد، في الضيعة، تفرض أن يكون الرجال وحدهم هم من يقومون بهذه المهمة. لكن حين عاد إخوتي من الدفن أكدوا لي أنهم فتحوا التابوت وتأكدوا للمرة الأخيرة من موتها، وقال لي أخي الطبيب وهو يبكي: «بدت كتمثال من شمع».

ـ رحمها الله، والآن ماذا بعد؟ سألتُ هبى.

ـ لا زال أمامنا يومان من التعازي في بيروت، ثم تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي، لكن من دونها، قالت هبى وأجهشت في البكاء، ثم صاحت: «لا لن أتحمل غيابها. في الضيعة كنا مشغولين بالناس، أما الآن وقد عدت إلى بيتي، فلن أتمكّن من نسيانها وهي تملأ البيت وأراها في كل مكان وأسمع صوتها يطن في أذني، كيف لي أن أنساها؟ لا، لن ترحل إلا برحيلي».

استمرّت التعازي ليومين في العاصمة بيروت وأتت كما توقع الجميع إذ شارك فيها كل شخصيات البلد من أعلى رتبة حتى أدناها، وهذا ما أخبرتني عنه هبى وعلقت: «لقد عُمل لها ما تستأهله. كانت، بالفعل، إنسى عظيمة».

ـ كيف لا وقد أنشأت هذه العائلة الممتازة والمميزة، فأنت وأختك وأخواتك، كلكم من خيرة الناس بثقافتكم ووطنيتكم ومواقفكم و... قلت لهبى التي قاطعتني:

ـ كل هذا لا يفيد، لقد رحلت تاركة فراغاً لا يعوّض.

كنا في بيتها حين دار هذا الحديث بيننا، فما كان مني إلا أن اقترحت عليها أن نباشر بلملمة وتوزيع كل الأغراض التي تذكرها بوالدتها. وافقتني الرأي واتصلت بأحد الأقارب لمساعدتنا. رفعنا السرير من غرفة الوالدة وطلبت هبى من قريبها أن يهديه مع الكرسي النقال والخفاضات والأدوية إلى من هو بحاجة إليها من المسنين الفقراء، وأعدنا ترتيب البيت كما كان من قبل. ثم دخلت هبى إلى المطبخ وجمعت كل ما كانت تأكله والدتها من حليب وجبنة وموز وجلو وكاستر و... جمعتها كلها ونادت ناطور البناية وسلمته إياها. ثم طلبت من الخادمة إحضار القهوة.

جلسنا معاً وبادرت هبى إلى القول:

ـ لا يمكنك أن تتصوري هول الفراغ الذي تركته، أشعر بأن أطناناً قد رفعت فجأة عن كتفي وأنني بت من دون وزن أدور على نفسي من دون أن أجد ما أتمسك به، هوّة لا قعر لها رُميت فيها، ما كنت لأتوقع ذلك قبل رحيلها، ريشة في مهب الريح أمسيت.

ـ ما تشعرين به الآن هو أمر طبيعي، لقد كانت تملأ كل حياتك وأوقاتك، حياتك كانت مصادرة، أما الآن فستعودين إلى نفسك وإلى عالمك الذي هجرته لسنوات، أعلم أن ذلك ليس سهلاً لكنك ستتلاقين مع ذاتك وتتصالحين معها من جديد وتباشرين

حياتك التي توقّفت لمدة معينة. أتفهم شعورك بالفراغ، لكنه شعور لن يدوم طويلاً، فالحياة أقوى من الموت ونعمة النسيان هي أهم ما مُنحه الإنسان من نعم.

أصغت هبى لما قلت من دون أن تقاطعني، لكنها وبعد صمت قصير قالت:

ـ أنت تعلمين كم كان تعلقي بوالدي قوياً، لكنني تقبّلت موته، فمنذ أن رأيته في سريره مسجى اعترفت وقبلت رحيله، لم أشعر بالفراغ من بعده، لم أشعر باليتم كما أشعر الآن مع أنني أعترف وأقر بأنني كنت أحبه أكثر مما أحببت والدتي. هل ستصادر ما تبقى من حياتي بعد رحيلها كما صادرت حياتي بوجودها؟

ـ ما زلت تحت وطأة فراقها، كل الأمور ستستوي لاحقاً، أنا متأكدة من ذلك، وأتفهم تقبلك لموت والدك وعدم تقبلك لموت والدتك؛ فعلى الرغم من تعلقك بوالدك لم يكن حاضراً في حياتك كحضورها ولم تهتمي به كما اهتممت بها ولم يعش في بيتك كما عاشت هي. أما الأمر الأهم فهو أن حبل السرة هو مع الوالدة وليس مع الوالد.

ـ ماذا تقصدين؟ سألت هبى.

ـ أظن أن هذا الحبل لم ينقطع بينك وبين والدتك يوم ولادتك بل يوم وفاتها، ولهذا السبب تشعرين بالضياع وباليتم وبالفراغ و... وكل هذه الحالة التي أنت فيها الآن. هي لم تقطع هذا الحبل وأنت لم تفعلي، وهنا يكمن كل التباس العلاقة التي كانت بينكما. أما الآن فقد تغيّرت الأمور، لقد انقطع الحبل وولدت من جديد، فعليك أن تروّضي نفسك على هذا الواقع وأن تنطلقي

بمفردك، وما زال الوقت أمامك لتحقيق ذاتك والقيام بكل ما تودين القيام به، وأنا واثقة من قدرتك على ذلك أنت التي رفضت كل التقاليد والأعراف في سبيل التحرّر وامتلاك الذات واستقلالها.

ـ تحليلك يعجبني وربما كان صحيحاً؛ كنت دائماً أشعر بأن علاقتي بها مرتبكة. وعلى الرغم من صعوبة طباعها واستبدادها لم أتمكّن من الابتعاد عنها ولا حتى إهمالها ولو ليوم واحد. ما يربطني بها كان أقوى من كل ما يفرقني عنها. أهو حبل السرة النفسي الذي تكلمت عنه؟ ربما، لكن هل تعتقدين أنه انقطع الآن؟

ـ لا أعتقد فقط، بل أجزم، والدليل هو هذا الفراغ الذي تشعرين به.

ـ هو ليس فراغاً بقدر ما هو رفض وعدم تقبل؛ لا أتحمّل فكرة أنها ما عادت موجودة كما حصل يوم فقدت والدي. هل الظروف التي مات فيها والدي تؤثر في الموضوع؟

ـ أية ظروف؟ سألتها.

ـ توفي ولدي خلال الحرب الأهلية في البلد والموت كان يحيط بنا من كل صوب وكل يوم كان يسقط عشرات القتلى، كان الموت خبزنا اليومي، هل ذلك سهّل علي تقبل موته؟ لكن ما هو أهم من التقبل هو هذا الفراغ المدوي الذي أعقب رحيلها والذي لم أشعر به بعد رحيله.

ـ ربما كان للظروف أثرها، لكن دعيني أعطيك هذا التشبيه الذي ينطبق على الحالتين: خذي زهرة المضعف مثلاً، أنها من أجمل الزهور وعطرها من أرقى العطور، لكن حين تقتلعينها من الأرض تنسل انسلالاً ولا تحرّك التراب الذي يحيط بجذعها فهي تخرج

بصمت ومن دون جلبة، بينما «جب الشوك» حين يقتلع من الأرض يخلخل كل التربة حول جذعه ويترك حفرة كبيرة، وهذا ما ينطبق على موتي والدك ووالدتك و...

لم تتركني أتابع، بل قالت:

ـ لم تُوفّقي كلياً باختيارك هذا التشبيه فإن صح أن والدي كان كزهرة المضعف فوالدتي لم تكن «جب شوك». بل كانت كالشمعة التي تُحرق كل من يقترب من لهبتها، لكنها كانت مشعة ومضيئة وتنير كل المكان وبانطفائها عمت الظلمة. لكن ما يعزيني أنها، بالفعل كالشمعة ظلت مشعة حتى آخر لحظة وانطفأت حين ذاب الشمع كلياً، جسدها انتهى فانتهت، لقد ماتت ولم تنكسر. رحل جسدها الذي أنهكته السنون والأمراض المزمنة، لكن حضورها المهيب ما زال قائماً، ولا أظن أنه سيزول، وما يواسيني الآن هو عدم انكسارها ومحافظتها على كامل شخصيتها حتى الرمق الأخير.

ـ بالفعل، كانت إنسى جبارة وصعبة المراس كما كنت تخبريني عنها، لكنها عمّرت بيتكم وكانت تتحمل المسؤولية وتبادر و...

ـ كانت حاضرة وحضورها طاغياً، لقد دمغت وجودها ومرورها في هذه الحياة بدمغة خاصة وفريدة، لن تتكرّر.

ـ لكنها أنهكت حياتك بهذه الدمغة الفريدة كما تسمينها.

ـ لا أنظر إليها الآن من خلال علاقتي معها ومن خلال معاناتي من هذه العلاقة، أنظر إليها من بعيد، أنظر إليها بحد ذاتها، وأجد أنها كانت كائناً ذا بصمة مميزة. والغريب أنني نسيت كل

عذاباتي معها ولم يبقَ في قلبي إلا صورتها البهية. والأغرب من ذلك أنني أشعر بتأنيب الضمير والندم على بعض سلوكي معها.

قالت هبى ذلك وبكت، فدنوت منها وحاولت مواساتها قائلة:

ـ لا أوافقك الرأي، لقد رافقتك لسنوات وأعرف أنك قمت بكل واجباتك حيالها، فلماذا الندم وعلى ماذا؟

ـ لقد قسوت عليها أحياناً كثيرة، وبخاصة حين كنت أتهمها بأنها تخترع الأوجاع لتبقيني إلى جانبها، بينما أوجاعها كلها كانت حقيقية. ثم إنني لم أتفهّم معاناتها من الوحدة التي بدأت أشعر بها الآن وأتلمّس قساوتها. كانت تخاف من الليل وما كنت أحاول أن أتفهم خوفها وهو خوف حقيقي.

ـ لكنكم لم تبقوها يوماً واحداً من دون مرافقة أو خادمة، أو... فلماذا تجلدين نفسك الآن وتحملينها ذنباً ليس بذنب. ثم لا تنسي أنك لست ابنتها الوحيدة وأنا أجزم أنك قمت بأكثر مما هو مطلوب منك ولا أرضى بأن تندمي على أي تقصير لأنك لم تقصّري معها إطلاقاً.

ـ القضية ليست في التقصير أو عدمه، من ناحية الواجبات، بل بالطريقة التي كنت أقوم بها بواجباتي؛ كنت كثيرة التأفف و..

ـ لا تكملي، أرجوك، لقد تابعتك خلال كل المرحلة السابقة وأجد أن ما كنت تشكين منه هو أمر طبيعي لأن النفوس لا تتحمل أكثر من طاقتها، وأنت، أحياناً، تحملت أكثر من طاقتك. وأتمنى عليك ألا تزجي نفسك في مسالك أنت منها براء.

ـ لو كنت أدري أن حياتها ستنتهي بهذه السرعة لكنت لبيت

رغبتها بأن تعيش معي وهذا كان حلمها الوحيد.

ـ لقد حققت لها رغبتها ونقلتها إلى بيتك وعاملتها أحسن معاملة.

ـ أمران يعزيانني الآن هما أنها ماتت من دون أن تنكسر، وأنني حقّقت لها رغبتها بأن تعيش معي ولو لوقت قصير.

ـ أتمنى لكل محب أن يلقى حسن المعاملة في آخرته كما حصل مع والدتك؛ لقد كانت محاطة ومخدومة أفضل خدمة. هل نعلم نحن كيف ستكون آخرتنا؟

ـ حالة والدتي في آخر أيامها، وضعتني أمام موتي الخاص وطرحت على نفسي أسئلة كبيرة، منها: من سيهتم بي إذا ساءت حالتي وعجزت، وهنا أطلب من الله أن يميتني فجأة ومن دون مقدمات وأمراض وعجز. وبعض الأحيان كنت أقوم بعملية حسابية مضحكة: سألت نجوى مرة عن عمرها وعلمت أنها تصغرني بأكثر من عشرين سنة وبالتالي حين أصبح بعمر والدتي تكون هي بمثل عمري الآن وستكون قادرة على الاعتناء بي كما تعتني بوالدتي. قمت بهذه العملية الحسابية وقلت لنفسي: سأحتفظ برقم هاتف نجوى وسأظل على اتصال بها.

ـ ما زلت في فترة جيدة من عمرك وأمامك الكثير بعد، لا تفكري بالآخرة. لكني أوافقك الرأي في ما قلته لأن موت الأحبة يضعنا مباشرة أمام موتنا الخاص ونعيش موتهم كأنه موتنا نحن. أما الفارق فهو أنهم ما عادوا يشعرون بشيء بينما نحن نعيش الموت ونحن أحياء، مع العلم أن الموت والحياة لا يلتقيان. وما الخوف من الموت إلا النظر إليه من وجهة الحياة.

ـ لكنه مرعب إذ يتحول الكائن، وبلمح البصر، من حي يشعر ويفكر و... إلى مجرد كتلة جامدة لا تختلف عن أي جماد آخر. ولهذا السبب لم أتمكن من رؤية والدتي بعد هذا التحول، أردت الاحتفاظ بصورتها الحية. لم يعلق بذهني، بعد وفاة والدي إلا صورته وهو مسجى على السرير لأنني شاهدته ميتاً، أما صورة والدتي في ذاكرتي، فما زالت تنبض بالحياة، وكيفما توجهت في البيت أراها وأسمعها.

ـ تفهمت رفضك لرؤيتها ميتة وقبلته على الرغم من انتقاد الآخرين لك وعتبهم عليك لأنك لم تلق النظرة الأخيرة على والدتك. فما سلوكك هذا إلا رفضاً لموتها.

ـ تماماً، ورفضي هذا ملتبس وهو رفض الأم لفقدان ابنتها. أنا لم أفقد أمي، بل ابنتي.

مسحت هبى عينيها من الدموع التي تجمعت في مآقيها وهي تقول ما قالته، فاقتربت منها وحضنتها قائلة: «أعرف، أعرف».

ـ ماذا سأفعل بعدها؟ صاحت بي، لقد كانت تملأ حياتي وكل أوقاتي، ماذا سأفعل؟

ـ بعد فترة ستتعودين على غيابها وتستأنفين حياتك. الأمر ليس سهلاً لأنها كانت تشكل لك مهرباً مما كنت تودّين فعله وتتهرّبين منه في الوقت نفسه. كانت تشكل حجة لهروبك من الكتابة مثلاً، هذه الكتابة التي تحبينها وتهابينها معاً. كانت عذراً شرعياً لكسلك الذي ترفضين الاعتراف به.

صمتت هبى وهي تهز برأسها كأنها وضعت أمام مواجهة صريحة

مع الذات ثم قالت كأنها تخاطب نفسها: «إنها كسلي، هذا الشعور الممتع الذي يرميك في نوع من الخدر اللذيذ. إنها هروبي من ذاتي، هذا الهروب الذي ينجي المرء من مواجهة الذات ومحاسبتها، وبهذا المعنى كانت ملاذاً وليس عبئاً. أمي كم سأشتاق إليك!

ـ ماذا ستفعلون ببيتها؟ سألت هبى كي أخرجها من لوعتها وأعيدها إلى الأمور الواقعية.

ـ البيت ما عاد يعني لي شيئاً على الإطلاق. لقد خيرني إخوتي بين انتقالي إليه وبين بيعه، ففضّلت بيعه على الرغم من أنها كانت شديدة التعلق به وكانت تتمنى علي دائماً أن أبيع بيتي وأعيش معها؛ كانت تقول: «بيعي بيتك وتصرفي بسعرو وعيشي معي وبيبقالك هادا البيت من بعدي». لم أقتنع معها ولست نادمة، فأنا أحب بيتي وآنس إليه ولا تغريني البيوت الكبيرة. سأبيعه بأسرع وقت، والشاري جاهز وهو من سكان البناية وقد عرض علي شراءه حتى قبل وفاة أمي وبعدما نقلتها إلى بيتي.

ـ وهل سيشتريه مع عفشه؟

ـ لا، وقد طلبت من أحد الأقارب أن يوزّع كل مقتنيات البيت على العائلات المستورة. لكن علي الكشف على أمتعتها الخاصة من ملابس وغيره. ستساعدينني في ذلك لأنني لا أشعر بالقوة للقيام بتوضيب كل أغراضها التي سأرسلها إلى الضيعة كما طلبت مني إحدى القريبات لكي توزعها على بعض النسوة، وهي تعرف جيداً أن أمي لم تكن ترتدي إلا أرقى الأزياء وأهم الماركات. سأعطي كل ما كان لها إلى الفقراء كي يترحموا على روحها.

ـ ومتى ستقومين بهذا العمل؟

ـ يبدو أن الجار الشاري مستعجل وعلي ترتيب الأمر بأسرع وقت.

ـ سأكون معك، كما تريدين. قلت لها قبل أن أنصرف وأتركها وقد أفرغت بعض ما في قلبها، وما أفرغته وضعني أمام شخص مختلف عن السابق؛ ما هذا الانقلاب الذي حدث عند هبى؟ هل الموت يموقعنا في حيز نرفضه في غيابه؟ رحيل والدتها هز كيانها وحوّل نظرتها إلى كل الأمور، حتى أن كل السلبيات السابقة باتت إيجابيات. هل هو النّدم؟ هل هو وخز الضمير؟ لماذا نستفيق دائماً بعد فوات الأوان؟ لماذا الحياة قاسية والموت رحيم؟ كانت هبى ترفض أن تكون والدتُها أمَها وقد عبرت لي عن ذلك مرات عديدة: «والدتي ليست أمي». كانت تردّد حتى أنني لم أسمعها مرة واحدة تقول أمي، كانت دائماً تسميها الوالدة حين تتكلم عنها. هل الموت صالحها مع من نقمت عليها في الحياة؟ يصالحها فقط بل قلَبَها نهائياً وهذا ما يقلقني عليها لأنها ستتعذب، ولهذا السبب لن أتركها لوقت طويل ولن أنتظر اتصالها كي أزورها، سأبقى إلى جانبها حتى تستعيد ذاتها كما أعرفها وأنا كلي ثقة من قدرتها على التغلّب على كل الصعوبات. قرّرت الانتظار أسبوعاً كاملاً لأفسح مجالاً أمام هبى كي تنجز معاملات بيع البيت، لكنها سبقتني واتصلت.

18

ـ وافيني إلى بيت أمي، لن أجرؤ وحدي على إفراغه.

ـ هل بعت البيت بهذه السرعة؟ سألتها.

ـ نعم، وسألغيه نهائياً، لن تسكن أمي إلا بيتي من الآن وصاعداً.

إجابتها أربكتني وأكدت لي أن هبى ستعاني لوقت طويل. أجّلتُ كل أموري الخاصة ومضيت للقائها.

دخلت بيت أمها، كما باتت هبى تناديها، ووجدت ورشة من الشبان ينقلون كل أمتعة البيت وأثاثه إلى كميون راكن في أسفل البناية. هبى كانت، مع الخادمة، في غرفة نوم أمها وأبواب خزائن الملابس مشرّعة. حين رأتني رحبت بي وقالت: «رحمها الله كم كانت تحب الثياب الأنيقة! هيا ألقِ نظرة على هذه الكمية الهائلة

من الفساتين و«التيورات» والمعاطف والأحذية وحقائب اليد و... كانت تشتري لكل رداء حذاءً يناسبه».

ـ الكل يشهد لها بالأناقة و«الجخ»، لكن ماذا ستفعلين بكل هذا؟ سألت هبى.

ـ كما قلت لك سأهديه إلى نساء الضيعة وأستبقي لنفسي ببعض القطع للذكرى، كما سأحتفظ بأغراضها الخاصة من صور وغيرها.

وقبل أن نباشر بجمع الثياب، فتحت هبى كيساً بالقرب منها وأخرجت منه صورة لأمها وقالت: «هذه آخر صورة لها».

ـ أذكرها جيداً، كانت في الصالون، وأذكر أيضاً ما طلبته منك والدتك قبل أن تضع الصورة في الإطار.

ـ وأنا أذكر وسأنفذ. أجابتني وهي تعيد الصورة إلى مكانها، قبل أن تعود إلى عملها السابق وتقول:

ـ هيا ساعديني في توضيب هذه الملابس وجمعها في الأكياس قبل أن يصل الـ«بيك آب» الذي طلبته لنقلها.

باشرنا بالعمل وكانت هبى كلما أخرجت قطعة من الخزانة، ترفعها أمامها وتقول: أراها وهي ترتديها وتختال أمام المرآة وتمد يدها على رأسها كي ترتّب شعرها بطريقة يبدو فيها كثيفاً، عقدتها الوحيدة كانت شعرها الذي كان قد تساقط بكثرة في أعلى الجبهة بعدما أحرق بصلته أحد الحلاقين كما أخبرتني مرات عديدة. كانت معجبة بجمالها الذي لم ينغصه إلا هذه الناحية فقط التي كانت تحاول إخفاءها بشتى الطرق.

أنهينا جمع الملابس وانتقلنا إلى الثياب الداخلية وقمصان النوم وغيرها، ولاحظت أن هبى ترمي في كيس خاص قمصان النوم المستعملة بينما تضع الجديد منها والذي ما زال في علبه، في الأكياس المعدة للترحيل. وإلى هذه القمصان المستعملة أضافت كل الشالات الصغيرة التي كانت تضعها أمها حول عنقها. لم أعلّق على هذا السلوك مع أنني كنت أحدس بما يختلج في داخل هبى وأجّلت الكلام عنه إلى جلسة خاصة.

انتقلنا إلى بيت هبى ومعنا كيسان، واحد يحتوي على الصور وبعض الأشياء الرمزية، وآخر يحتوي على ما جمعته هبى من ملابس أمها. دخلنا الصالون وأول عمل قامت به هبى هو أنها أخرجت صورتي والديها وركزتهما على طاولة عالية بعد أن أفرغتها مما كان فوقها. ثم نظرت إليهما بعدما عادت إلى مكانها وقالت: «الآن سيبقيان معاً إلى الأبد». لكن ما أن أنهت جملتها حتى نهضت من جديد وتوجّهت نحو الطاولة حيث الصورتان، رفعت صورة أمها وعادت إلى مكانها وأخرجت الصورة من إطارها. توجهت نحو مكتبها وأتت بقلم تلوين بنّي اللون وباشرت بملء أعلى الجبهة بخطوط رفيعة تشبه الشعر القصير. استمرت في عملها هذا لدقائق، ثم أدارت الصورة نحوي وقالت: «انظري كم هي أجمل هكذا. هذا ما أرادت أمي أن أقوم به من قبل ولم أستجب لها. ليتني لبّيت طلبها وهي على قيد الحياة مع أنها كانت قد ألحت علي مرات عديدة بأن أفعل. كنت في حينه أهزأ من طلبها وأنعتها بالنرجسية المتطرفة، لكنها رحلت وسأحتفظ لها بالصورة التي كانت تريدها هي لنفسها. ما يبقى من الإنسان هو مجرّد صورة نضعها على الطاولة أو نعلّقها على الحائط، فمفروض علينا أن نحتفظ بصورة يرضى عنها الراحل».

أثّر فيّ ما قامت به هبى ولم أعلّق بأية كلمة، بل دنوت منها وقبلتها وبقينا صامتتين وهي تنظر إلى صورة أمها وتهز برأسها يمنة ويسرة كأنها تعتذر عن تأخرها في تلبية طلبها. ولكي أبعدها عن الموضوع سألتها:

ـ لماذا احتفظت بقمصان نوم أمك المستعملة وتخليت عن الجديدة، مع أن المنطق يفترض العكس؟

ـ ليس للمنطق العادي دور في الحالات الوجدانية التي لها منطقها الخاص. تذكرين أن أمي، في آخر أيامها كانت تلح علينا في أن تنام في سريري، يعنى أن تنام بالقرب مني. وتعلمين كم استخففت بذلك الطلب وفسرته بأنها تريد مصادرة كل زاوية في بيتي. لم أفهم طلبها هذا في حينه، أما الآن وبعد رحيلها أدركت أنها كانت بحاجة إلى لمسة حنان وما طلبها ذاك إلا كطلب الطفل الذي لا يشعر بالأمان إلّا في حضن أمه. لقد قهرتها كثيراً في عدم تلبية رغبتها، والآن أنا نادمة جداً؛ ليتني نفّذت ما طلبت ولو لليلة واحدة.

صمتت هبى قليلاً وهي تمسح دموع عينيها ثم تابعت كأنها تحاول أن تجد عذراً لرفضها تلبية رغبة أمها: «لم أفعل لأنني كنت مرعوبة من إمكانية أن تفارق الحياة وهي قربي في السرير».

ـ وما علاقة كل ذلك بقمصان نومها؟

ـ عملية تعويض. سأرتدي هذه القمصان التي لامست جسدها وهكذا ستكون معي في سريري ولو رمزياً. هذه الليلة بالذات سأرتدي أحدها وستكون معي، سأحضنها وأعطيها كل الأمان الذي حرمتها منه. آه لو...

لم أتركها تتابع جلد نفسها وصرخت بها:

ـ كفى! لا أريد أن أسمع المزيد، أنا الشاهد الوحيد على ما قمت به تجاه أمك وقد تحملت الكثير الكثير ومن الظلم أن تلومي نفسك الآن على أي تقصير. لماذا هذه المازوشية المستجدة عندك؟ لماذا تعذبين نفسك وأنت تعلمين جيداً أن لا فائدة من ذلك؟

ـ الفائدة الوحيدة هي أنني أدركت كل مأساة الحياة. أجابتني هبى وعيناها شاردتان في البعيد.

ـ الحياة ليست مأساة لمن يعرف أن يعيشها بصدق ومصالحة مع الذات. أجبتها.

ـ كل مأساة الحياة تختصرها كلمة «لو»؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أننا ندرك الأمور دائماً بعد فوات الأوان، هذه هي مأساتنا، مأساة هذه الحياة. سيد هذا الكون هو الزمن الذي يسير باتجاه واحد لا حياد عنه، لا يتوقّف ولا يعود إلى الوراء، فهو دائماً يسبقنا ويتركنا نلهث وراءه مثقلين بالندم غير المجدي. هو الكائن الضاحك الوحيد، الساخر الوحيد الذي يلهو بنا كالدمى.

ـ أعرف ذلك، لكن علينا ألا نستسلم وإلا جرفنا الزمن خارج الواقع، الذي علينا التعامل معه بكل معطياته السلبية والإيجابية. علينا أن نعيش الحاضر ونتطلع إلى المستقبل تاركين كل الماضي وراءنا تماماً كما يفعل الزمن.

ـ الكلام العقلي سهل ومقنع، لكن للمشاعر سطوة تفوق أحياناً صوت العقل. قالت هبى وهي تخرج من أحد الأكياس التي جلبتها من بيت أمها، تلك الـ«الشالات» الصغيرة التي جمعتها مع قمصان النوم. رفعتها بين يديها وأدنتها من أنفها وشمتها وهي تقول: «لا زالت رائحة أمي فيها».

ـ لماذا اخترت هذين الغرضين فقط من بين كل أغراض أمك؟ سألتها.

ـ كي أظل ألمسها وأشمها؛ حين أرتدي أحد قمصانها أشعر بأن جسدي يلامس جسدها وحين أشم «شالاتها» أستعيد رائحتها ورائحة عطرها المسكي. وأنت تعلمين ما قيمة الشم واللمس عندي.

ـ أعلم أنهما ركيزتا الحضارة الإنسوية التي تطالبين بها إلى جانب الحضارة الذكورية القائمة على السمع والبصر كما كتبت مرة في إحدى دراساتك حول القول الإنسوي.

ـ إنهما من حضارة الداخل والحميمي بينما السمع والبصر هما من حضارة الخارج السلطوي. لكن دعينا من الفلسفة، ما احتفظت به من كل أمتعة أمي هو ما يقربني منها، ما يجعلها دائمة الوجود معي.

صمتت هبى قليلاً وهي تنظر في كل أنحاء بيتها ثم قالت:

ـ لا أدري أين ستكون كل هذه المقتنيات في يوم من الأيام. بعدما وزعت أثاث بيت أمي إلى عائلات لا أعرفها أدركت أن التعلق بالأشياء التافهة هراء. كانت أمي شديدة التعلق ببيتها

ومحتوياته ولم تفرّط يوماً بأي شيء منها، كانت تحافظ عليها وترفض حتى تغييرها بما هو أجمل منها وأكثر عصرنة. هل هي مرتاحة الآن لما قمت به؟

ـ تتكلمين وتتحسرين كأنها لا زالت حية تراقب أعمالك. أفهم حالتك الآن فالجرح ما زال طرياً ومن الصعب عليك تقبل الأمر الواقع، لكني واثقة، وهذه حال الدنيا، أنك ستخرجين من حزنك وتتقبلين سنّة الحياة، فالنسيان هو أحياناً أهم من الذاكرة وكثيراً ما يتغلّب عليها.

ـ كيف أنساها وهي تملأ البيت وصوتها الذي يناديني باسمي يطن في أذني أينما توجهت؟ لا، لن أنساها.

تفهمت وضعها وهو وضع طبيعي جداً ولهذا السبب لم أتابع النقاش معها، بل استأذنتها وانصرفت على أمل أن أجدها أفضل مما هي عليه الآن بعد أسبوع أو أكثر. تركتها وأنا مندهشة، لم أكن أتوقع ردّ فعلها العنيف هذا، لم أكن أتوقع انهيارها أمام أمر كانت تتوقعه إن لم أقل تتمناه. هل تمنيها السابق وربما اللاواعي أيقظ كل هذا الرفض الواعي الآن؟ هل هو الندم؟ هل هو الشعور بالذنب؟ ربما، لكنها مخطئة ولا أزال أقر بأنها قامت بكل واجباتها حتى ولو كانت تتذمر وتثور أحياناً. عليّ أن أقنعها بما أنا مقتنعة به علّها تخرج من حالة جلد الذات مجاناً.

19

بعد أكثر من أسبوع استمرت خلاله الاتصالات الهاتفية بيننا، ذهبت إليها وفوجئت بأن حالتها قد تحسنت بشكل ملموس؛ مسحة من الصفاء تغلف وجهها ولو أن ابتسامتها ما زالت حزينة. استقبلتني بود كبير وجلسنا على مقعدينا المعتادين في صالونها. احترت بما سأفتتح الكلام، لكنها بادرت هي:

ـ لم تمت أمي ولن تموت، والزمن الذي كلمتني عنه لن يقوى عليها.

نظرت إليها لأتأكد أنها لا تهلوس ولذت بالصمت أنتظر ما ستتابع به كلامها. ابتسمت كأنها أدركت ما يجول في خاطري من تساؤلات وتابعت:

ـ ليس للزمن فعل كما كنت تكررين دائماً، الفعل كله للذاكرة

التي تعمل وفقاً للأحداث وأهميتها؛ الموت حدث واحد بالنسبة لهما، لكن تعاملهما معه هما مختلفان. الزمن يراكم بينما الذاكرة تختار، إنها انتقائية، تحتفظ بما تشاء وترمي الباقي في النسيان، تحتفظ بالأساسي وتهمل الهامشي وتهديه للزمن كي يتفاعل معه. ذاكرتي تحركت بعد الحدث وأبلغتني أن أمي لن يقوى عليها الزمن.

ـ ماذا تقصدين؟ لم أفهم شيئاً.

ـ الزمن بليد، بينما الذاكرة متحفزة ووقع فعلها سريع ولا تترك لك الوقت للتحليل والفهم مع أنها ركيزة كل التعقل والفهم إذ من دونها لا عقل ولا تعقل ولا فهم ولا تفهم كما يحصل في حالات الألزهايمر. وذاكرتي تغلبت على الزمن وكانت أسرع منه في حسم الأمور.

ـ اختصري في تحليلك الفلسفي وردّيني إلى الواقع. ما الذي يدفعك إلى القول إن والدتك لم تمت ولن تموت، مع أنه قول نسمعه دائماً في مثل هذه الحالات وهو يعني أننا سنذكر الميت دائماً بحيث سيبقى بيننا، وهي تعزية للذات أكثر منها إكراماً للميت.

ـ أنا لم أقل أبداً إن والدتي لم تمت.

ـ وماذا سمعت إذاً؟ لقد قلتها ومنها انتقلت إلى مفهومَي الزمن والذاكرة و...

ـ والدتي، يا صديقتي العزيزة، ماتت، أقر بذلك وقد ماتت ورحلت لحظة مفارقتها الحياة، لكن أمي هي التي لم تمت.

ماتت والدتي فانبعثت أمي، رحلت والدتي وحضرت أمي، ولهذا السبب قلت لك إن عمل الذاكرة هو أنشط من عمل الزمن وأسرع. فما أن انتهينا من مراسم الدفن وتوابعه وعدت إلى ذاتي حتى اكتشفت أنني نسيت والدتي كلياً ولم يبق في ذاكرتي إلا أمي التي كنت أغيبها خلال حياة والدتي. ماتت الوالدة وكان موتها فعل ولادة لكائن جديد سأرعاه بكل ما أعطيت من قوة وبكل ما يستأهله من اهتمام.

صمتت هبى قليلاً قبل أن تتابع:

ـ ماتت والدتي لتعيش أمي، هذا هو فعل الذاكرة؛ لقد رمت في النسيان الوالدة واحتفظت بما يستحق الاحتفاظ به. حدث الغياب بعث النشاط في عمل الذاكرة وليس الزمن الذي سيعمل وفقاً لها ويراكم إيجاباً، ليس سلباً. وحين أقول لك إن أمي لم تمت ولن تموت، أنا صادقة كل الصدق، وحين أقول إن والدتي قد رحلت إلى غير رجعة أنا أيضاً صادقة مع ذاتي قبل أن أكون صادقة مع الآخرين. والدتي انتهت ولن تعود، لقد أسقطتها ذاكرتي نهائياً حتى أنني ما عدت أذكر كل ما أخبرتك عنها، بينما أمي هي الوشم الخالد في كياني. لم أعرّفك إلا إلى والدتي التي ما عدت أذكرها الآن لكن دعيني أخبرك من هي أمي التي سأعيش معها من الآن وصاعداً لأنها لا زالت حية. سأدعها تعيش في بيتي لتشاركني كل أموري وتوجه خطواتي. الآن فهمت تعلق من كنت أسميها والدتي بي؛ لم يكن أنانية كما اعتقدت سابقاً، أنا واثقة الآن أنه من باب الخوف من الوحدة الذي لم تعترف به صراحة. الوحشة التي كانت تعيش فيها هي التي كانت تدفعها للاتصال الدائم بي، كانت بحاجة إلى من تبادله الكلام وغيره،

وهي لم تظهر تعلقها «الأناني» بي إلا بعد رحيل والدي، حين باتت وحيدة. قبل ذلك ما عدت أذكر إلا اهتمامها بي ولو على حساب شقيقتي، أذكر سهرها في الليالي كي تصنع لي أجمل الملابس ولكي أكون أجمل الفتيات. أذكر استيقاظها باكراً كل يوم لتقوم بكل ما يحتاج إليه البيت والأولاد والزوج. أذكر أنها لم تتركنا ولو يوماً واحداً من دون طبخة جديدة. كم كان طبخها لذيذاً وشهياً وقد اكتسبت منها بعض مهارتها في هذا المجال. أذكر حبها لاستقبال الناس، أذكر حبها للأناقة والجمال. أذكر...

ـ ما هي أهم صفاتها؟ إن حاولت تلخيصها بكلمة، ماذا تقولين؟ سألت هبى.

لم تتردّد وقالت:

ـ عزة النفس، إحساسها المفرط بكرامتها وطموحها وكلها صفات زرعتها في نفوس أولادها منذ الصغر؛ كانت دائماً تؤنبنا إن لم نصنف في المرتبة الأولى في المدرسة، لقد رعت طموحنا بالممارسة وليس فقط بالتلقين اللفظي. كل حياتها كانت تطمح إلى الأعلى وقد حقّقت الكثير من طموحاتها. أما الإحساس بالكرامة فقد أورثتنا إياه بحيث لم يحنِ أحد منا رأسه أو قامته أمام أي إغراء مهما عظم. شعورها بالفخر أنها ابنة أبيها، ذلك الفارس الشهم والمحترم رافقها طوال حياتها؛ كانت فخورة بأصلها وبجذورها. باختصار كانت كبيرة النفس وشامخة ولا ترضى بالذل إطلاقاً. أما صراحتها فكانت أحياناً جارحة وإن أرادت أن تقول شيئاً ما فما من رادع كان يمنعها. وعنادها في سبيل تحقيق ما خططت له كان هائلاً؛ إن صمّمت فعلت ولو كلفها ذلك الكثير. كانت مثال الصمود والعزة والكبر والطموح والصراحة والقوة

والحضور ولا أنسى الجمال؛ بالفعل كانت أجمل الجميلات وظلت حتى آخر حياتها جميلة. ولن أنسى ذكاءها الحاد والتقاطها للأمور بأسرع من البرق. فلو تمكنتْ من متابعة تعلمها كما هي الحال مع بنات اليوم لكانت نبغت من دون شك.

ـ لكنها كانت تضعف أحياناً كما علمت منك سابقاً.

ـ نعم كانت تضعف أمام المرض وخاصةً مرضها هي، وما ضعفها هذا إلا رفض للضعف؛ لم تكن تتحمّل ألا تكون قوية، ونرجسيتها كانت تأبى أن ترى جسدها مشوهاً. كانت مشبعة بذاتها وترفض أي امتهان لهذه الذات من أي جهة أتى. إنها بالفعل إنسى استثنائية، لن تتكرر بسهولة، وما يواسيني الآن هو أنها، كما قلت لك، رحلت ولم تنكسر.

ـ وما هي سيئاتها؟ سألت.

ـ ما عدت أذكرها، لقد سقطت كلها في هوّة النسيان ورحلت إلى الأبد مع والدتي.

صمتت هبى قليلاً وهي غارقة في نفسها، قالت:

ـ ما عدت أرى سوى ابتسامتها المشرقة وطلّتها البهية. هي الآن تضع رأسها عل كتفي وتمسك بيديّ وتقبلهما وتهمس في أذني: «لا تتركيني». هذه العبارة هي آخر ما سمعته منها قبل رحيلها بساعات، قالتها بصوت خفيض ونبرة مستسلمة. رحلت والدتي، ووريت في ثرى جبانة الضيعة لكن مدافن الأحبة هي القلوب ومدفن أمي هو قلبي الذي تردّد نبضاته: «أمي لا تتركيني».

١١ ـ ٢ ـ ٢٠١١

مؤلفاتها:

ـ **لبنان الحضارة الواحدة**، عمل مشترك، النادي الثقافي العربي، لبنان، ١٩٧٧.

ـ **أمين الريحاني رائد نهضوي من لبنان**، عمل مشترك، دار العلم للملايين، لبنان، ١٩٨٨.

ـ إلى هبى، **سيرة أولى** (رواية)، درا الفارابي، لبنان، ١٩٩١.

ـ **هبى في رحلة الجسد سيرة ثانية** (رواية)، دار مختارات، لبنان، ١٩٩١.

ـ **صوت الناي أو سيرة مكان**، (رواية)، دار مختارات، لبنان، ١٩٩٥.

ـ **نحو تحرير المرأة في لبنان (نظرة شاملة ورؤية مستقبلية) دراسة**، دار مختارات، لبنان، ١٩٩٦.

ـ **أنا هي أنت** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، تشرين الاول/أكتوبر ٢٠٠٠.

ـ **حين كنت رجلاً** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، آب/أغسطس ٢٠٠٢.
ـ **أيهما هو** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣.

- Ihsa El ulüm

Enumération des science ou classification des sciences. Traduction Française avec introduction et notes. Centre de développement National, Liban, 1991.

ـ **بالإذن من سِفْر التكوين** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥.
ـ **الصفحة الثانية** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧.
ـ **تركت الهاتف يرن** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، نيسان/أبريل ٢٠٠٩.